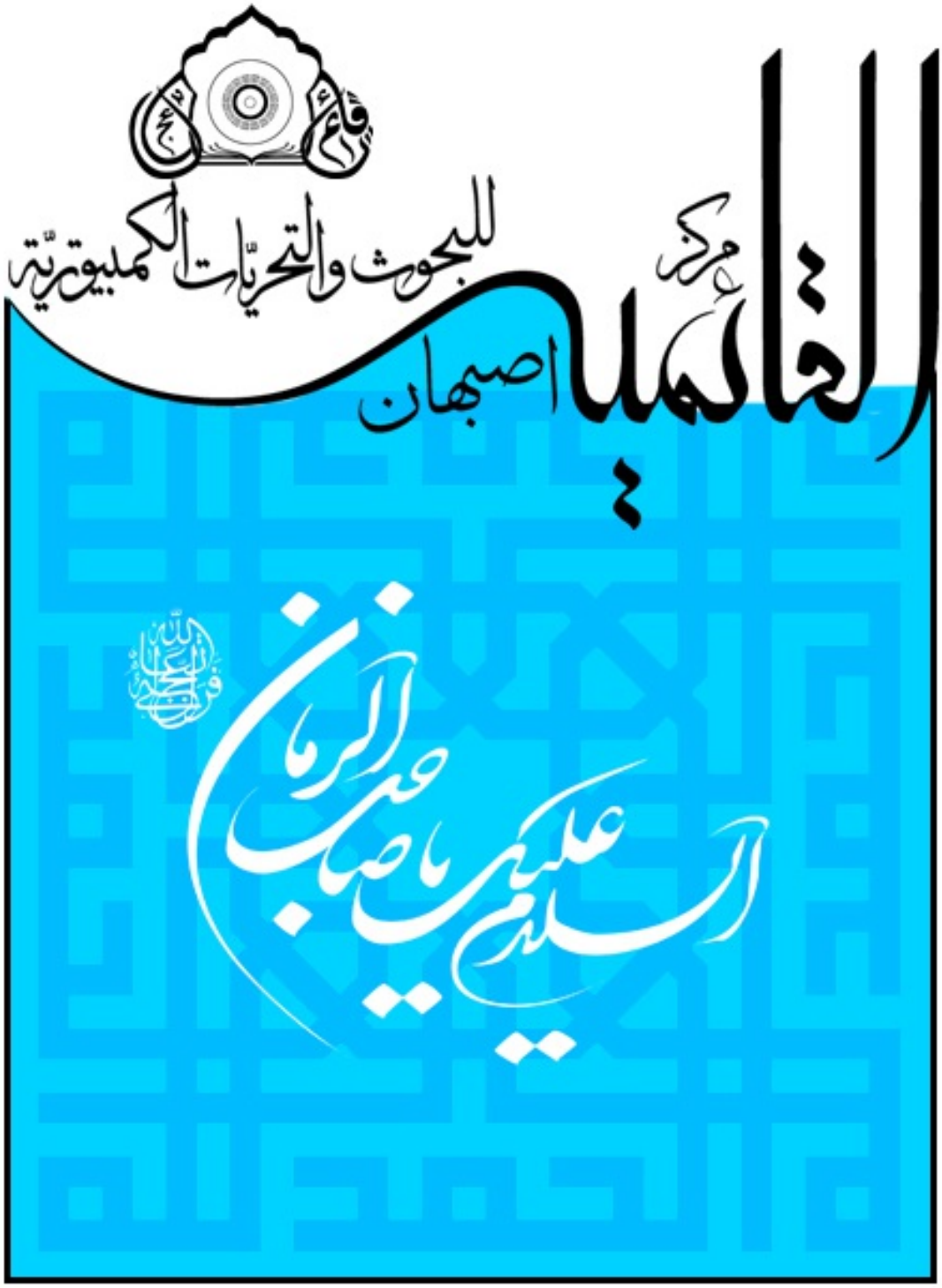

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب

وذكر قاضيها لسان الدين بن الخطيب

للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

الجزء التاسع

تحقيق

محمد محيي الدين عبد الحميد

نشرات

مكتب البحوث والدراسات

في

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

كاتب:

مقرى، احمد بن محمد

نشرت فى الطباعة:

دارالفكر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب المجلد ۹ ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
[تتمة القسم الثانی] ----- ۱۱
الباب السابع فی ذکر تلامذة لسان الدین ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
[الوزیر أبو عبد اللّه محمد بن یوسف بن زمرک، الصریحی، ترجمة عن «الإحاطة»] ----- ۱۱
[نماذج من قصائد ابن زمرک المطولة] ----- ۱۲
[قصیدة له یصف فیها «الزرافة» و قد وفد بها الأحادبیش علی أبی سالم ملک المغرب] ----- ۱۵
[قصیدة أخری لابن زمرک أنشدها السلطان] ----- ۱۷
[من شعره فی غیر المطولات] ----- ۱۹
[تقریظ لکتاب الشفاء عند ما شرحه ابن مرزوق] ----- ۲۰
[تعلیقات من کلام علی بن لسان الدین علی ما کتبه أبوه فی ترجمة الوزیر ابن زمرک] ----- ۲۱
[ترجمة ابن زمرک عن الأمیر ابن الأحمر] ----- ۲۲
[قصیدة لابن زمرک فی التهنئة بالعید] ----- ۲۶
[لابن زمرک فی الشکر] ----- ۳۰
[مقطوعات لابن زمرک فی وصف زهر القرنفل] ----- ۳۰
[قصیدة له یمدح فیها ابن الأحمر و یهنئه] ----- ۳۱
[قصیدة له فی المولد النبوی] ----- ۳۲
[قصیدة له فی التهنئة، و فیها یصف الجند] ----- ۳۵
[قصیدة أخری فی التهنئة، و فیها یصف دار الملک] ----- ۳۷
[تخمیس له یهنئ فیه ابن الأحمر بعوده من سبتة] ----- ۴۲
[قصیدة لابن زمرک یهنئ فیها بالعید] ----- ۵۱

[قصيدة له فى التهنئة أيضا] ۵۴
[قصيدة له يصف فيها نزهة لابن الأحمر] ۵۷
[مقطوعات له فى الشكر] ۵۹
[مقطوعات فى معان مختلفة] ۶۲
[مما أنشده على لحد ابن الأحمر] ۶۹
[له يستعطف السلطان أبا الحجاج] ۷۰
[من شعره فى أبى الحجاج] ۷۱
[له يراجع الكاتب أبا زكريا بن أبى دلامة] ۷۲
[موشحة لابن زمرک، يتشوق فيها إلى غرناطة] ۷۲
[موشحة أخرى لابن زمرک] ۷۳
[موشحة كتب بها إلى الغنى بالله] ۷۵
[موشحة أخرى عارض بها موشحة ابن سهل] ۷۶
[من موشحات ابن زمرک فى الصبوحيات] ۷۷
[موشحة لابن زمرک فى مالقة] ۸۲
[موشحة أخرى لابن زمرک فى مالقة] ۸۳
[موشحة لابن زمرک فى الشفاء] ۸۴
[موشحة لابن زمرک يهنئ فيها السلطان موسى بن أبى عنان] ۸۶
[موشحة لابن زمرک أخرى فى وصف غرناطة] ۸۷
[ترجمة أبى العباس أحمد بن جعفر، السبتى، الخزرجى، و ذكر بعض أحواله] ۸۸
[رجع إلى ترجمة ابن زمرک و بعض فوائده، عن الشاطبى] ۹۴
[موشحة لابن زمرک فى مدح الرسول] ۹۴
[من تلامذة لسان الدين الطبيب ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا و الأديب أبو بكر بن جزى الكلبى] ۹۵
[من تلامذة لسان الدين أبو عبد اللّه الشريشى] ۹۶

و من تلامذة لسان الدين: القاضى الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد اللّه بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربى. ۶

[من تلامذة لسان الدين الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون] ----- ۹۹
الباب الثامن [من القسم الثانى] فى ذكر أولاد لسان الدين ----- ۹۹
اشارة ----- ۹۹
[عدة أولاد لسان الدين و ترجمتهم بقلمه] ----- ۹۹
[قصيدة فى مدح الرسول من شعر عبدالله بن لسان الدين] ----- ۱۰۰
[و منه قصيدة يمدح بها السلطان أبا عبد اللّه محمد بن يوسف بن نصر] ----- ۱۰۱
[العبد اللّه ابن لسان الدين فى إعذار ابن السلطان] ----- ۱۰۳
[و له، و أنشده السلطان ليلة الميلاد فى سنة ۷۶۵] ----- ۱۰۵
[بين لسان الدين و ابنه عبد اللّه] ----- ۱۰۶
[على بن لسان الدين] ----- ۱۰۷
[تذييلات له على كتاب «الإحاطة» لأبيه] ----- ۱۰۷
[فى ترجمة محمد بن أحمد الهوارى، الشهير بابن جابر] ----- ۱۰۸
[من شعر ابن جابر الذى لم يذكره لسان الدين] ----- ۱۰۸
[مقصورة عجيبة من شعر ابن جابر رتبها على حروف المعجم فيما قبل الألف المقصورة، و أتى من كل حرف بعشرة أبيات] ----- ۱۱۰
[قصيدة لابن جابر تتضمن التورية بأسماء سورة القرآن الكريم] ----- ۱۲۰
[معارضة لقصيدة ابن جابر، على وزنها و رويها] ----- ۱۲۲
[قصيدة للشيخ القلقشندى جرى فيها مجرى ابن جابر] ----- ۱۲۳
[معارضة أخرى لقصيدة ابن جابر] ----- ۱۲۵
[خطبة نثرية للقاضى عياض تتضمن التورية بأسماء السور] ----- ۱۲۶
[خطبة لسعيد بن أحمد المقرى عم المؤلف عارض بها خطبة القاضى عياض] ----- ۱۲۷
[من نظم ابن جابر و فى معناه لشمس الدين الدمشقى] ----- ۱۲۸
[من شعر ابن جابر أيضا] ----- ۱۲۹
[رجع لأولاد لسان الدين، من ترجمة على بن لسان الدين] ----- ۱۲۹
[خطبة الكفعمى فى التورية بسور القرآن الكريم] ----- ۱۳۰

[قصيدة فى نسق سور القرآن للكفعمى أيضا] ----- ۱۳۱
[ترجمة إبراهيم بن على الكفعمى] ----- ۱۳۲
[رجع إلى نظم ابن جابر] ----- ۱۳۴
[من شعر أبى جعفر، رفيق ابن جابر] ----- ۱۳۴
[بين ابن عنين و الملک المعظمو مقطعات من شعر ابن جابر أيضا] ----- ۱۳۵
[قصيدة لابن جابر فى فضائل الصحابة] ----- ۱۴۱
[مقطوعات من شعر ابن جابر أيضا] ----- ۱۴۵
[من شعر أبى جعفر، رفيق ابن جابر] ----- ۱۴۷
[عود إلى ذكر على بن لسان الدين] ----- ۱۵۱
[نصيحة من إنشائه كتبها على لسان السلطان، و فيها عجائب مما أوصى به الولاة] ----- ۱۵۱
[من انشاء على بن لسان الدين أيضا على لسان السلطان] ----- ۱۵۴
[كتاب من إنشاء على بن لسان الدين عن لسان السلطان الغنى بالله] ----- ۱۵۶
[وصية لسان الدين لأولاده] ----- ۱۵۷
[وصية من إنشاء ابن الجيان المرسى، كتبها عن ابن هود ملک الأندلس إلى أخيه] ----- ۱۶۳
[من شعر ابن الجيان المرسى] ----- ۱۶۷
[من ترجمة ابن الجيان عن «الإحاطة»] ----- ۱۶۸
[من نثر ابن الجيان رسالة كتب بها إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم] ----- ۱۷۱
[ترجمة ابن الجيان عن «عنوان الدراية»] ----- ۱۷۴
[من بديع نظم ابن الجيان تخميس فى مديح النبى صلى اللّه عليه و سلم] ----- ۱۷۵
[قصيدة مخمسة لبعض أهل المغرب] ----- ۱۷۷
[قصيدة مخمسة لمؤلف هذا الكتاب] ----- ۱۷۸
[قصيدة فى مديح الرسول الأكرم لابن الجيان المرسى] ----- ۱۷۹
[قصيدة مخمسة فى المديح لإدريس بن موسى القرطبى] ----- ۱۸۰
[تقريظ لابن الجيان على قصيدة إدريس بن موسى السابقة] ----- ۱۸۲

[قصیدة مخمسة لابن سهل الإشبیلی] ۱۸۲
[قصیدة مخمسة لبعض الوعاظ] ۱۸۴
[قصیدة مخمسة لبعض أهل المغرب] ۱۸۴
[قصیدة مخمسة لمالک بن المرحل المالقی السبتی] ۱۸۶
[قصیدة مخمسة فی مدح النبی، لأبی العباس أحمد بن محمد المغربی] ۱۸۹
[قصیدة مخمسة فی مدح الرسول الأکرم، لابن القصیر] ۱۹۳
[لجمال الدین بن جلال الدین الجوزی فی مدح النبی] ۱۹۴
[تسدیس فی مدیح الرسول، لمحمد بن العفیف، الحسنی، الصفوی] ۱۹۴
[تسدیس آخر فی ندح النبی لمحمد ابن العفیف الحسنی الصفوی] ۱۹۷
[تسدیس آخر فی مدح النبی المصطفی لأبی عبد اللّه بن العطار، الجزائری] ۲۰۰
[تسدیس آخر فی مدح الرسول] ۲۰۳
[قصیدة فی مدح الرسول لابن العطار] ۲۰۵
[حدیث عن کتاب لابن العطار فی مدح الرسول صلی اللّه علیه و سلم] ۲۰۶
[من قصائد کتاب ابن العطار فی المدیح] ۲۰۷
[لابن العریف، فی مدح الرسول] ۲۱۱
[لأبی عبد اللّه بن عمران، فی مدیح الرسول] ۲۱۳
[مدائح فی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم مما نظمه ابن الجیان المرسی] ۲۱۴
[من شعر أبی القاسم سعد بن محمد و أبی الیمن بن عساکر] ۲۱۶
[قصیدة أخری لأبی الیمن بن عساکر] ۲۱۶
[مقطوعات لابن الجیان المرسی] ۲۱۷
[مقطوعات للإمام أبی زید الفازازی] ۲۱۸
[تسدیس فی مدح الرسول من نظم أبی الحجاج یوسف بن موسی المنتشاقری الأندلسی] ۲۲۲
[خاتمة الکتاب للمقری] ۲۲۵
فهرس الرسائل و الخطب و الوصایا للجزء التاسع من کتاب نفح الطیب ۲۲۶

فهرس الجزء التاسع من کتاب نفح الطیب، من غصن الأندلس الرطیب» للمقری التلمسانی و هو آخر جزء من أجزاء الکتاب ---------- ۲۲۶

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---------- ۲۳۰

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المجلد ۹

اشارة

نام كتاب: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

نويسنده: مقرى، احمد بن محمد

تاريخ وفات مؤلف: ۱۰۴۱ ه. ق

محقق / مصحح: بقاعى، يوسف

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ۱۰

ناشر: دار الفكر

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۱۹ ه. ق

[تتمة القسم الثانى]

الباب السابع فى ذكر تلامذة لسان الدين

اشارة

فى ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه المستدلّين به على المنهاج، المستفيدين أنواع العلوم منه و المقتبسين أنوار الفهوم من سراجه الوهّاج.

اعلم أنّ تلامذة لسان الدين رحمه اللّه تعالى كثيرون، إلّا أنه لم يرزق السعادة فى كثير منهم، بل بارزوه بالعداوة، و اجتهدوا فى إيصال المكروه إليه.

[الوزير أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن زمرك، الصريحى، ترجمة عن «الإحاطة»]

فمن أشهرهم الوزير الكاتب أبو عبد اللّه بن زمرك، وارث مرتبته من بعده، و مقتعد أريكة سعده، و قد ألمع به فى «الإحاطة» و كان إذ ذاك من جملة أتباعه، إذ قال ما محصّله:

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحى، يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن زمرك.

أصله من شرقى الأندلس، و سكن سلفه ربض البيازين من غرناطة، و به ولد و نشأ، و هو من مفاخره.

حاله- هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس، و أفراد نجبائها، مختصر مقبول، هشّ، خلوب، عذب الفكاهة، حلو المجالسة، حسن التوقيع، خفيف الروح، عظيم الانطباع، شره المذاكرة، فطن بالمعاريض، حاضر الجواب، شعلة من شعل الذكاء، تكاد تحتدم جوانبه، كثير الرقة، فكه، غزل مع حياء و حشمة، جواد بما فى يده، مشارك لإخوانه. نشأ عفّا طاهرا، كلفا بالقراءة، عظيم الدّؤوب، ثاقب الذهن، أصيل الحفظ، ظاهر النّبل، بعيد مدى

الإدراك، جيّد الفهم، فاشتهر فضله، و ذاع أرجه، و فشا خبره، و اضطلع بكثير من الأغراض، و شارك فى كثير من الفنون، و أصبح متلقّف كرة البحث، و صارخ الحلقة، و مظنّة الكمال. ثم ترقّى فى درجة المعرفة و الاضطلاع، و خاض لجّة الحفظ، و ركض قلم التقييد و التسويد و التعليق، و نصب نفسه للناس متكلّما فوق الكرسى المنصوب، و فوق المحفل المجموع، مستظهرا بالفنون التى بعد فيها شأوه من العربية و البيان، و ما يقذف به فى لج النقل من الأخبار و التفسير، متشوّفا مع ذلك إلى السلوك، مصاحبا للصوفية آخذا نفسه بارتياض و مجاهدة، ثم عانى الأدب فكان أملك به، و أعمل الرحلة فى طلب العلم و الازدياد، فترقّى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبى سالم إبراهيم بن أمير المسلمين أبى الحسن على بن عثمان بن يعقوب، ثم عن السلطان، و عرف فى بابه بالإجادة. و لما جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس، و استقرّ بالمغرب، أنس له، و انقطع إليه، و كرّ فى صحبة ركابه إلى استرجاع حقّه، فلطف منه محلّه، و خصّه بكتابة سرّه، و ثابت الحال، و دالت الدولة، و كانت له الطائلة، فأقرّه على رسمه معروف الانقطاع و الصاغية، كثير الدالّة، مضطلعا بالخطّة خطا و إنشاء و لسنا و نقدا، فحسن منابه، و اشتهر فضله، و ظهرت مشاركته، و حسنت وساطته، و وسع الناس تخلّقه، و أرضى للسلطان حمله، و امتدّ فى ميدان النظم و النثر باعه، فصدر عنه من المنظوم فى أمداحه قصائد بعيدة الشأو فى مدى الإجادة، و هو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد، أعانه اللّه تعالى و سدده!.

شيوخه- قرأ العربية على الأستاذ رحلة إلى المغرب فى فنّها أبى عبد اللّه بن الفخار، ثم على القاضى الشريف إمام الفنون اللسانية أبى القاسم محمد بن أحمد الحسنى، و الفقه و العربية على الأستاذ المفتى أبى سعيد بن لب، و اختصّ بالفقيه الخطيب الصّدر المحدّث أبى عبد اللّه بن مرزوق فأخذ عنه كثيرا من الرواية، و لقى القاضى الحافظ أبا عبد اللّه المقرى عند ما قدم من الأندلس، و ذاكره، و قرأ الأصول الفقهية على أبى منصور الزواوى، و يروى عن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۵

جماعة منهم القاضى أبو البركات بن الحاج، و المحدّث أبو الحسين بن التلمسانى، و الخطيب أبو عبد اللّه بن اللوشى، و المقرئ أبو عبد اللّه بن بيبش، و قرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبى عبد اللّه العلوى التلمسانى، و اختصّ به اختصاصا لم يخل فيه من استفادة مران و حنكة فى الصنعة.

[نماذج من قصائد ابن زمرک المطولة]

شعره- و شعره مترام إلى هدف الإجادة، خفافجى النزعة، كلف بالمعانى البديعة و الألفاظ الصقيلة، غزير المادة، فمن ذلك ما خاطبنى به، و هو من أوّل ما نظمه قصيدة مطلعها: [الطويل]

أما و انصداع النور من مطلع الفجر

و هى طويلة.

و من بدائعه التى عقم عن مثلها قياس قيس، و اشتهرت بالإحسان اشتهار الزهد بأويس، و لم يحل مجاريه و مباريه إلّا بويح و ويس، قوله فى إعذار الأمير ولد سلطانه، المنوّه بمكانه، و هى من الكلام الذى عنيت الإجادة بتذهيبه و تهذيبه، و ناسب الحسن بين مديحه و نسيبه: [الطويل]

معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا و أن يشغل اللوّام بالعذل باليا

دعانى أعط الحبّ فضل مقادتى و يقضى علىّ الوجد ما كان قاضيا

و دون الذى رام العواذل صبوة رمت بى فى شعب الغرام المراميا

و قلب إذا ما البرق أومض موهنا قدحت به زندا من الشوق واريا

خليلىّ إنى يوم طارقة النوى شقيت بمن لو شاء أنعم باليا

و بالخيف يوم النفر يا أمّ مالك تخلّفت قلبى فى حبالك عانيا

و ذى أشر عذب الثنايا مخصّر يسقّى به ماء النعيم الأقاحيا

أحوم عليه ما دجا الليل ساهرا و أصبح دون الورد ظمآن صاديا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۶

يضىء ظلام الليل ما بين أضلعى إذا البارق النجدىّ وهنا بدا ليا

أجيرتنا بالرّمل و الرّمل منزل مضى العيش فيه بالشبيبة حاليا

و لم أر ربعا منه أقضى لبانة و أشجى حمامات، و أحلى مجانيا

سقت طلّه الغرّ الغوادى و نظّمت من الطر فى جيد الغصون لآليا

أبثّكم أنى على النأى حافظ ذمام الهوى لو تحفظون ذماميا

أناشدكم و الحرّ أوفى بعهده و لن يعدم الإحسان و الخير جازيا

هل الودّ إلّا ما تحاماه كاشح و أخفق فى مسعاه من جاء واشيا

تأوّبنى و الليل يذكى عيونه و يسحب من ذيل الدّجنّة ضافيا

و قد مثلت زهر النجوم بأفقه حبابا على نهر المجرّة طافيا

خيال على بعد المزار ألمّ بى فأذكرنى من لم أكن عنه ساليا

عجبت له كيف اهتدى نحو مضجعى و لم يبق منى السقم و الشوق باقيا

رفعت له نار الصبابة فاهتدى و خاض لها عرض الدّجنّة ساريا

و ممّا أجدّ الوجد سرب على النقا سوانح يصقلن الطّلا و التراقيا

نزعن عن الألحاظ كلّ مسدّد فغادرن أفلاذ القلوب دواميا

و لمّا تراءى السّرب قلت لصاحبى و أيقنت أنّ الحبّ ما عشت دائيا

حذاركَ من سقم الجفون فإنه سيعدى بما يعيى الطبيب المداويا

و إنّ أمير المسلمين محمدا ليعدى نداه الساريات الهواميا

تضىء النجوم الزاهرات خلاله و ينفث فى روع الزمان المعاليا

معال إذا ما النجم صوّب طالبا مبالغها فى العزّ حلّق وانيا

يسابق علوىّ الرياح إلى النّدى و يفضح جدوى راحتيه الغواديا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۷

و يغضى عن العوراء إغضاء قادر و يرجح فى الحلم الجبال الرواسيا

همام يروع الأسد فى حومة الوغى كما راعت الأسد الظباء الجوازيا

مناقب تسمو للفخار كأنما تجارى إلى المجد النجوم الجواريا

إذا استبق الأملاك يوما لغاية أبيت و ذاك المجد إلّا التناهيا

بهرت فأخفيت الملوك و ذكرها و لا عجب فالشمس تخفى الدراريا

جلوت ظلام الظّلم من كلّ معتد و لا غرو أن تجلو البدور الدياجيا

هديت سبيل اللّه من ضلّ رشده فلا زلت مهديّا إليه و هاديا

أفدت وحىّ الملك ممّا أفدته و طوّقت أشراف الملوك الأياديا

و قد عرفت منها مرين سوابقا تقرّ لها بالفضل أخرى الليالیا

و كان أبو زيّان جيدا معظّلا فزيّنته حتى اغتدى بك حاليا

لك الخير لم تقصد بما قد أفدته جزاء و لكن همّه هى ما هيا

فما تكبر الأملاك غيرك آمرا و لا ترهب الأشراف غيرك ناهيا

و لا تشتكى الأيام من داء فتنة فقد عرفت منك الطبيب المداويا

و أندلسا أوليت ما أنت أهله و أوردتها وردا من الأمن صافيا

تلافيت هذا الثغر و هو على شفا و أصبحت من داء الحوادث شافيا

و من بعد ما ساءت ظنون بأهلها و حاموا على ورد الأمانى صواديا

فما يأملون العيش إلّا تعلّلا و لا يعرفون الأمن إلّا أمانيا

عطفت على الأيام عطفة راحم و ألبستها ثوب امتنانك ضافيا

فآنس من تلقائك الملك رشده و نال بك الإسلام ما كان راجيا

وقفت على الإسلام نفسا كريمة تصدّ عدوّا عن حماه و عاديا

فرأى كما انشقّ الصباح، و عزمة كما صقل القين الحسام اليمانيا

و كانت رماح الخطّ خمصا ذوابلا فأنهلت منها فى الدماء صواديا

و أوردت صفح السيف أبيض ناصعا فأصدرته فى الروع أحمر قانيا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۸

لك العزم تستجلى الخطوب بهديه و يلفى إذا تنبو الصوارم ماضيا

إذا أنت لم تفخر بما أنت أهله فما الصبح وضّاح المشارق عاليا

و يهنيك دون العيد عيد شرعته نبثّ به فى الخافقين التهانيا

أقمت به من فطرة الدين سنّة و جددت من رسم الهداية عافيا

صنيع تولّى اللّه تشييد فخره و كان لما أوليت فيه مجازيا

تودّ النجوم الزّهر لو مثلت به و قضّت من الزّلفى إليك الأمانيا

و ما زال وجه اليوم بالشمس مشرقا سرورا به و الليل بالشّهب حاليا

على مثله فليعقد الفخر تاجه و يسمو به فوق النجوم مراقيا

به تغمر الأنواء كلّ مفوّه و يحدو به من كان بالقفر ساريا

و يوسف فيه بالجمال مقنّع كأنّ له من كلّ قلب مناجيا

و أقبل ما شاب الحياء مهابة يقلّب وجه البدر أزهر باهيا

و أقدم لا هيّابة الحفل واجما و لا قاصرا فيه الخطا متوانيا

شمائل فيه من أبيه و جدّه ترى العزّ فيها مستكنّا و باديا

فيا علقا أشجى القلوب لو اننا فديناك بالأعلاق ما كنت غاليا

جريت فأجريت الدموع تعطّفا و أطلعت فيها للسرور فواشيا

و كم من وليّ دون بابك مخلص يفدّيه بالنّفس النفيسة واقيا

و صيد من الحيّين أبناء قيلة تكفّ الأعادى أو تبيد الأعاديا

بها ليل غرّ إن أعدّوا لغارة أعادوا صباح الحى أظلم داجيا

فو اللّه لو لا أن توخيت سنّة رضيت بها إن كان ربّك راضيا

لكان بها للأعوجيّات جولة تشيب من الغلب الشباب النواصيا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۹

و تترك أوصال الوشيج مقصّدا و بيض الظّبى حمر المتون دواميا

و لمّا قضى من سنّة اللّه ما قضى و قد حسدت منه النجوم المساعيا

أفضنا نهنّى منك أكرم منعم أبى لعميم الجود إلا توالیا

فيهنى صفاح الهند و البأس و الندى و سمر العوالى و العتاق المذاكيا

و يهنى البنود الخافقات فإنها سيعقدها فى ذمّة النصر غازيا

كأنى به قد توّج الملك يافعا و جمّع أشتات المكارم ناشيا

و قضّى حقوق الفخر فى ميعة الصّبا و أحسن من دين الكمال التقاضيا

و ما هو إلّا السعد إن رمت مطلعا و سدّدت سهما كان ربّك راميا

فلا زلت يا فخر الخلافة كافلا و لا زلت يا خير الأئمّة كافيا

و دمت قرير العين منه بغبطة و كان له ربّ البريّة واقيا

نظمت له حرّ الكلام تمائما جعلت مكان الدرّ فيها القوافيا

لآل بها تبأى الملوك نفاسة و جلّت لعمرى أن تكون لآليا

أرى المال يرميه الجديدان بالبلى و ما إن أرى إلّا المحامد باقيا

[قصيدة له يصف فيها «الزرافة» و قد وفد بها الأحادبيش على أبى سالم ملك المغرب]

و ورد على السلطان أبى سالم ملك المغرب رحمه اللّه تعالى عليه وفد الأحابيش بهدية من ملك السودان، و من جملتها الحيوان الغريب المسمّى «الزرافة»، فأمر من يعانى الشعر من الكتّاب بالنظم فى ذلك الغرض، فقال و هى من بدائعه: [الكامل]

لو لا تألّق بارق التّذكار ما صاب و اكف دمعى المدرار

لكنه مهما تعرّض خافقا قدحت يد الأشواق زند أوارى

و على المشوق إذا تذكّر معهدا أن يغرى الأجفان باستعبار

أ مذكّرى غرناطة حلّت بها أيدى السحاب أزرّة النّوّار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۰

كيف التخلّص للحديث و بيننا عرض الفلاة و طافح الزّخّار

هذا على أنّ التغرّب مركبى و تولّج الفيح الفساح شعارى

فلكم أقمت غداة زمّت عيسهم أبغى القرار و لات حين قرار

و طفقت أستقرى المنازل بعدهم يمحو البكاء مواقع الآثار

إنّا بنى الآمال تخدعنا المنى فنخادع الآمال بالتسيار

نتجشّم الأهوال فى طلب العلا و نروع سرب النوم بالأفكار

لا يحرز المجد الخطير سوى امرئ يمطى العزائم صهوة الأخطار

إمّا يفاخر بالعتاد ففخره بالمشرفيّة و القنا الخطّار

مستبصر مرمى العواقب واصل فى حمله الإيراد بالإصدار

فأشدّ ما قاد الجهول إلى الردى عمه البصائر لا عمى الأبصار

و لربّ مربدّ الجوائح مزبد سبح الهلال بلجّه الزخّار

فتقت كمائم جنحه عن أنجم سفرت زواهر هنّ عن أزهار

مثلت على شاطى المجرّة نرجسا تصطفّ منه على خليج جارى

و كأنما بدر التمام بجنحه وجه الإمام بجحفل جرّار

و كأنما خمس الثريّا راحة ذرعت مسير الليل بالأشبار

أسرجت من عزمى مصابيحا بها تهدى السراة لها من الأقطار

و ارتاع من بازى الصباح غرابه لمّا أطلّ فطار كلّ مطار

و منها:

و غريبة قطعت إليك على الونى بيدا تبيد بها هموم السارى

تنسيه طيّته التى قد أمّها و الرّكب فيها ميّت الأخبار

يقتادها من كلّ مشتمل الدّجى و كأنما عيناه جذوة نار

تشدو بحمد المستعين حداتها يتعلّلون به على الأكوار

إن مسّهم لفح الهجير أبلّهم منه نسيم ثنائك المعطار

خاضوا بها لجج الفلا فتخلّصت منها خلوص البدر بعد سرار

سلمت بسعدك من غوائل مثلها و كفى بسعدك حاميا لذمار

و أتتك يا ملك الزمان غريبة قيد النواظر نزهة الأبصار

موشيّة الأعطاف رائقة الحلى رقمت بدائعها يد الأقدار

راق العيون أديمها فكأنه روض تفتّح عن شقيق بهار

ما بين مبيضّ و أصفر فاقع سال اللّجين به خلال نضار

يحكى حدائق نرجس فى شاهق تنساب فيه أراقم الأنهار

تحدو قوائم كالجذوع و فوقها جبل أشمّ بنوره متوار

و سمت بجيد مثل جذع مائل سهل التعطّف ليّن خوّار

تستشرف الجدران منه ترائبا فكأنما هو قائم بمنار

ناءت بكلكلها و أتلع جيدها و مشى بها الإعجاب مشى وقار

خرجوا لها الجمّ الغفير، و كلّهم متعجّب من لطف صنع البارى

كلّ يقول لصحبه قوموا انظروا كيف الجبال تقاد بالأسيار

ألقت ببابك رحلها و لطالما ألقى الغريب به عصا التسيار

علمت ملوك الأرض أنك فخرها فتسابقت لرضاك فى مضمار

يتبوّؤون به و إن بعد المدى من جاهك الأعلى أعزّ جوار

فارفع لواء الفخر غير مدافع و اسحب ذيول العسكر الجرّار

و اهنأ بأعياد الفتوح مخوّلا ما شئت من نصر و من أنصار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۲

و إليكها من روض فكرى نفحة شفّ الثناء بها على الأزهار

فى فصل منطقها و رائق رسمها مستمتع الأسماع و الأبصار

و تميل من أصغى لها فكأننى عاطيته منها كؤوس عقار

و أنشد السلطان فى ليلة ميلاد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم عقب ما فرغ من البنية الشهيرة ببابه رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

تأمّل أطلال الهوى فتألّما و سيما الجوى و السقم منها تعلّما

أخو زفرة هاجت له نار ذكرة فأنجد فى شعب الغرام و أتهما

[قصيدة أخرى لابن زمرك أنشدها السلطان]

و سرد لسان الدين هذه القصيدة بطولها، و هى تقارب التسعين بيتا، ثم قال ما نصّه:

و أنشد السلطان فى وجهة للصيد أعملها، و أطلق أعنّة الجياد فى ميادين ذلك الطراد و أرسلها، قوله: [الكامل]

حيّاك يا دار الهوى من دار نوء السّماك بديمة مدرار

و أعاد وجه رباك طلقا مشرقا متضاحكا بمباسم النّوّار

أ مذكّرى دار الصبابة و الهوى حيث الشباب يرفّ غصن نضار

عاطيتنى عنها الحديث كأنما عاطيتنى عنها كؤوس عقار

إيه و إن أذكيت نار صبابتى و قدحت زند الشوق بالتذكار

يا زاجر الأظعان و هى مشوقة أشبهتها فى زفرة و أوار

حنّت إلى نجد و ليست دارها و صبت إلى هنديّه و الغار

شاقت به برق الحمى و اعتادها طيف الكرى بمزارها المزوار

هل تبلغ الحاجات إن حمّلتها إنّ الوفاء سجيّة الأحرار

عرّض بذكرى فى الخيام و قل إذا جئت العقيق مبلّغ الأوطار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۳

عار بقومك يا ابنة الحيين أن تلوى الديون و أنت ذات يسار

أمنعت ميسور الكلام أخا الهوى و بخلت حتى بالخيال السارى

و أبان جارى الدمع عذر هيامه لكن أضعت له حقوق الجار

هذا و قومك ما علمت خلالهم أوفى الكرام بذمّة و جوار

اللّه فى نفس شعاع كلّما هبّ النسيم تطير كلّ مطار

باللّه يا لمياء ما منع الصّبا أن لا تهبّ بعرفك المعطار

يا بنت من تشدو الحداة بذكره متعلّلين به على الأكوار

ما ضرّ نسمة حاجر لو أنها أهدت لنا خبرا من الأخبار

هل بانه من بعدنا متأوّد متجاوب مترنّم الأطيار

و هل الظباء الآنسات كعهدنا يصرعن أسد الغاب و هى ضوار

يفتكن من قاماتها و لحاظها بالمشرفيّة و القنا الخطّار

أشعرت قلبى حبّهنّ صبابة فرمينى من لوعتى بجمار

و على الكثيب سوانح حمر الحلى بيض الوجوه يصدن بالأفكار

أدنى الحجيج جمارهنّ ثلاثة بمنى لو أن منّى بدار قرار

لكنّ يوم النّفر جدن لنا بما عوّدننا من جفوة و نفار

يا ابن الألى قد أحرزوا خصل العلا و سموا بطيب أرومة و نجار

و تنوب عن صوب الغمام أكفّهم و تنوب أوجههم عن الأقمار

من آل سعد رافعى علم الهدى و المصطفين لنصرة المختار

أصبحت وارث مجدهم و فخارهم و مشرّف الأعصار و الأمصار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۴

وجه كما حسر الصباح نقابه و يد تمد أناملا ببحار

جدّدت دون الدين عزمة أروع جدّدت منها سنّة الأنصار

حطت البلاد و من حوته ثغورها و كفى بسعدك حاميا لذمار

للّه رحلتك التى نلنا بها أجر الجهاد و نزهة الأبصار

أوردتنا فيها لجودك موردا مستعذب الإيراد و الإصدار

و أفضت فينا من نداك مواهبا حسنت مواقعها على التكرار

أضحكت ثغر الثغر لمّا جئته و خصصته بخصائص الإيثار

حتى الفلاة تقيم يوم وردتها سنن القرى بثلاثة الأثوار

و سرت عقاب الجوّ تهديك الذى تصطاد من وحش و من أطيار

و الأرض تعلم أنك الغوث الذى تضفى عليها واقى الأستار

و لربّ ممتدّ الأباطح موحش عالى الرّبا متباعد الأقطار

همل المسارح لا يراع قنيصه إلّا لنبأة فارس مغوار

سرحت عنان الريح فيه و ربما ألقت بساحته عصا التسيار

باكرته و الأفق قد خلع الدّجى مسحا ليلبس حلّة الإسفار

و جرى به نهر النهار كمثل ما سكب النديم سلافة من قار

عرضت به المستنفرات كأنها خيل عراب جلن فى مضمار

أتبعتها غرر الجياد كواكبا تنقضّ رجما فى سماء غبار

و الهاديات يؤمّها عبل الشّوى متدفّق كتدفّق التيّار

أزجيتها شقراء رائقة الحلى فرميته منها بشعلة نار

أثبتّ فيه الرمح ثم تركته خضب الجوانح بالدّم الموّار

حامت عليه الذابلات كأنها طير أوت منه إلى أوكار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۵

طفقت أرانبه غداة أثرتها تبغى الفرار ولات حين فرار

هل ينفع الباع الطويل و قد غدت يوم الطّراد قصيرة الأعمار

من كلّ منحفز بلمحة بارق فاتت خطاه مدارك الأبصار

و جوارح سبقت إليه طلابها فكأنما طالبنه بالثار

سود و بيض فى الطّراد تتابعت كالليل طارده بياض نهار

ترمى بها و هى الحنايا ضمّرا مثل السهام نزعن عن أوتار

ظنّت بأن ينجو لها، كلّا! و لو أغريته بأرانب الأقمار

و بكلّ فتخاء الجناح إذا ارتمت فكأنها نجم السماء السارى

زجل الجناح مصفّق كمن الردى فى مخلب منه و فى منقار

أجلى الطريد من الوحوش و إن رمى طيرا أتاك به على مقدار

و أريتنا الكسب الذى أعداده ملأت جمالا أعين النّظّار

بيض و صفر خلت مطرح سرحها روضا تفتّح عن شقيق بهار

من كلّ موشىّ الأديم مفوّف رقمت بدائعه يد الأقدار

خلط البياض بصفرة فى لونه فترى اللّجين يشوب ذوب نضار

أو أشعل راق العيون كأنه غلس تخالط سدفة بنهار

سرحت بمخضرّ الجوانب يانع تنساب فيه أراقم الأنهار

قد أرضعته السارياتُ لبانها و حللن فيه أزرّة النوّار

أخذت سعودك حذرها فلحكمة أغرت جفون المزن باستعبار

لمّا أرتك الشمس صفرة حاسد لجبينك المتألّق الأنوار

نفثت عليك السّحب نفثة معوذ من عينها المتوقّع الإضرار

فارفع لواء الفخر غير مدافع و اسحب ذيول العسكر الجرّار

و اهنأ بمقدمك السعيد مخوّلا ما شئت من عزّ و من أنصار

قد جئت دارك محسنا و مؤمّلا متّعت بالحسنى و عقبى الدار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۶

و إليكها من روض فكرى نفحة شفّ الثناء بها على الأزهار

[من شعره فى غير المطولات]

و من شعره فى غير المطولات قوله: [الطويل]

لقد زادنى وجدا و أغرى بى الجوى ذبال بأذيال الظلام قد التفّا

تشير وراء الليل منه بنانة مخضّبة و الليل قد حجب الكفّا

تلوح سنانا حين لا تنفح الصّبا و تبدى سوارا حين تثنى له العطفا

قطعت به ليلا يطارحنى الجوى فآونة يبدو و آونة يخفى

إذا قلت لا يبدو أشال لسانه و إن قلت لا يخفى الضياء به كفّا

إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدّجى و أهدى نسيم الروض من طيبه عرفا

لكك اللّه يا مصباح أشبهت مهجتى و قد شفّها من لوعة الحبّ ما شفّا

و ممّا ثبت له صدر رسالة: [الطويل]

أزور بقلبى معهد الأنس و الهوى و أنهب من أيدى النسيم رسائلا

و مهما سألت البرق يهفو من الحمى يبادره دمعى مجيبا و سائلا

فيا ليت شعرى و الأمانى تعلّل أ يرعى لى الحىّ الكرام الوسائلا

و هل جيرتى الأولى كما قد عهدتهم يوالون بالإحسان من جاء سائلا

و من أبياته الغراميات: [الوافر]:

قيادى قد تملّكه الغرام و وجدى لا يطاق و لا يرام

و دمعى دونه صوب الغوادى و شجوى فوق ما يشكو الحمام

إذا ما الوجد لم يبرح فؤادى على الدنيا و ساكنها السلام

و فى غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

و مشتمل بالحسن أحوى مهفهف قضى رجع طرفى من محاسن الوطر

فأبصرت أشباه الرياض محاسنا و فى خدّه جرح بدا منه لى أثر

فقلت لجلّاسى خذوا الحذر إنما به وصب من أسهم الغنج و الحور

و يا وجنة قد جاورت سيف لحظه و من شأنها تدمى من اللمح بالبصر

تخيّل للعينين جرحا و إنما بدا كلف منه على صفحة القمر

و ممّا يرجع إلى باب الفخر، و لعمرى لقد صدق: [الطويل]

أ لائمة فى الجود و الجود شيمة جبلت على إيثارها يوم مولدى

ذرينى فلو أنّى أخلّد بالغنى لكنت ضنينا بالذى ملكت يدى

و قال: [المتقارب]

لقد علم اللّه أنى امرؤ أجرّر ذيل العفاف القشيب

فكم غمّض الدهر أجفانه و فازت قداحى بوصل الحبيب

و قيل رقيبك فى غفلة فقلت أخاف الإله الرقيب

[تقريظ لكتاب الشفاء عند ما شرحه ابن مرزوق]

و فى مدح كتاب «الشفاء» و قد طلبه الفقيه أبو عبد اللّه بن مرزوق عند ما شرع فى شرحه: [الطويل]

و مسرى ركاب للصّبا قد ونت به نجائب سحب للتراب نزوعها

تسلّ سيوف البرق أيدى حداتها فتنهلّ خوفا من سطاها دموعها

تعرّضن غربا يبتغين معرّسا فقلت لها: مراكش و ربوعها

لتسقى أجداثا بها و ضرائحا عياض إلى يوم المعاد ضجيعها

و أجدر من تبكى عليه يراعة بصفحة طرس، و المداد نجيعها

فكم من يد فى الدين قد سلفت له يرضّى رسول اللّه عنه صنيعها

و لا مثل تعريف الشّفاء حقوقه فقد بان فيه للعقول جميعها

بمرآة حسن قد جلتها يد النّهى فأوصافه يلتاح فيه بديعها

نجوم اهتداء، و المداد يجنّها و أسرار غيب، و اليراع تذيعها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۸

لقد حزت فضلا يا أبا الفضل شاملا فيجزيك عن نصح البرايا شفيعها

و للّه ممّن قد تصدّى لشرحه فلبّاه من غرّ المعانى مطيعها

فكم مجمل فصّلت منه و حكمة إذا كتم الإدماج منه تشيعها

محاسن و الإحسان يبدو خلالها كما افترّ عن زهر البطاح ربيعها

إذا ما أجلت العين فيها تخالها نجوما بآفاق الطروس طلوعها

معانيه كالماء الزلال لذى صدى و ألفاظه درّ يروّى نصيعها

رياض سقاها الفكر صوب ذكائه فأخصب للورّاد منها مريعها

تفجّر عن عين اليقين زلالها فلذّ لأرباب الخلوص شروعها

ألا يا ابن جار اللّه يا ابن وليّه لأنت ذا عدّ الكرام رفيعها

إذا ما أصول المرء طابت أرومة فلا عجب أن أشبهتها فروعها

بقيت لأعلام الزمان تنيلها هدى، و لأحداث الخطوب تروعها

مولده رابع عشر شوّال من عام ثلاثة و ثلاثين و سبعمائة؛ انتهى كلام لسان الدين فى الإحاطة فى ترجمة تلميذه أبى عبد اللّه بن زمرك.

قلت: و رأيت بخطّ أبى الحسن على بن لسان الدين- رحمهما اللّه تعالى!- على هامش هذه الترجمة من «الإحاطة» كلاما فى حقّ ابن زمرك رأيت أن أذكره بجملته الآن، و إن تقدّم بعضه فى هذا الكتاب:

فمن ذلك أنه كتب على حاشية أول الترجمة ما صورته: أتبعه اللّه تعالى خزيا! و عامله بما يستحقّه! فبهذا ترجمة والدى مولاه الذى رفع من قدره فيه، و لم يقتله أحد غيره، كفانا اللّه تعالى شرّ من أحسنّا إليه! انتهى.

[تعليقات من كلام على بن لسان الدين على ما كتبه أبوه فى ترجمة الوزير ابن زمرك]

و كتب على قوله «نشأ عفّا طاهرا- إلى آخره» ما نصّه: هذا الوغد ابن زمرك من شياطين الكتّاب، ابن حداد بالبيازين، قتل أباه بيده، أوجعه ضربا فمات من ذلك، و هو أخسّ عباد اللّه تربية، و أحقرهم صورة، و أخملهم شكلا، استعمله أبى فى الكتابة السلطانية، فجنينا أيام تحوّلنا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۹

عن الأندلس منه كل شرّ، و هو كان السبب فى قتل أبى مصنّف هذا الكتاب، الذى ربّاه و أدّبه و استخدمه، حسبما هو معروف، و كفانا اللّه تعالى شرّ من أحسنّا إليه و أساء إلينا! انتهى.

و كتب على قول والده «فترقّى إلى الكتابة إلى آخره» ما صورته: على يد سيدى أبى عبد اللّه بن مرزوق، و لا حول و لا قوة إلّا باللّه؛ انتهى.

و كتب على قوله «معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا- إلى آخره» ما نصّه: هذه القصيدة نظم له مولاى الوالد تغمّده اللّه تعالى برحمته منها النسيب كلّه، و هكذا جرت عادته معه فى الأمداح السلطانية حضرة الملك، اللّه المطلع على ذلك، قاله ابن المصنف على ابن الخطيب؛ انتهى.

و كتب على قوله «لو لا تألّق بارق التذكار- إلى آخره» ما صورته: هذا الرجس الشيطان كثيرا ما ينظم فى هذا الوزن، و يتبع حمارة هذه الراء، حتى لا يتركها جملة، إذ الرجل ابن حمّار مكارى حداد، فالنفس تميل بالطبع؛ انتهى.

و كتب على قوله «حيّاك يا دار الهوى من دار- إلى آخره» ما صورته: انظر إلى كثرة تحريكه لحمارة هذه الراء، علقت له بها مالخوليا؛ انتهى.

و كتب على قوله «و جوارح سبقت إليه طلابها- إلى آخره» ما صورته: سرق طردية إبراهيم بن خفاجة، فانظرها تجده سرق المعانى و الألفاظ، مع أنّ والدى نظم له أكثرها على حسب عادته معه، قاله على بن الخطيب؛ انتهى.

و كتب على قوله «يا مصباح» ما نصّه: كان يحبّ صبيّا اسمه مصباح، و هو الآن مجنون العقل بتونس يحترف بالحياكة؛ انتهى.

و كتب على قوله «أ لائمة فى الجود- إلى آخره» ما صورته: كذبت يا نجس، من أين الفخر لك و لبيتك، لست و اللّه من الجود فى شىء، نعم سخنته عين الجود؛ انتهى.

و كتب على قوله «لقد علم اللّه أنى امرؤ- إلى آخره» ما معناه: لا و اللّه، فأنت مشهور بكذا، يا قرد، فمن أين العفاف و أنت بالأندلس كذا و كذا؟ إلى أن قال: و أنحسهم بيتا، قاله

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۰

مولاك الذى ربيت فى نعمته و نعمة اللّه على ابن الخطيب بالقاهرة؛ انتهى.

و قد نسبه إلى ما لا يليق، فاللّه أعلم بحقيقة الأمر.

و كتب غيره على قول ابن زمرك «أزور بقلبى- الأبيات المتقدّمة» عند قوله «سائلا» فى موضعين: هما من السؤال، فحصل على الإيطاء المذموم؛ انتهى.

قلت: أمّا ما ذكره ابن لسان الدين من أنّ أباه كان ينظم لابن زمرك فذلك و اللّه أعلم كان فى ابتداء أمره، و إلّا فقد جاء ابن زمرك فى آخر أيام لسان الدين و بعد موته بالبدائع التى لا تنكر، كما سنذكره، و أما كونه سعى فى قتل لسان الدين مع إحسانه إليه فقد جوزى من جنس عمله، و قتل بمرأى من أهله و مسمع، و أزهقت معه روح ابنيه، حسبما نذكره، و هذا قصاص الدنيا، و عفو اللّه تعالى فى الآخرة منتظر للجميع.

[ترجمة ابن زمرك عن الأمير ابن الأحمر]

و لنذكر ترجمة ابن زمرك من كلام ابن السلطان ابن الأحمر فى مجلّد ضخم رأيته بالمغرب جمع فيه شعر ابن زمرك و موشّحاته، و عرّف به فى أوله، إذ قال ما نصّه: أمّا بعد ما يجب من حمد اللّه تعالى فى كل حال، و شكره على ما أولى و يسر من صلاح الأحوال، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد صفوة الأنبياء و سيد الأرسال، و الرضا عمّن له من صحب و أنصار و آل، فإنّ من المعلوم أنّ الأدب له بالنفس علاقة تؤدّيه إلى الاستحسان، و تؤثر من اشتهر به من الملاحظة بلحظ الحظّ مع تعاقب الأحيان، و لا خفاء أنّ أيام مولانا الجدّ المقدّس الغنى باللّه- تولّاه اللّه تعالى برضوانه!- كانت غررا فى وجوه الأيام، و مواسم تجمع الطمّ و الرّم من الرؤساء الأعلام، الآخذين بأعنّة الكلام، السابقين فى حلبة النثار و النظام، و أنّ الفقيه الرئيس المدرك، الناظم الناثر أبا عبد اللّه محمد بن يوسف بن زمرك- عفا اللّه تعالى عنه!- و حسبك بمن ارتضاه مولانا الجدّ رحمه اللّه تعالى لكتابته، و صرّفه فى الوجوه المتعدّدة من رسالته و حجابته، و كان بذلك خليقا، لما جمع من أدوات الكمال علما و تحقيقا، و إدراكا و نبلا وفقها و أصولا و فروعا و أدبا و تحصيلا، و

بيانا و تفسيرا و نظما و ترسيلا- لما كان قد أخفت الأيام سنى صبحه، و خابت وسائل نصحه، و عادت بعدوانها بعد فوز قدحه، و عثر بين أقدام أقوام لا يعرفون أىّ ذخر فقدوا، و لا أىّ مطلق عن تصريفاته الجميلة قيّدوا، مستبصرين بالجهل فى دياجى غيّهم، معجبين بما ارتكبوه من جياد بغيهم، جميعهم يلحظه بمقل دامية، و ألفاظ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۱

حامية، يصاحبونه بأوجه خلت عن الوجاهة سيماها الحسد، و ضميرها السخط بما قدره الواحد الصمد: [الوافر]

فخرّ على الألاءة لم يوسّد كأنّ جبينه سيف صقيل

فيا للّه من أشلاء هنالك ضائعة، و أعلاق غير مصونة، و وسائل مخفورة، و أذمّة قطعت أرحامها، و لم يرع ذمامها، و عاثت الأيدى الفاتكة حينئذ على بنيه، و ارتكبوها شنعاء فى أهله و ذويه: [البسيط]

هل كان إلّا حيا تحيا العباد به؟ هل كان إلّا قذى فى عين ذى عور

إن قال قولا ترى الأبصار خاشعة لما يخبّر من وحى و من أثر

يا لهف قلبى لو قد كنت حاضره غداة جرّعه أدهى من الصّبر

لما تركت له شلوا بمضيعة و لا تولّى صريع الناب و الظّفر

«و كان ما كان ممّا لست أذكره فظنّ خيرا و لا تسأل عن الخبر»

و إن سأل سائل عن الخبر الذى ألمعنا بذكره، و ضمّنّا هذا البيت رزأ من فظيع أمره، فذلك عند ما نسب صاحب الأمر إليه ما راب، و تلّه و ابنيه للجبين معفّرين بالتراب، و صدمه فى جنح الليل و المصحف بين يديه يتوسّل بآياته، و يتشفّع بعظيم بركاته، فأخذته السيوف، و تعاورته الحتوف، و أذهبه سليبا قتيلا، مصيّرا مصراع منزله كثيبا مهيلا، و كنّا على بعد من هذه الآزفة التى أورثت القلوب شجنا طويلا، و ذكرتنا بعناية مولانا الجد الغنى بالله لجانبه أعظم ذكرا، فأغرينا برثائه خلدا و فكرا، و ارتجلنا عند ذكره الآن هذه الأبيات إشارة مقنعة، و كناية فى السلوان مطمعة، و أرضينا بالشفقة أودّاءه، و أرغمنا بتأبينه أعداءه، و لما تبلج الصبح لذى عينين، و تلقّينا راية الفرج بالراحتين، عطفتنا على أبنائه عواطف الشفقة، و أطلقنا لهم ما عاثت الأيدى عليه صلة لرحم طالما أضاعها من جهل الأذمّة، و أخفر عهود تخدّمه لمن سلف من الأئمة، و صرفنا للبحث و التفتيش وجوه آمالنا، و جعلنا ضمّ ما نثرته الحوادث من منظوماته من أكيد أعمالنا، و كان تعلّق بمحفوظنا جملة وافرة من كلامه، مشتملة على ما راق و حسن من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۲

نثاره و نظامه، فأضفنا ذلك إلى ما وقع عليه اجتهادنا من رقاعه الحائلة المنتهبة بأيدى النوائب، الداثرة المستلبة بتعدى النواصب، فخلص من الجملة قلائد عقيان، و عقود درّ و مرجان، ترتاح النفوس النفيسة لإنشادها، و تحضر الأبصار و الأسماع عند إيرادها، إلى ما يتخلّلها من تخليد مآثر سلفنا، و الإشارة بعظيم ملكنا، فشرعنا فى تقييد أوابدها الشاردة، و إحياء رسومها البائدة، كلفا بالأدب لوضوح فضله، و تأدية لما يجب من رعاية أهله. و لنبدأ بالتعريف بحال هذا الرئيس المنبه عليه، و نظهر ما كنّا نضمره من الميل إليه، فى كل ما له أو عليه، فنقول:

هو الفقيه الكاتب، الفذّ الأوحد، أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف الصريحى، و يعرف بابن زمرك.

أصله من شرق الأندلس، و سكن سلفه بالبيازين من غرناطة، و بها ولد، فنشأ ضئيلا كالشهاب يتوقّد، مختصر الجرم و الأعين بإطالة فواضله تشهد، و مكتب الفئة القرآنية يؤثره بالجناب الممهّد، فاشتغل أول نشأته بطلب العلم و الدؤوب على القراءة، و أخذ نفسه بملازمة حلقات التدريس، و لم يبلغ حدّ وجوب المفترضات إلّا و هو متحمّل الرواية، و ملتمس لفرائد الدراية، و مصابح كلّ يوم أعلام العلوم، و مستمدّ بمصابيح الحدود العلمية و الرسوم، فافتتح أبواب الكتب النحوية بالإمام أبى عبد اللّه بن الفخار الآية الكبرى فى فنّ العربية، و تردّد الأعوام العديدة إلى قاضى الجماعة أبى القاسم الشريف فأحسن الإصغاء، و بذ النحاة البلغاء، بما أوجب رثاءه

عند الوقوف على ضريحه بالقصيدة الفريدة التى أوّلها: [الرجز]

أغرى سراة الحىّ بالإطراق

و اهتدى فى طريق الخطبة و مناهج الصوفية بالخطيب المعظم أبى عبد اللّه بن مرزوق الوافد على مولانا الجدّ أبى الحجاج، رضى اللّه عنه، فى عام ثلاثة و خمسين و سبعمائة، و إليه جنح، و إياه قصد عند تغرّبه إلى المغرب فى دولة السلطان أبى سالم، فتوجّه بالعمامة التى ارتجل بين يديه فيها: [المجتث]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۳

توّجتنى بعمامه توّجت تاج الكرامه

فروض حمدك يزهى منى بسجع الحمامه

و أخذ علم الأصلين عن الحافظ الناقد أبى على منصور الزواوى، و برع فى الأدب، أثناء الانقطاع و أوّل الطلب لأبى عبد اللّه بن الخطيب، و لكن لم يحمد بينهما المآل، و اقتدى فى العلوم العقلية بالشريف أبى عبد اللّه التلمسانى قدوة الزمان، و حصلت له الإجازة و التحديث بقاضى الجماعة و شيخ الجملة أبى البركات بن الحاج، و بالخطيب البليغ أبى عبد اللّه اللوشى، و بالخطيب الورع أبى عبد اللّه بن بيبش العبدرى، رضى اللّه تعالى عنه و عن جميعهم، و بواجب محافظتنا على عهودهم، إذ نحن وردنا بالإجازة التامة عذب وردهم، وصل سببنا بهم الكثير من شيوخنا مثل الإمام المعظم أبى محمد عبد اللّه بن جزى، و معلمنا الثقة المجتهد أبى عبد اللّه الشريشى، و القاضى الإمام أبى عبد اللّه محمد بن على بن علاق، و غيرهم، رحمة اللّه تعالى عليهم! لذلك صار صدرا فى نوادى طلبة الأندلس و أفراد نجبائها، فما شاءه المحاضر يجده فى خضله، و يتلّقاه من باهر فضله، فكاهة و مجالسة أنيقة ممتعة و محادثة أريضة مزهرة، و جوابا شافيا للمعضل، و ذهنا سابقا لإيضاح المشكل، مع انقياد الطبع، و إرسال الدمعة فى سبيل الخشوع و الرّقة، و رشح الجبين عند تلقّى الموعظة، و صون الوجه بجلباب الحياء، و مقابلة الناظر إليه بالاحتشام، و المبادرة للاستدعاء، على طهارة و بذل وسع و كرم نفس، لم يعهد أجمل مشاركة منه لإخوانه، و لا أمتع منه بجاهه، إلى مبالغة فى الهشّة و المبرّة و الإيثار بما منح، و جنوح إلى حبّ الصالحين، و ذلك بالانضواء إلى شيخ الفرق الصوفية الولى أبى جعفر بن الزيات، و أخيه الفاضل الناسك شيخنا أبى مهدى، قدّس اللّه تعالى مغناه! و سواهما من أهل الأندلس و العدوة، و حمله أشدّ الحمل على كل ملبّس كأبى زكريا البرغواطى و سواه.

و من تنديراته- زعموا- على أبى الحسن المحروق لميله عنه: [الخفيف]

ولد الفقر و الرباط و لكن نفسه للسلوك ذات افتقار

و خطب الأدب يافعا و كهلا، و حاز علمه إدراكا و نبلا، و لما كانت الحادثة على مولانا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۴

الجدّ- رحمه اللّه تعالى!- و اجتاز إلى المغرب كما تقرّر فى غير هذا، كلف به، و أنس إليه؛ لحلاوة منطق و رفع استيحاش و مراوضة خلق، ثم كرّ فى صحبة ركابه فعلت منزلته، و لطف محلّه.

وقفنا على رقعة من رقاعه و هو يبدئ فيها و يعيد، و يقول: خدمته سبعا و ثلاثين سنة:

ثلاثا بالمغرب، و باقيها بالأندلس، أنشدته فيها ستّا و ستين قصيدة فى ستة و ستين عيدا، و كلّ ما فى منازله السعيدة من القصر و الرياض و الدشار و السبيكة من نظم رائق، و مدح فائق، فى القباب و الطاقات و الطرز و غير ذلك فهو لى، و كنت أواكله و أواكل ابنه مولاى أبا الحجاج، و هما كبيرا ملوك أهل الأرض، و هنأته بكذا و كذا قصيدة، و فوّض لى فى عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين، و صلح النصارى عقدته تسع مرات، أ لخسّة فوّض إلىّ ذلك؟

قلنا: صدق فى جميع ما ذكره، و العقود بذلك شاهدة له. و خصّه عام ثلاثة و سبعين بكتابة سرّه، و استعمله بعد أعوام فى السفارة بينه و بين ملوك عصره، فحمد منابه، و نمت أحواله و رغد جنابه، و كان هنالك بعض تقوّلات تشين وجه اجتهاده، و تومىء بما احتقبه

من سوء مقاصده و ما صرفه من قبيح أغراضه، و هاجت الفتنة، فكانت سفارته أعظم أسبابها.

و عند الأشدّ من عمره عرضت لأفكاره تقلّبات، و أقعدته عن قداح السياسة آفات مختلفات، و أشعرته حدّة ذهنه أن يتخبّط فى أشراك رقعات، فقعد بجامع مالقة ثم بمسجد الحمراء ملقيا على الكرسى فنونا جمّة، و علوما لم يزل يتلقّاها عن أولياء التعظيم و التجلة، فانحاز إلى مادة أمم بمالقة طما منهم البحر، و تراءى لأبصارهم و بصائرهم الفخر، و كان التفسير أغلب عليه لفرط ذكائه، و ما كان قيده و حصله أيام قراءته و إقرائه، فما شئت من بيان، و إعجاز قرآن، و آيات توحيد و إخلاص، و مناهج صوفية تؤذن بالخلاص، يوم الأخذ بالنواص، و مرارا عدة سمع ما يلقيه وليّ الأمر، و يا شدة البلوى التى أذاقه مرّها، و أمطاه إلى طيّة الهلاك ظهرها، و يا قرب ما كان الفوت، و الحسام الصّلت، من متباعد هذه القرب التى ألغيت.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۵

قلنا: لقد جمع جواد القلم فأطلقنا و نحن نشير إلى هذا الرئيس و تبدل طباعه، بعد انقضاء أعوام شاهدة باضطلاعه، و إحراز شيم أدّت إلى علوّ مقداره، و استقامة مداره، فآل عمر مولانا جدّنا إلى النفاد، و رمت رئيس كتّابه هذا أسهم الحساد، فظهر الخفىّ، و سقط به الليل على سرحان، و قد طالما جرّب الوفىّ و الصفىّ. و كان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حجّاب الدولة، و الاسترسال فى الردّ عليهم بالطبع و الجبلّة، مع الاستغراق فى غمار الفتن أندلسا و غربا، و مراعاة حظوظ نفسه استيلاء و غصبا، أما الجراءة فانتضى سيوفها، و أما إكفاء السماء على الأرض فقواصم نوّع صنوفها، و أما المجاهرة فوقف بميدان الاعتراض صفوفها، و أما المجاملة فنكّر معروفها، أداه هذا النبأ العظيم إلى سكنى المعتقل بقصبة ألمرية، و على الأثر كان الفرج قريبا، و سطور المؤاخذة قد أوسعها العفو تضريبا، و نالته هذه المحنة عند وفاة مولانا الجدّ الغنى بالله، و كانت وفاته غرة شهر صفر عام ثلاثة و تسعين و سبعمائة؛ لأسباب يطول شرحها أظهرها شراسة فى لسانه، و اغترار بمكانه، و تضريب بين خدام السلطان و أعوانه، فكبا لليدين و الفم، إلى أن منّ اللّه تعالى بسراحه، و أعاده إلى الحضرة فى أول شهر رمضان المعظم من عام أربعة و تسعين و سبعمائة، فكان ما كان من وفاة مولانا الوالد رحمه اللّه تعالى! و قيام أخينا محمد مقامه بالأمر، فاستمرّ الحال أياما قلائل، و قدم للكتابة الفقيه ابن عاصم لمدة من عام، ثم أعاد المذكور إلى خطته و قد دمثت بعض أخلاقه، و خمدت شراسته وحلا بعض مذاقه، فما كان إلّا كلا وليت و إذا به قد ساء مشهدا و غيبا، و أوسع الضمائر شكّا و ريبا، و غلبت الإحن عليه، و غلت مراجلها لديه، فصار يتقلّب على جمر الغضى، و يتبرّم بالقضا، و يظهر النصح و فى طيّه التشفّى، و يسم نفسه بالصلاح، و يعلن بالخشوع، و يشير بأنه الناصح الأمين، و يتلو قوله تعالى وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ [سورة الأعراف، الآية: ۷۹] و رتب على المشتغلين كبيرهم و صغيرهم ذنوبا لم يقترفوها، و نسب إليهم نسبا من التضييع لم يعرفوها، و أنهم احتجنوا الأموال، و أساؤوا الأعمال و الأقوال، فلم يظفر من ذلك بكبير طائل، و لا حصل على تفاوت أعداده على حاصل، هذا على قلّة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية، و عدم اضطلاعه بالأمور الجبائية، فمن نفس يروّع سربها، و يكدر بالامتحان و الامتهان شربها، و من ضارعة خاشعة للّه تعالى سلبت، و طولبت بغير ما اكتسبت، و تعدّت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۶

الأيدى إلى أقوام جلّة سعدوا بشقائه، و امتحنوا و هم المبرّؤون من تزويره و اعتدائه، و سيسألون يوم لا يغنى مال و لا بنون. و صار يصرف أغراضه، و يظهر أحقاده، بين إفصاح بما كان الإعجام خيرا من إلقائه، و إن عمر المسكين المستضعف لا حاجة فى طول بقائه، إلى مجاهرة عهد منه أيام شبيبته نقيضها، و انعكس فى شاخته تصريحها المنغص و تعريضها، لا يريح نفسه من جهد، و لا يقف من اللجلجة عند حدّ، و قد كان ثقل سمعه فساءت إجابته، و طغت أخلاقه فسئمت و ساطته، و ربما استحلف فلم يكن بين اللازمة و اللازمة إلّا الحنث عن قصد و غير قصد، و دعا على نفسه و أبنائه بإنجاز وعد، و أن يقيض اللّه له و لهم قاتل عمد، فسبحان القاهر فوق عباده، الرحيم بهذا الشخص و بالأموات من شيعته و أولاده، فاستمرّ على ذلك إلى إحدى الليالى، فهلك فى جنح الليل فى جوف داره على يد مخدومه، تلقّاه- زعموا- عند الدخول عليه، و هو بالمصحف رافع يديه، فجدلته السيوف، و تناولته الحتوف، فقضى عليه،

و على من وجد من خدّامه و ابنيه، كل ذلك بمرأى عين من أهله و بناته، و لم يتّقوا اللّه فيه حقّ تقاته، فكانت أنكى الفجائع، و أفظع الوقائع، و ساءت القالة، و عظم المصاب، و كل شيء إلى أجل نافذ و كتاب. انتهى كلام ابن الأحمر فى مقدمة كتابه.

و قد اطلعت منه على تصاريف أحوال ابن زمرك، و قتله على الوجه الذى يعلم منه أنّ ثأر لسان الدين بن الخطيب لديه لا يترك، بل قتلته أفظع من قتلة لسان الدين؛ لأنّ هذا قتل بين عياله و أهله، و قتل معه أبناه و من وجد من خدمه، و لسان الدين رحمه اللّه تعالى خنق بمفرده، و عند اللّه تجتمع الخصوم، و هو العفوّ الغفور.

و قد فهم من مضمون ما سبق أنّ قتل ابن زمرك بعد عام خمسة و تسعين و سبعمائة، و لم أقف من أمر على غير ما تقدّم.

و لا بأس أن نلم بشيء من نظمه البارع ممّا كنت انتقيته بالمغرب من تأليف ابن الأحمر المذكور، و أوردت كثيرا منه فى «أزهار الرياض».

[قصيدة لابن زمرك فى التهنئة بالعيد]

فمن ذلك قوله فى ذكر غرناطة العلية، و تهنئة سلطانه الغنى بالله ببعض المواسم العيدية، و وصف كرائم جياده، و آثار ملكه و جهاده: [البسيط]

يا من يحنّ إلى نجد و ناديها غرناطة قد ثوت نجد بواديها

قف بالسبيكة و انظر ما بساحتها عقيلة و الكثيب الفرد جاليها

تقلّدت بوشاح النهر و ابتسمت أزهارها و هى حلى فى تراقيها

و أعين النرجس المطلول يانعة ترقرق الطلّ دمعا فى مآقيها

و افترّ ثغر أقاح من أزاهرها مقبّلا خدّ ورد من نواحيها

كأنما الزهر فى حافاتها سحرا دراهم و النسيم اللّدن يجبيها

و انظر إلى الدّوح و الأنهار تكنفها مثل الندامى سواقيها سواقيها

كم حولها من بدور تجتنى زهرا فتحسب الزهر قد قبّلن أيديها

حصباؤها لؤلؤ قد شفّ جوهرها و النهر قد سال ذوبا من لآليها

نهر المنجم و الزهر المطيف به زهر النجوم إذا ما شئت تشبيها

يزيد حسنا على نهر المجرّة قد أغناه درّ حباب عن دراريها

يدعى المنجّم رائيه و ناظره مسمّيات أبانتها أساميها

إنّ الحجاز مغانيه بأندلس ألفاظها طابقت منها معانيها

فتلك نجد سقاها كلّ منسجم من الغمام يحيّيها فيحييها

و بارق و عذيب كلّ مبتسم من الثغور يحلّيها مجلّيها

و إن أردت ترى وادى العقيق فرد دموع عشّاقها حمرا جواريها

و للسبيكة تاج فوق مفرقها تودّ درّ الدرارى لو تحلّيها

فإنّ حمراءها و اللّه يكلؤها ياقوتة فوق ذاك التاج يعليها

إنّ البدور لتيجان مكلّلة جواهر الشّهب فى أبهى مجاليها

لكنها حسدت تاج السبيكة إذ رأت أزاهره زهرا يجلّيها

بروجها لبروج الأفق مخجلة فشهبها فی جمال لا تضاهیها

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۹، ص: ۲۸

تلک القصور التی راقت مظاهرها تهوی النجوم قصورا عن معالیها

للّه للّه عینا من رأی سحرا تلک المنارة قد رقّت حواشیها

و الصبح فی الشرق قد لاحت بشائره و الشهب تستنّ سبقا فی مجاریها

تهوی إلی الغرب لمّا غالها سحر و غمّض الفجر من أجفان واشیها

و ساجع العود فی کفّ الندیم إذا ما استوقف الطیر یدنیها و یقریها

یبدی أفانین سحر فی ترنّمه یصبی العقول بها حسنا و یسبیها

یجسّه ناعم الأطراف تحسبها لآلئا و هی نور فی تلالیها

مقاتل بلحاظ قوس حاجبها ترمی القلوب بها عمدا فتصمیها

فباکر الروض و الأغصان مائلة یثنی النفوس لها شوقا تثنّیها

لم یرقص الدوح بالأکمام من طرب حتی شدا من قیان الطیر شادیها

و أسمعتها فنون السحر مبدعة ورق الحمام و غنّاها مغنّیها

غرناطة آنس الرحمن ساکنها باحت بسرّ معانیها أغانیها

أعدی نسیمهم لطفا نفوسهم فرقّة الطبع طبع منه یعدیها

فخلّد اللّه أیام السرور بها صفرا عشیّاتها بیضا لیالیها

و روّض المحل منها کلّ منبجس إذا اشتکت بغلیل الجدب یرویها

یحکی الخلیفة کفّا کلّما و کفت بالجود فوق موات الأرض یحییها

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب؛ ج۹؛ ص۲۸

تغنی العفاة و قد أمّت مکارمه عن السؤال و بالإحسان یغنیها

لها بنان فلا غیث یساجلها جودا و لا سحبه یوما تدانیها

فإن تصب سحبه بالماء حین همت بعسجد و لجین صاب هامیها

یا أیها الغیث أنت الغوث فی زمن ملوکه تلفت لو لا تلافیها

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۹، ص: ۲۹

إنّ الرعایا جزاک اللّه صالحة ملکت شرقا و غربا من یراعیها

إنّ الخلائق فی الأقطار أجمعها سوائم أنت فی التحقیق راعیها

فکلّ مصلحة للخلق تحکمها و کلّ صالحة فی الدین تنویها

إذا تیمّمت أرضا و هی مجدبة فرحمة اللّه بالسقیا تحیّیها

یا رحمة بثّت الرّحمی بأندلس لولاک زلزلت الدنیا بمن فیها

فی فضل جودک قد عاشت مشیختها فی ظلّ أمنک قد نامت ذراریها

فی طول عمرک یرجو اللّه آملها بنصر ملکک یدعو اللّه داعیها

عوائد اللّه قد عوّدت أفضلها لتبلغ الخلق ما شاءت أمانیها

سلّ السعود و خلّ البیض مغمدة و اضرب بها فریة التثلیث تفریها

للّه أيامك الغرّ التى اطردت فيها السعود بما ترضى و يرضيها

للّه دولتك الغرّاء إنّ لها لكافلا من إله العرش يكفيها

هيهات أن تبلغ الأعداء مأربهٔ فى جريها و جنود اللّه تحميها

هذى سيوفك فى الأجفان نائمهٔ و المشركون سيوف اللّه تفنيها

سريرهٔ لك فى الإخلاص قد عرفت حسنى عواقبها حتى أعاديها

لم يحجب الصبح شهب الأفق عن بصر إلّا و هديك للأبصار يبديها

يا ابن الملوك و أبناء الملوك إذا تدعو الملوك إلى طوع تلبّيها

أبناء نصر ملوك عزّ نصرهم و أوسعوا الخلق تنويها و ترفيها

هم المصابيح نور اللّه موقدها تضىء للدين و الدنيا مشاكيها

هم النجوم و أفق الهدى مطلعها فوزا لمهديّها عزّا لهاديها

هم البدور، كمال ما يفارقها هم الشموس، ظلام لا يواريها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۰

قضت قواضبها أن لا انقضاء لها و أمضت الحكم فى الأعدا مواضيها

و خلّدت فى صفاح الهند سيرتها و أسندت عن عواليها معاليها

و أورثتك جهادا أنت ناصره و الأجر منك يرضّيها و يحظيها

كم موقف ترهب الأعداء موقعه و الخيل تردى و وقع السيف يرديها

ثارت عجاجته و اليوم محتجب و النقع يؤثر غيما من دياجيها

و للأسنّهٔ شهب كلّما غربت فى الدار عين تجلّت من عواليها

و للسيوف بروق كلّما لمعت تزجى الدماء و ريح النصر يزجيها

أطلعت وجها تريك الشمس غرّته تبارك اللّه ما شمس تساميها

من أين للشمس نطق كلّه حكم يفيدها كلّ حين منك مبديها

لك الجياد إذا تجرى سوابقها فللرياح جياد ما تجاريها

إذا انبرت يوم سبق فى أعنّتها ترى البروق طلاحا لا تباريها

من أشهب قد بدا صبحا تراع له شهب السماء فإنّ الصبح يخفيها

إلّا التى فى لجام منه قيّدها فإنه سامها عزّا و تنويها

أو أشقر مرّ عن شقر البروق و قد أبقى لها شفقا فى الجوّ تنبيها

أو أحمر جمره فى الحرب متّقد يعلو لها شرر من بأس مذكيها

لون العقيق و قد سال العقيق دما بعطفه من كماهٔ كاد يدميها

أو أدهم ملء صدر الليل تنعله أهلّهٔ فوق وجه الأرض يبديها

إن حارت الشّهب ليلا فى مقلّده فصبح غرّته بالنور يهديها

أو أصفر بالعشيّات ارتدى مرحا و عرفه بتمادى الليل ينبيها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۱

مموّه بنضار تاه من عجب فليس يعدم تنويها و لا تيها

و ربّ نهر حسام رقّ رائقه متى ترده نفوس الكفر يرديها

تجرى الرءوس حبابا فوق صفحته و ما جرى غير أنّ البأس يجريها

و ذابل من دم الكفّار مشربه يجنى الفتوح و كفّ النصر تجنيها

و كم هلال لقوس كلّما نبضت ترى النجوم رجوما فى مراميها

أئمة الكفر ما يمّمت ساحتها إلّا و قد زلزلت قسرا صياصيها

يا دولة النصر هل من مبلغ دولا مضين أنك تحييها و تنسيها

أو مبلغ سالف الأنصار مألكة و اللّه بالخلد فى الفردوس يجزيها

إنّ الخلافة أعلى اللّه مظهرها أبقت لنا شرفا و اللّه يبقيها

يا ابن الذين لهم فى كلّ مكرمة مفاخر و لسان الدهر يمليها

أنصار خير الورى، مختار هجرته جيران روضته، أكرم بأهليها

سمّتهم الملّة السمحاء تكرمة أنصارها، و بهم عزّت أواليها

ففى حنين و فى بدر و فى أحد تلفى مفاخرهم مشهورة تيها

و لتسأل السّير المرفوع مسندها فعن مواقفهم تروى مغازيها

مآثر خلّد الرحمن أثرتها ينصّها من كتاب اللّه قاريها

ما ذا يجيد بليغ أو ينمّقه من الكلام و وحى اللّه تاليها

له الجهاد به تسرى الرياح إلى ممالك الأرض من شتّى أقاصيها

تحدى الركاب إلى البيت العتيق به فمكّة عمرت منه نواديها

بشائر تسمع الدنيا و ساكنها إذا دعا باسمك الأعلى مناديها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۲

كفى خلافتك الغرّاء منقبة أنّ الإله يوالى من يواليها

و قد أفاد بنيه الدهر تجربة أنّ السعود تعادى. من يعاديها

إذا رميت سهام العزم صائبة فما رميت، بل التوفيق راميها

شكرا لمن عظمت منّا مواهبه و إن تعدّ فليس العدّ يحصيها

عمّا قريب ترى الأعياد مقبلة من الفتوح و وفد النصر حاديها

و تبلغ الغاية القصوى بشائرها فقد أظلّت بما ترضى مباديها

فاهنأ بما شئت من صنع تسرّ به و انو الأمانىّ فالأقدار تدنيها

مولاى، خذها كما شاءت بلاغتها و لو تباع لكان الحسن يشريها

أرسلتها حيثما الأرواح مرسلة نوادرا تنشر البشرى أماليها

جاءت تهنّيك عيد الفطر معجبة بحسنها و لسان الصدق يطريها

البشر فى وجهها، و اليمن فى يدها، و السحر فى لفظها، و الدّرّ فى فيها

لو رصّع البدر منها تاج مفرقه لم يرض درّ الدرارى أن تحلّيها

فإن تكن بنت فكرى و هو أوجدها نعماك فى حجره كانت تربيها

فى روض جودك قد طوّقتنى مننا طوق الحمام فما سجعى موفّيها

و لو أعرت لسان الدهر يشكرها لكان يقصر عن شكر يوفّيها

بقيت للدين و الدنيا إمام هدى مبلّغ النفس ما ترجو أمانيها

و السعد يجرى لغايات تؤمّلها ما دامت الشّهب تجرى فى مجاريها

[لابن زمرک فى الشكر]

و قال رحمه اللّه تعالى شاكرا لنعم وصلته من المذكور فى عاشوراء: [الكامل]

مولاى يا ابن السابقين إلى العلا و الرافعين لواءها المنشورا

إن لوحظوا فى المعلوات فإنهم طلعوا بآفاق العلاء بدورا

أو فوخروا فى المكرمات فإنهم نظموا بأسلاك الفخار شذورا

أبناء أنصار النبىّ و صحبه فى الذكر أصبح فخرهم مذكورا

و المؤثرين، و ربّنا أثنى بها فى الحشر خلّد وصفهم مسطورا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۳

فاضت علينا من نداك غمائم و تفجّرت من راحتيك بحورا

من كفّ شفّاف الضياء تخاله لصفاء جوهره تجسّد نورا

نعم منوّعة تعدّد وفرها أعجزت عنها شكرى الموفورا

فى موسم للدين قد جدّدته و أقمت فينا عيده المشهورا

أضعاف ما أهديتنا من منّة تهدى إليك ثوابها عاشورا

و على الطريق بشائر محمودة ألقاك جذلانا بها مسرورا

[مقطوعات لابن زمرک فى وصف زهر القرنفل]

و قال يصف زهر القرنفل الصعب الاجتناء بجبل الفتح، و قد وقع له السلطان الغنى بالله المذكور بذلك، فارتجل قطعا منها: [الطويل]

أتونى بنوّار يروق نضارة كخدّ الذى أهوى و طيب تنفّسه

و جاؤوا به من شاهق متمنّع تمنّع ذاك الطبى فى ظلّ مكنسه

رعى اللّه منى عاشقا متقنّعا بزهر حكى فى الحسن خدّ مؤنسه

و إن هبّ خفّاق النسيم بنفحة حكت عرفه طيبا قضى بتأنّسه

و منها:

رعى اللّه زهرا ينتمى لقرنفل حكى عرف من أهوى و إشراق خدّه

و منبته فى شاهق متمنّع كما امتنع المحبوب فى تيه صدّه

أميل إذا الأغصان مالت بروضة أعانق منها القضب شوقا لقدّه

و أهفو لخفّاق النسيم إذا سرى و أهوى أريج الطيب من عرف ندّه

و منها:

أقرّ بعينى أن أرى الزهر يانعا و قد نازع المحبوب فى الحسن وصفه

و ما أبصرت عينى كزهر قرنفل حكى خدّ من يسبى الفؤاد و عرفه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۴

تمنّع فى أعلى الهضاب لمجتن تمنّعه منى إذا رمت إلفه

و فى جبل الفتح اجتنوه تفاؤلا بفتح لباب الوصل يمنح عطفه

و ما ضرّ ذاك الغصن و هو مرنّح إذا ما ثنى نحو المتيّم عطفه

[قصيدة له يمدح فيها ابن الأحمر و يهنئه]

قال ابن الأحمر فى الكتاب المذكور فيما مرّ: و من قصائده التى يودّ الصبح سناها، و النسيم اللدن رقّة معناها، يهنئ مولانا الجدّ رضى اللّه تعالى عنه عند وصول خالصة مقامه، و كبير خدّامه، القائد خالد رحمه اللّه تعالى من تلمسان بالهديّة، و تجديد المقاصد الودّية، و وافق استئناف راحة من الذات العليّة، و من بعض فروع دوحتها الزكية: [الطويل]

أدرها ثلاثا من لحاظك و احبس فقد غال منها السكر أبناء مجلس

إذا ما نهانى الشيب عن أكؤس الطلا تدير علىّ الخمر منها بأكؤس

عذيرى من لحظ ضعيف و قد غدا يحكّم منّا فى جسوم و أنفس

و روض شباب ماس غصن قوامه و فتّح فيه اللحظ أزهار نرجس

و ما زال ورد الخدّ و هو مضعّف يعير أقاح الثغر طيب تنفّس

و كم جال طرف الطّرف فى روض حسنه يقيّده فيه العذار بسندس

أما و ليالى الوصل فى روضة الصّبا و مألف أحبابى و عهد تأنّسى

لئن نسيت تلك العهود أحبّتى فقلبى عهد العامريّة ما نسى

و حاشا لنفسى بعد ما افترّ فودها من الشّيب عن صبح به متنفّس

و ألبسها ثوب الوقار خليفة به لبس الإسلام أشرف ملبس

و جدّد للفتح المبين مواسما أقام بها الإيمان أفراح معرس

و أورثه العلياء كلّ خليفة نماه إلى الأنصار كلّ مقدّس

فيا زاجر الأظعان و هى ضوامر بغير الفلا و الوحش لم تتأنّس

إذا جئت من دار الغنىّ بربّه مناخ العلا و العزّ فاعقل و عرّس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۵

فإن شئت من بحر السماحة فاغترف و إن شئت من نور الهداية فاقبس

أمولاى إنّ السعد منك لآية أنارت بها الأكوان جذوة مقبس

إذا شئت أن ترمى القصىّ من المنى تدور لك الأفلاك مرفوعة القسى

فترمى بسهم من سعودك صائب سديد لأغراض الأمانى مقرطس

أهنّيك بالإبلال ممّن شفاؤه شفاؤك فاشكر من تلافى و قدّس

و دعنى أرد يمناك فهى غمامة تبخّل صوب العارض المتبجّس

أقبّل منها راحة إثر راحة أتتك بها الركبان من بيت مقدس

و من نسب الفتح المبين ولادة إليه بغير الفخر لم يتأسّس

فيا أيها المولى الذى بكماله خلائف هذا العصر فى الفخر تأتسى

لآمنت موسى من عوادى سميّه و لولاك لم يبرح بخيفة موجس

بعثت بميمون النقيبة فى اسمه خلود لعزّ ثابت متأسّس

فجاءك بالمال العريض هديّة بها الدين أثواب المسرّة يكتسى

و شفّعها بالصافنات كأنها و قد راق مرآها جآذر مكنس

تنصّ من الإشراف جيد غزالة و ترنو من الإيجاس عن لحظ أشوس

لك الخير موسى مثل موسى، كلاهما بغير شعار الودّ لم يتلبّس

فلا زلت فى ظلّ النعيم و كلّ من يعاديك لا ينفكّ يشقى بأبؤس

عليك سلام مثل حمدك عاطر تنفّس وجه الصبح عنه بمعطس

[قصيدة له فى المولد النبوى]

و قال فى مولد عام سبعة و ستين و سبعمائة و ألمّ فى أخرياتها بوصف المشور الأسنى، الرفيع المبنى: [الكامل]

زار الخيال بأيمن الزوراء فجلا سناه غياهب الظلماء

و سرى مع النسمات يسحب ذيله فأتت تنمّ بعنبر و كباء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۶

هذا و ما شىء ألذّ من المنى إلّا زيارته مع الإغفاء

بتنا خيالين التحفنا بالضنى و السقم ما تخشى من الرقباء

حتى أفاق الصبح من غمراته و تجاذبت أيدى النسيم ردائى

يا سائلى عن سرّ من أحببته السّرّ عندى ميّت الأحياء

تاللّه لا أشكو الصبابة و الهوى لسوى الأحبّة أو أموت بدائى

يا دين قلبى لست أبرح عانيا أرضى بسقمى فى الهوى و عنائى

أبكى و ما غير النجيع مدامع أذكى، و لا ضرم سوى أحشائى

أهفو إذا تهفو البروق، و أنثنى لسرى النواسم من ربا تيماء

بالله يا نفس الحمى رفقا بمن أغريته بتنفّس الصّعداء

عجبا له يندى على كبدى و قد أذكى بقلبى جمرة البرحاء

يا ساكنى البطحاء أىّ إبانة لى عندكم يا ساكنى البطحاء

أ ترى النوى يوما تخيب قداحها و يفوز قدحى منكم بلقاء

فى حيكم قمر فؤادى أفقه تفديه نفسى من قريب نائى

لم تنسنى الأيام يوم وداعه و الركب قد أوفى على الزّوراء

أبكى و يبسم و المحاسن تجتلى فعلقت بين تبسّم و بكاء

يا نظرة جادت بها أيدى النوى حتى استهلّت أدمعى بدماء

من لى بثانية تنادى بالأسى (قدك اتّئد أسرفت فى الغلواء)

و لربّ ليل بالوصال قطعته أجلو دجاه بأوجه الندماء

أنسيت فيه القلب عادة حلمه و حثثت فيه أكؤس السرّاء

جاريت فى طلق التصابى جامحا لا أنثنى لمقادة النّصحاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۷

أطوى شبابى للمشيب مراحلا برواحل الإصباح و الإمساء

يا ليت شعرى هل أرى أطوى إلى قبر الرسول صحائف البيداء

فتطيب فى تلك الربوع مدائحى و يطول فى ذاك المقام ثوائى

حيث النبوّة نورها متألّق كالشمس تزهى فى سنىّ و سناء

حيث الرسالة فى ثنيّة قدسها رفعت لهدى الخلق خير لواء

حيث الضريح ضريح أكرم مرسل فخر الوجود و شافع الشّفعاء

المصطفى و المرتضى و المجتبى و المنتقى من عنصر العلياء

خير البريّة مجتباها ذخرها ظلّ الإله الوارف الأفياء

تاج الرسالة ختمها و قوامها و عمادها السامى على النّظراء

لولاه للأفلاك ما لاحت بها شهب تنير دياجى الظّلماء

ذو المعجزات الغرّ و الآى الألى أكبرن عن عدّ و عن إحصاء

و كفاك ردّ الشمس بعد مغيبها و كفاك ما قد جاء فى الإسراء

و البدر شقّ له و كم من آية كأنامل جاءت بنبع الماء

و بليلة الميلاد كم من رحمة نشر الإله بها و من نعماء

قد بشّر الرّسل الكرام ببعثه و تقدّم الكهّان بالأنباء

أكرم بها بشرى على قدم سرت فى الكون كالأرواح فى الأعضاء

أمسى بها الإسلام يشرق نوره و الكفر أصبح فاحم الأرجاء

هو آية اللّه التى أنوارها تجلو ظلام الشّكّ أىّ جلاء

و الشمس لا تخفى مزيّة فضلها إلّا على ذى المقلة العمياء

يا مصطفى و الكون لم تعلق به من بعد أيدى الخلق و الإنشاء

يا مظهر الحقّ الجلىّ و مطلع ال نور السنىّ الساطع الأضواء

يا ملجأ الخلق المشفّع فيهم يا رحمة الأموات و الأحياء

يا آسى المرضى و منتجع الرضا و مواسى الأيتام و الضعفاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۸

أشكو إليك و أنت خير مؤمّل داء الذنوب و فى يديك دوائى

إنى مددت يدى إليك تضرّعا حاشا و كلّا أن يخيب رجائى

إن كنت لم أخلص إليك فإنما خلصت إليك محبتى و ندائى

و بسعد مولاى الإمام محمد تعد الأمانى أن يتاح لقائى

ظلّ الإله على البلاد و أهلها فخر الملوك السادة الخلفاء

غيث العباد و ليث مشتجر القنا يوم الطعان و فارج الغمّاء

كالدهر فى سطواته و سماحه تجرى صباه بزعزع و رخاء

رقّت سجاياه و راقت مجتلى كالنهر وسط الروضة الغنّاء

كالزّهر فى إيراقه، و البدر فى إشراقه، و الزّهر فى لألاء

يا بن الألى إجمالهم و جمالهم فلق الصباح و واكف الأنواء

أنصار دين اللّه حزب رسوله و السابقون بحلبة العلياء

يا ابن الخلائف من بنى نصر و من حاطوا ذمار الملّة السمحاء

من كلّ من تقف الملوك ببابه يستمطرون سحائب النعماء

قوم إذا قادوا الجيوش إلى الوغى فالرعب رائدهم إلى الأعداء

و العزّ مجلوب بكلّ كتيبة و النصر معقود بكلّ لواء

يا وارثا عنها مناقبها التى تسمو مراقيها على الجوزاء

يا فخر أندلس و عصمة أهلها يجزيك عنها اللّه خير جزاء

كم خضت طوع صلاحها من مهمه لا تهتدى فيه القطا للماء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۹

تهدى بها حادى السّرى بعزائم تهدى نجوم الأفق فضل ضياء

فارفع لواء الفخر غير مدافع و اسحب ذيول العزّة القعساء

و اهنأ بمبناك السعيد فإنه كهف ليوم مشورة و عطاء

للّه منه هالة قد أصبحت حرم العفاة و مصرع الأعداء

تنتابها طير الرجاء فتجتنى ثمر المنى من دوحة الآلاء

للّه منه قبّة مرفوعة دون السماء تفوت لحظ الرائى

راقت بدائع وشيها فكأنها وشىء الربيع بمسقط الأنداء

عظّمت ميلاد النبىّ محمد و شفعته بالليلة الغرّاء

أحييت ليلك ساهرا فأفدتنا قوت القلوب بذلك الإحياء

يا أيها الملك الهمام المجتبى فاتت علاك مدارك العقلاء

من لى بأن أحصى مناقبك التى ضاقت بهنّ مذاهب الفصحاء

و إليك منّى روضة مطلولة أرجت أزاهرها بطيب ثناء

فافسح لها أكناف صفحك إنها بكر أتت تمشى على استحياء

و قال ابن الأحمر: و من إعذاريات ابن زمرك المحكمة نسقا و رصفا، المتناهية فى كلّ فنّ حسن تحلية غريبة و وصفا، حسبما اقتضته ملاحظة النسبة الرفيعة مولانا رحمة اللّه تعالى عليه و احتفاله المناسب لعزّ ملكه من تعميم الخلق بالجفلى فى دعواهم، و استدعاء أشراف الأمم من أهل المغرب و سواهم، تفنّنا فى مكارم متعدّدة أيامها عن أصالة المجد معربة، و إغراء لهم الملك بما لتتميم الأنس من أوضاع مغربة، و مباهاة بعرض الجيوش و الكتائب للعدوّ الكافر، و تكاثرا من مماليك دولته بالعدد الوافر، ممّا ألجم اللسن الذكى عيّا، و غادر الإعذار الذنّونىّ منسيّا، كافأ اللّه سبحانه أبوّته المولوية عنّا و عن آبائنا، و تلقّى بالقبول الكفيل بتجديد الرضوان ما نصل له من خالص دعائنا، إنه منعم جواد- قوله فى الصنيع المختصّ من ذلك بمولانا الوالد قدّس اللّه تعالى روحه! و ذلك سنة أربع و ستين و سبعمائة: [الطويل]

معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا

القصيدة، و قد تقدمت بتمامها فراجعها.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۴۰

[قصيدة له فى التهنئة، و فيها يصف الجند]

ثم قال: و من ذلك ما أنشد فى الصنيع الثانى المخصوص بعمّينا السيدين الأميرين سعد و نصر، رحمة اللّه تعالى عليهما! و أجاد فى وصف الجند و الجرد و الطلبة و غرائب الأوضاع:

[الكامل]

أ للمحة من بارق متبسّم أرسلته دمعا تضرّج بالدم

و للمحة تهفو ببانات اللّوى يهفو فؤادك عن جوانح مغرم

هى عادة عذريّة من يوم أن خلق الهوى تعتاد كلّ متيّم

قد كنت أعذل ذا الهوى من قبل أن أدرى الهوى، و اليوم أعذل لوّمى

كم زفرة بين الجوانح ما ارتقت حذر الرقيب و مدمع لم يسجم

إن كان واشى الدمع قد كتم الهوى هيهات واشى السقم لمّا يكتم

و لقد أجدّ هواى رسم دارس قد كاد يخفى عن خفىّ توهّم

و ذكرت عهدا فى حماه قد انقضى فأطلت فيه تردّدى و تلوّمى

و لربما أشجى فؤادى عنده و رقاء تنفث شجوها بترنّم

لا أجدب اللّه الطلول فطالما أشجى الفصيح بها بكاء الأعجم

يا زاجر الأظعان يحفزها السّرى قف بى عليها وقفة المتلوّم

لترى دموع العاشقين برسمها حمرا كحاشية الرداء المعلم

دمن عهدت بها الشبيبة و الهوى سقيا لها و لعهدها المتقدم

و كتيبة للشوق قد جهّزتها أغزو بها السّلوان غزو مصمّم

و رفعت فيها القلب بندا خافقا و أريت للعشّاق فضل تهمّمى

فأنا الذى شاب الحماسة بالهوى لكنّ من أهواه ضايق مقدمى

فطعنت من قدّ القوام بأسمر و رميت من غنج اللحاظ بأسهم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۴۱

يا قاتل اللّه الجفون فإنها مهما رمت لم تخط شاكلة الرمى

ظلمت قتيل الحبّ ثم تبيّنت للسّقم فيها فترة المتظلّم

يا ظبية سنحت بأكناف الحمى سقى الحمى صوب الغمام المسجم

ما ضرّ إذ أرسلت نظرة فاتك أن لو عطفت بنظرة المترحّم

فرأيت جسما قد أصيب فؤاده من مقلتيك و أنت لم تتأثم

و لقد خشيت بأن يقاد بجرحه فوهبت لحظك ما أحلّك من دمى

كم خضت دونك من غمار مفازة لا تهتدى فيها الليوث لمجثم

و النجم يسرى من دجاه بأسهم رحب المقلّد بالثريّا ملجم

و البدر فی صفح السماء کأنه مرآة هند وسط لجّ ترتمی

و الزهر زهر و السماء حدیقة فتقت کمائم جنحها عن أنجم

و اللیل مربدّ الجوانح قد بدا فیه الصباح کغرّة فی أدهم

فکأنما فلق الصباح و قد بدا مرأی ابن نصر لاح للمتوسّم

ملک أفاض علی البسیطة عدله فالشاة لا تخشی اعتداء الضیغم

هو منتهی آمال کلّ موفق هو مورد الصادی و کنز المعدم

لاحت مناقبه کواکب أسعد فرأت ملامح نوره عین العمی

و لقد تراءی بأسه و سماحه فأتی الجلال من الجمال بتوأم

مثل الغمام و قد تضاحک برقه فأفاد بین تجهّم و تبسّم

أنسی سماحة حاتم، و کذاک فی یوم اللقاء ربیعة بن مکدّم

سیر تسیر الطّیرات بهدیها و تعیر عرف الروض طیب تنسّم

فالبدر دونک فی علا و إنارة و البحر دونک فی ندی و تکرّم

و لک القباب الحمر ترفع للندی فتری العمائم تحتها کالأنجم

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۹، ص: ۴۲

یذکی الکباء بها کأنّ دخانه قطع السحاب بجوّها المتغیّم

و لک العوالی السمر تشرع للعدا فتخرّ صرعی للیدین و للفم

و لک الأیادی البیض قد طوقتها صید الملوک ذوی التلاد الأقدم

شیم یقرّ الحاسدون بفضلها و الصبح لیس ضیاؤه بمکتّم

ورث السماحة عن أبیه و جدّه فالأکرم ابن الأکرم ابن الأکرم

نقلوا المعالی کابرا عن کابر کالرمح مطّرد الکعوب مقوّم

و تسنّموا رتب العلاء بحقّها ما بین جدّ فی الخلافة و ابنم

یا آل نصر أنتم سرج الهدی فی کلّ خطب قد تجهّم مظلم

الفاتحون لکلّ صعب مقفل و الفارجون لکلّ خطب مبهم

و الباسمون إذا الکماة عوابس و المقدمون علی السواد الأعظم

أبناء أنصار النبیّ و حزبه و ذوی السوابق و الجوار الأعصم

سل عنهم أحدا و بدرا تلقهم أهل الغناء بها و أهل المغنم

و بفتح مکة کم لهم فی یومه بلواء خیر الخلق من متقدّم

أقسمت بالحرم الأمین و مکة و الرکن و البیت العتیق و زمزم

لو لا مآثرهم و فضل علاهم ما کان یعزی الفضل للمتقدّم

ما ذا عسی أثنی و قد أثنت علی علیائهم آی الکتاب المحکم

یا وارثا عنها مآثرها التی قد شیّدت للفخر أشرف معلم

یا فخر أندلس لقد مدّت إلی علیاک کفّ اللائذ المستعصم

أمّا سعودک فی الوغی فتکفّلت بسلامة الإسلام فاخلد و اسلم

وافيت هذا الثغر و هو على شفىّ فشفيت معضل دائه المستحكم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۴۳

و رعيته بسياسة دارت على مختطّه دور السّوار بمعصم

كم ليلة قد بتّ فيها ساهرا تهدى الأمان إلى العيون النّوم

يا مظهر الألطاف و هى خفيّة و مهبّ ريح النصر للمتنسّم

للّه دولتك التى آثارها سير الركاب لمنجد أو متهم

ما بعد يومك فى المواسم بعد ما أتبعت عيد الفطر أكرم موسم

وافتك أشراف البلاد ليومه من كلّ ندب للعلا متسنّم

صرفوا إليك ركابهم و تيمّموا من بابك المنتاب خير ميمّم

و تبوّءوا منه بدار كرامة فالكلّ بين مقرّب و منعّم

ودّت نجوم الأفق لو مثلت به لتفوز فيه برتبة المستخدم

و الروض مختال بحلية سندس من كلّ موشىّ الرقوم منمنم

و رياحه نسمت بنشر لطيمة و أقاحه بسمت بثغر مسلم

و أريتنا فيه عجائب جمّة لم تجر فى خلد و لم تتوهّم

أرسلت سرعان الجياد كأنها أسراب طير فى التّنوفة حوّم

من كلّ منحفز بخطفة بارق قد كاد يسبق لمحة المتوهّم

طرف يشكّ الطّرف فى استتباته فكأنه ظنّ بصدر مرجّم

و مسافر فى الجوّ تحسب أنه يرقى إلى أوج السماء بسلّم

رام استراق السمع و هو ممنّع فأصيب من قضب العصىّ بأسهم

رجمته من شهب النصال حواصب لو لا تعرّضه لها لم يرجم

و مدارة الأفلاك أعجز كنهها إبداع كلّ مهندس و مهندم

يمشى الرجال بجوفها و جميعهم عن مستوى قدميه لم يتقدّم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۴۴

و منوّع الحركات قد ركب الهوا يمشى على خطّ به متوهّم

فإذا هوى من جوّه ثم استوى أبصرت طيرا حول صورة آدم

يمشى على فنن الرشاء كأنه فيه مساور ذابل أو أرقم

و إليك من صون العقول عقيلة وقفت ببابك وقفة المسترحم

ترجو قبولك و هو أكبر منحة فاسمح به خلّدت من متكرّم

طاردت فيها وصف كلّ غريبة فنظمت شارده الذى لم ينظم

و دعوت أرباب البيان أريهم (كم غادر الشعراء من متردّم)

ما ذاك إلّا بعض أنعمك التى قد علّمتنا كيف شكر المنعم

[قصيدة أخرى فى التهنئة، و فيها يصف دار الملك]

ثم قال: و أنشد من ذلك فى الصنيع المخصوص بعمّنا الأمير أبى عبد اللّه- رحمة اللّه تعالى عليه!- و أطنب فى وصف دار الملك و غير ذلك من ضخامة آثار مولانا رضى اللّه تعالى عنه: [الطويل]

سل الأفق بالزّهر الكواكب حاليا فإنى قد أودعته شرح حاليا

و حملت معتلّ النسيم أمانة قطعت بها عمر الزمان أمانيا

فيا من رأى الأرواح و هى ضعيفة أحمّلها ما يستخفّ الرواسيا

و ساوس كم جدّت و جدّ بى الهوى فعدّ به القلب المقلّب هازيا

و من يطع الألحاظ فى شرعة الهوى فلا بدّ أن يعصى نصيحا و لا حيا

عدلت بقلبى عن ولاية حكمه غداة ارتضى من جائر اللحظ واليا

و ما الحبّ إلّا نظرة تبعث الهوى و تعقب ما يعيى الطبيب المداويا

فيا عجبا للعين تمشى طليقة و يصبح من جرّائها القلب عانيا

ألا فى سبيل اللّه نفس نفيسة يرخّص منها الحبّ ما كان غاليا

و يا ربّ عهد للشباب قضيته و أحسنت من دين الوصال التقاضيا

خلوت بمن أهواه من غير رقبة و لكن عفافى لم أكن عنه خاليا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۴۵

و يوم بمستنّ الظباء شهدته أجدّ وصالا باليا فيه باليا

و لم أصح من خمر اللحاظ و قد غدا به الجوّ وضّاح الأسرّة صاحيا

و جرّد من غمد الغمامة صارما من البرق مصقول الصفيحة صافيا

تبسّم فاستبكى جفونى غمرة ملأت بدرّ الدمع منها ردائيا

و أذكرنى ثغرا ظمئت لورده و لا و الهوى العذرىّ ما كنت ناسيا

وراح خفوق القلب مثلى كأنما ببرق الحمى من لوعة الحبّ ما بيا

و ليلة بات البدر فيها مضاجعى و باتت عيون الشّهب نحوى روانيا

كرعت بها بين العذيب و بارق بمورد ثغر بات بالدرّ حاليا

رشفت به شهد الرضاب سلافة و قبّلت فى ماء النعيم الأقاحيا

فيا برد ذاك الثغر روّيت غلّتى و يا حرّ أنفاسى أذبت فؤاديا

و روضة حسن للشباب نضيرة هصرت بغصن البان فيها المجانيا

و بتّ أسقّى وردة الخدّ أدمعى فأصبح فيها نرجس اللحظ ذاويا

و مالت بقلبى مائلات قدودها فما للقدود المائلات و ما ليا

جزى اللّه ذاك العهد عودا فطالما أعاد على ربع الظباء الجوازيا

و قل لليال فى الشباب نعمتها و قضّيتها أنسا: سقيت لياليا

و يا واديا رفّت علىّ ظلاله و نحن ندير الوصل فدّيت واديا

رمتنى عيون السّرب فيه و إنما رمين بقلبى فى الغرام المراميا

فلو لا اعتصامى بالأمير محمد لما كنت من فتك اللواحظ ناجيا

فقل للذى يبنى على الحسن شعره عليه مع الإحسان لا زلت بانيا

فكم من شكاة فى الهوى قد رفأتها و رفّعتها بالمدح إذ جاء تاليا

و كم ليلة فى مدحه قد سهرتها أباهى بدرّ النظم فيه الدراريا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۴۶

و لاح عمود الصبح مثل انتسابه رفعت عليه للمديح المبانيا

إمام أفاد المكرمات زمانه و ساكنه فوق النجوم العواليا

و جاوز قدر البدر نورا و رفعة و لم يرض إلّا بالكمال مواليا

هو الشمس بثت فى البسيطة نفعها و أنوارها أهدت قريبا و قاصيا

هو البحر بالإحسان يزخر موجه و لكنه عذب لمن جاء عافيا

هو الغيث مهما يمسك الغيث سحبه يروّى بسحب الجود من كان صاديا

شمائل لو أنّ الرياض بحسنها لما صار فيها زهرها الغضّ ذاويا

فيا ابن الملوك الصّيد من آل خزرج و ذا نسب كالصبح عزّ مساميا

أ لست الذى ترجو العفاة نواله فتخجل جدواه السحاب الغواديا

أ لست الذى تخشى البغاة صياله فتوجل علياه الصعاب العواديا

و هديك مهما ضلت الشّهب قصدها تولته فى جنح الدجنّة هاديا

و عزمك أمضى من حسامك فى الوغى و إن كان مصقول الغرارين ماضيا

فكم قادح فى الدين يكفر ربّه قدحت له زند الحفيظة واريا

و ما راعه إلّا حسام و عزمة يضيئان فى ليل الخطوب الدواجيا

فلولاك يا شمس الخلافة لم يبن سبيل جهاد كان من قبل خافيا

و لولاك لم ترفع سماء عجاجة تلوح بها بيض النصول دراريا

و لولاك لم تنهل غصون من القنا و كانت إلى ورد الدماء صواديا

فأثمر فيها النصل نصرا مؤزّرا و أجنى قطاف الفتح غضّا و دانيا

و مهما غدا سفّاح سيفك عاريا يغادر وجه الأرض بالدم كاسيا

قضى اللّه من فوق السماوات أنه على من أبى الإسلام فى الأرض قاضيا

فكم معقل للكفر صبّحت أهله بجيش أعاد الصبح أظلم داجيا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۴۷

رقيت إليه و السيوف مشيحة و قد بلغت فيه النفوس التراقيا

ففتّحت مرقاه الممنّع عنوة و بات به التوحيد يعلو مناديا

و ناقوسه بالقسر أمسى معطّلا و منبره بالذكر أصبح حاليا

عجائب لم تخطر ببال و إنما ظفرنا بها عن همّة هى ما هيا

فمنك استفاد الدهر كلّ عجيبة تخطّ على صفح الزمان الأماليا

و للّه مبناك الجميل فإنه يفوق على حكم السعود المبانيا

فكم فيه للأبصار من متنزّه تجدّ به نفس الحليم الأمانيا

و تهوى النجوم الزّهر لو ثبتت به و لم تك فى أفق السماء جواريا

و لو مثلت فی سابقیه لسابقت إلی خدمهٔ ترضیک منها الجواریا

به البهو قد حاز البهاء و قد غدا به القصر آفاق السماء مباهیا

و کم حلّهٔ قد جلّلته بحلیها من الوشی تنسی السابریّ الیمانیا

و کم من قسیّ فی ذراه ترفّعت علی عمد بالنور باتت حوالیا

فتحسبها الأفلاک دارت قسیّها تظلّ عمود الصبح إذ بات بادیا

سواریّ قد جاءت بکلّ غریبهٔ فطارت بها الأمثال تجری سواریا

به المرمر المجلوّ قد شفّ نوره فیجلو من الظّلماء ما کان داجیا

إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها علی عظم الأجرام منها لآلیا

به البحر دفّاع العباب تخاله إذا ما انبری وفد النسیم مباریا

إذا ما جلت أیدی الصّبا متن صفحه أرتنا دروعا أکسبتنا الأیادیا

و راقصهٔ فی البحر طوع عنانها تراجع ألحان القیان الأغانیا

إذا ما علت فی الجوّ ثم تحدّرت تحلّی بمرفضّ الجمان النواحیا

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب؛ ج۹؛ ص۴۷

یذوب لجین سال بین جواهر غدا مثلها فی الحسن أبیض صافیا

تشابه جار للعیون بجامد فلم أدر أیّا منهما کان جاریا

فإن شئت تشبیها له عن حقیقهٔ تصیب بها المرمی و بورکت رامیا

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۹، ص: ۴۸

فقل أرقصت منها البحیرهٔ متنها کما یرقص المولود من کان لاهیا

أرتنا طباع الجود و هی ولیدهٔ و لم ترض فی الإحسان إلّا تغالیا

سقت ثغر زهر الروض عذب برودها و قامت لکی تهدی إلی الدهر ساقیا

کأن قد رأت نهر المجرّهٔ ناضبا فقامت بأن تجری إلیه السواقیا

و قامت بنات الدّوح فیه مواثلا فرادی و یتلو بعضهنّ مثانیا

رواضع فی حجر الغرام ترعرعت و شبّت، فشبّت حبّها فی فؤادیا

بها کلّ ملتفّ الغدائر مسبل تجیل به أیدی النسیم مداریا

و أشرف جید الغصن فیها معطّلا فقلّدت النّوّار منه التراقیا

إذا ما تحلّت درّ زهر غروسه یبیت لها النّمّام بالطیب واشیا

مصارفهٔ النقدین فیها بمثلها أجاز بها النقدین منها کما هیا

فإن ملأت کفّ النسیم بمثلها دراهم نور ظلّ عنها مکافیا

فیملأ حجر الروض حول غصونها دنانیر شمس تترک الروض حالیا

تعوّد فی أفنانها الطیر کلّما تجسّ به أیدی القیان الملاهیا

تراجعها سجعا فتحسب أنها بأصواتها تملی علیها الأغانیا

فلم ندر روضا منه أنعم نضرهٔ و أعطر أرجاء، و أحلی مجانیا

و لم نر قصرا منه أعلی مظاهرا و أرفع آفاقا، و أفسح نادیا

معانى من نفس الكمال انتقيتها و زيّنت منها بالجمال المغانيا

و فاتحت مبناه بعيد شرعته تبثّ به فى الخافقين التهانيا

و لمّا دعوت الناس نحو صنيعه أجابوا لهم من جانب الغور داعيا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۴۹

و أمّوه من أقصى البلاد تقرّبا و ما زال منك السعد يدنى الأقاصيا

و أذكرت يوم العرض جودا و منعة بموقف عرض كنت فيه المجازيا

جزيت به كلّا على حال سعيه فما غرست يمناه أصبح جانيا

و أطلعت من جزل الوقود هوادجا تذكّر يوم النّفر من كان ساهيا

و حين غدا يذكى منائر للقرى فلا غرو أن أجريت فيه المذاكيا

و طامحة فى الجوّ غير مطالة يردّ مداها الطرف أحسر عاريا

تمدّ لها الجوزاء كفّ مسارع و يدنو لها بدر السماء مناجيا

و لا عجب أن فاتت الشّهب بالعلا و أن جاوزت منها المدى المتناهيا

فبين يدى مثواك قامت لخدمة و من خدم الأعلى استفاد المعاليا

و شاهد ذا أنى ببابك واقف و قد حسدت زهر النجوم مكانيا

و قد أرضعت ثدى الغمائم قبلها بحجر رياض كنّ فيه نواشيا

فلمّا أبينت عن قرارة أصلها أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا

و عدّت لقاء السّحب عيدا و موسما لذاك اغتدت بالزّمر تلهى الغواديا

فأضحكت البرق الطروب خلالها و بات لأكواس الدرارى معاطيا

رأت نفسها طالت فظنّت بأنها تفوت على رغم اللحاق المراميا

فخفّت إليها الزائلات كأنها طيور إلى و كر أطلن تهاويا

حكت شبها للنحل و النحل حوله عصىّ إلى مثواه تهوى عواليا

فمن مثبت منها الرميّة مدرك و من طائش فى الجوّ حلّق وانيا

و حصن منيع فى ذراها قد ارتقى فأبعد فى الجوّ الفضاء المراقيا

كأنّ بروق الجوّ غارت و قد أرت بروج قصور شدتهنّ سواميا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۵۰

فأنشأت برجا صاعدا متنزّلا يكون رسولا بينهنّ مداريا

تطوّر حالات أتى فى ضروبها بأنواع حلى تستفزّ الغوانيا

فحجل برجليها و شاح بخصرها و تاج إلى ما حلّ منها الأعاليا

و ما هو إلّا طير سعد بذروة غدا زاجرا من أشهب الصبح بازيا

أ مولالى، يا فخر الملوك و من به سيبلغ دين اللّه ما كان راجيا

بنوك على حكم السعادة خمسة و ذا عدد للعين ما زال واقيا

تبيت لهم كفّ الثريّا معيذة و يصبح معتلّ النواسم راقيا

أسام عليها للسعادة ميسم ترى العزّ فيها مستكنّا و باديا

جعلت أبا الحجاج فاتح طرسهم و قد عرفت منك الفتوح التواليا
و حسبك سعد ثم نصر يليهم محمد الأرضى، فما زلت راضيا
أقمت به من فطرة الدين سنّة و جددت من رسم الهداية عافيا
و جاؤوا به ملء العيون و سامة يقبّل وجه الأرض أزهر باهيا
فيا عاذلا ما كان أجرأ مثله فمثلك لا يدمى الأسود الضواريا
و جاءتك من مصر التحايا كرائما فما فتقت أيدى التّجار الغواليا
و وافتك من أرض الحجاز تميمة تتمم صنع اللّه لا زال باديا
و ناداك بالتمويل سلطان طيبة فيا طيب ما أهدى إليك مناديا
و قام و قد وافى ضريح محمد لسلطانك الأعلى هنالك داعيا
سريرتك الرحمى جزاك بسعيها إله يوفّى فى الجزاء المساعيا
فو اللّه لو لا سنّة نبويّة عهدناه مهديّا إليها و هاديا
و عذر من الأعذار قرّر حكمه من الشرع أخبار رفعن عواليا
لراعت بها للجزر أهوال موقف تشيب بمبيضّ النصول العواليا
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۵۱
لك الحمد فيه من صنيع تعدّه فثالثه فى الفخر عزز ثانيا
تشدّ له الجوزاء عقد نطاقها لتخدم فيه كى تنال المعاليا
و هنّيت بالأمداح فيه و قد غدا و جودك فيه بالإجادة وافيا
و دونك من بحر البيان جواهرا كرمن فما يشرين إلّا غواليا
و طاردت فيها وصف كلّ غريبة فأعجزت من يأتى و من كان ماضيا
فيا وارث الأنصار لا عن كلالة تراث جلال يستخفّ الرواسيا
بأمداحه جاء الكتاب مفصّلا يرتّله فى الذكر من كان تاليا
لقد عرف الإسلام ممّا أفدته مكارم أنصارية و أياديا
عليك سلام اللّه فاسلم مخلّدا تجدّد أعيادا و تبلى أعاديا

[تخميس له يهنئ فيه ابن الأحمر بعوده من سبتة]

ثم قال: و من ذلك فى الصنيع المختص بالأمراء الجلّة: أخينا المعزّ لدولتنا أبى الحسن، و أخينا أبى العباس، و ابن عمنا أبى عبد اللّه، وصل اللّه تعالى سعودهم! و لقد أبدع فى تشييده و تأسيسه، و بسط يد الحسن من براعته و تخميسه، و ذلك على أثر عودة مولانا رحمة اللّه تعالى عليه من سبتة لمّا عادت إلى ملكه: [الطويل]
أرقت لبرق مثل جفنى ساهرا
ينظّم من قطر الغمام جواهرا
فيبسم ثغر الروض عنه أزاهرا
و صبح حكى وجه الخليفة باهرا تجسّم من نور الهدى و تجسّدا
شفانى معتلّ النسيم إذا انبرى

و أسند عن دمعى الحديث الذى جرى

و قد فتق الأرجاء مسكا و عنبرا

كأنّ الغنى بالله فى الروض قد سرى فهبّت به الأرواح عاطرة الرّدا

عذيرى من قلب إلى الحسن قد صبا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۵۲

تهيّجه الذكرى و يصبو إلى الصّبا

و يجرى جياد اللّه و فى ملعب الصّبا

و لو لا ابن نصر ما أفاق و أعتبا رأى وجهه صبح الهداية فاهتدى

إليك أمير المسلمين شكاية

جنى الحسن فيها للقلوب جناية

و أعظم فيها بالعيون نكاية

و أطلع فى ليل من الشّعر آية محيّا جميلا بالصباح قد ارتدى

بهديك تهدى النّيّرات و تهتدى

و أنواؤها جدوى يمينك تجتدى

و عدلك للأملاك أوضح مرشد

بآثاره فى مشكل الأمر تقتدى فما بال سلطان الجمال قد اعتدى

تحكّم منّا فى نفوس ضعيفة

و سلّ سيوفا من جفون نحيفة

أ لم يدر أنّا فى ظلال خليفة

و دولة أمن لا تراع منيفة بها قد رسا دين الهوى و تمهّدا

خذوا بدم المشتاق لحظا أراقه

و برقا بأعلام الثنيّة شاقه

و إن كلفوه فوق ما قد أطاقه

يبثّ حديثا ما ألذّ مساقه خليفتنا المولى الإمام محمدا

تقلّد حكم العدل دينا و مذهبا

و جور الليالى قد أزاح و أذهبا

فيا عجبا للشوق أذكى و ألهبا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۵۳

و سلّ صباحا صارم البرق مذهبا و قد بات فى جفن الغمامة مغمدا

يذكّرنى ثغرا لأسماء أشنبا

إذا ابتسمت تجلو من الليل غيهبا

كعزم أمير المسلمين إذا احتبى

و أجرى به طرفا من الصبح أشهبا و أصدر فى ذات الإله و أوردا

فسبحان من أجرى الرياح بنصره

و عطّر أنفاس الرياض بشكره

فبرد الصّبا يطوى على طيب نشره

و مهما تجلّى وجهه وسط قصره ترى هالة بدر السماء بها بدا

إمام أفاد المعلوات زمانه

فما لحقت زهر النجوم مكانه

و مدّ على شرق و غرب أمانه

و لا عيب فيه غير أنّ بنانه تغرّق مستجديه فى أبحر النّدى

هو البحر مدّ العارض المتهلّلا

هو البدر لكن لا يزال مكمّلا

هو الدهر لا يخشى الخطوب و لا ولا

هو العلم الخفّاق فى هضبة العلا هو الصارم المشهور فى نصرة الهدى

أما و الذى أعطى الوجود وجوده

و أوسع من فوق البسيطة جوده

لقد أصحب النصر العزيز بنوده

و مدّ بأملاك السماء جنوده و أنجز للإسلام بالنصر موعدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۵۴

أمولاى، قد أنجحت رأيا و راية

و لم تبق فى سبق المكارم غاية

فتهدى سجايا كابن رشد نهاية

و إن كان هذا السعد منك بداية سيبقى على مرّ الزمان مخلّدا

سعودعك تغنى عن قراع الكتائب

وجودك يزرى بالغمام السواكب

و إن زاحمتها شهبها بالمناكب

و وجهك بدر المنتدى و المواكب و قد فسحت فى الفخر أبناؤك المدى

بنوك كأمثال الأنامل عدّة

أعدّت لما يخشى من الدهر عدّة

و زيد بهم برد الخلافة جدّة

أطال لهم فى ظلّ ملكك مدّة إله يطيل العمر منك مؤبّدا

بدور بأوصاف الكمال استقلّت

غمام بفيّاض النوال استهلّت

سيوف على الأعداء بالنصر سلّت

نجوم بآفاق العلاء تجلّت و لاحت كما شاءت سعودك أسعدا

و إنّ أبا الحجاج سيفك منتضى

و بدر بآفاق الجمال تعرّضا

بنورك يا شمس الخلافة قد أضا

و راقت على أعطافه حلل الرضا فحلّ محلّا من علاك ممهّدا

مليك له تعنو الملوك جلالة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۵۵

يجرّر أذيال الفخار مطالة

و تفرق أسد الغاب منه بسالة

و ترضاه أنصار الرسول سلالة فأبناؤه طابوا فروعا و محتدا

أزاهر فى روض الخلافة أينعت

زواهر فى أفق العلاء تطلّعت

جواهر أغيت فى الجمال و أبدعت

و عن قيمة الأعلاق قدرا ترفّعت يسرّ بها الإسلام غيبا و مشهدا

بعهد وليّ العهد كرّم عهده

و أنجز فى تخليد ملكك وعده

تنظّم منهم تحت شملك عقده

و أورثهم فخرا أبوه و جدّه فأعلى عليّا حين أحمد أحمدا

تحوط بهم ملكا عزيزا و ملّة

و تلحظ عين السّعد منهم أهلّة

ستبدو على أفق العلا مستقلّة

و سحبا بفيّاض العلا مستهلّة تفجّر بحرا للسماحة مزبدا

و نجلك نصر يقتفى نجل رسمه

أمير يزين العقل راجح حلمه

أتاك بنجل يستضاء بنجمه

لحبّ رسول اللّه سمّاه باسمه و باسمك فى هذى الموافقة اقتدى

أقمت بإعذار الإمارة سنّة

و طوّقت من حلى بفخرك منّة

و أسكنتها فى ظلّ برّك جنّة

و ألحفتها برد امتنانك جنّة و عمّرت منها بالتلاوة مسجدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۵۶

فللّه عينا من رآهم تطلّعوا

غصونا بروض الجود منك ترعرعوا

و فى دوحة العلياء منك تفرّعوا

ملوك بجلباب الحياء تقنّعوا أضاء بهم من أفق قصرك منتدى

و قد أشعروا الصبر الجميل نفوسهم

و أضفوا به فوق الحلىّ لبوسهم

و قد زيّنوا بالبشر فيه شموسهم

و عاطوا كؤوس الأنس فيه جليسهم و أبدوا على هول المقام تجلّدا

شمائل فيهم من أبيهم وجدّهم

تفصّل آى الفخر فيها بحمدهم

و تنسبها الأنصار قدما لسعدهم

تضىء بها نورا مصابيح سعدهم و لم لا و من صحب الرسول توقّدا

فو اللّه لو لا سنّة قد أقمتها

و سيرة هدى للنبىّ علمتها

و أحكام عدل للجنود رسمتها

لجالت بها الأبطال تقصد سمتها و تترك أوصال الوشيج مقصّدا

و يا عاذرا أبدى لنا الشرع عذره

طرقت حمّى قد عظّم اللّه قدره

و أجريت طيبا يحسد الطيب نشره

لقد جئت ما تستعظم الصّيد أمره و تفديه إن يقبل خليفتها فدا

رعى اللّه منها دعوة مستجابة

أفادت نفوس المخلصين إنابة

و لم تلف فى دون القبول حجابة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۵۷

و عاذرها لم يبد عذرا مهابة فأوجب عن نقص كمالا تزيّدا

فنقص كمال المال و فر نصابه

و ما السيف إلّا بعد مشق ذبابه

و ما الزهر إلّا بعد شقّ إهابه

بقطع يراع الخطّ حسن كتابه و بالقصّ يزداد الذبال توقّدا

و لمّا قضوا من سنّة الشرع واجبا

و لم نلق من دون الخلافة حاجبا

أفضنا نهنّى منك جذلان واهبا

أفاض علينا أنعما و مواهبا تعوّد بذلّ الجود فيما تعوّدا

هنيئا هنيئا قد بلغت مؤمّلا

و أطلعت نورا يبهر المتأمّلا

و أحرزت أجر المنعمين مكمّلا

تبارك من أعطى جزيلا و أجملا و بلّغ فيك الدين و الملك مقصدا

ألا فى سبيل العزّ و الفخر موسم

يظلّ به ثغر المسرّة يبسم

و عرف الرضا من جوّه يتنسّم

و أرزاق أرباب السعادة تقسم ففى وصفه ذهن الذكىّ تبلّدا

و جلّلت فى هذا الصنيع مصانعا

تمنى بدور التمّ منها مطالعا

و أبديت فيها للجمال بدائعا

و أجريت للإحسان فيها مشارعا يودّ بها نهر المجرّة موردا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۵۸

و أجريت فيها الخيل و هى سوابق

و إن طلبت فى الروع فهى لواحق

نجوم و آفاق الطّراد مشارق

يفوت التماح الطّرف منها بوارق إذا ما تجارى الشّهب تستبق المدى

و تطلع فى ليل القتام كواكبا

و قد وردت نهر النهار مشاربا

تقود إلى الأعداء منها كواكبا

فترسم من فوق التراب محاربا تحور رؤوس الروم فيهنّ سجّدا

سوابح بالنصر العزيز سوانح

و هنّ لأبواب الفتوح فواتح

تقود إليك النصر و اللّه مانح

فما زلت باب الخير و اللّه فاتح و ما تمّ شىء قد عدا ما بدا

رياح لها مثنى البروق أعنّة

ظباء فإن جنّ الظلام فجنّة

تقيها من البدر المتمّم جنّة

و تشرع من زهر النجوم أسنّة فتقذف شهب الرّجم فى أثغر العدا

فأشهب من نسل الوجيه إذا انتمى

جرى فشأى شهب الكواكب فى السما

و خلّف منها فى المقلّد أنجما

تردّى جمالا بالصباح و ربما يقول له الإصباح: نفسى لك الفدا

و أحمر قد أذكى به البأس جمرة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۵۹

و قد سلب الياقوت و الورد حمرة

أدار به ساق من الحرب خمرة

و أبدى حبابا فوقها الحسن غرّة يزين بها خدّا أسيلا مورّدا

و أشقر مهما شعشع الركض برقه

أعار جواد البرق فى الأفق سبقه

بدا شفقا قد جلّل الحسن أفقه

أ لم تر أنّ اللّه أبدع خلقه فسال على أعطافه الحسن عسجدا

و أصفر قد ودّ الأصيل جماله

و قد قدّ من برد العشىّ جلاله

إذا أسرجوا جنح الظلام ذباله

فغرّته شمس تضىء مجاله و فى ذيله ذيل الظلام قد ارتدى

و أدهم فى مسح الدّجى متجرّد

يجيش بها بحر من الليل مزبد

و غرّته نجم به تتوقّد

له البدر سرج و النجوم مقلّد و فى فلق الصبح المبين تقيّدا

و أبيض كالقرطاس لاح صباحه

على الحسن مغداه و فيه مراحه

و للظّبيات الآنسات مراحه

تراه كنشوان أمالته راحه و تحسبه وسط الجمال معربدا

و ذاهبة فى الجوّ ملء عنانها

و قد لفعتها السّحب برد عنانها

يفوت ارتداد الطّرف لمح عيانها

و ختّمت الجوزاء سبط بنانها و صاغت لها حلى النجوم مقيّدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۶۰

أراها عمود الصبح علو المصاعد

و أوهمها قرب المدى المتباعد

ففاتته سبقا فى مجال الرواعد

و أتحفت الكفّ الخضيب بساعد فطوّقت الزّهر النجوم بها يدا

و قد قذفتها للعصىّ حواصب

قد انتشرت فى الجوّ منها ذوائب

تزاور منها فى الفضاء حبائب

فبينهما من قبل ذاك مناسب لأنهما فى الروض قبل تولّدا

بنات لأمّ قد حبين لروحها

دعاها الهوى من بعد كتم لبوحها

فأقلامها تهوى لخطّ بلوحها

فبالأمس كانت بعض أغصان دوحها فعادت إليها اليوم من بعد عوّدا

و يا ربّ حصن فى ذراها قد اعتلى

أنارت بروج الأفق فى مظهر العلا

بروج قصور شدتها متطوّلا

فانشأت برجا صاعدا متنزّلا يكون رسولا بينها متردّدا

و هل هى إلّا هالة حول بدرها

يصوغ لها حليّا يليق بنحرها

تطوّر أنواعا تشيد بفخرها

فحجل برجليها و شاح بخصرها و تاج بأعلى رأسها قد تنضّدا

أراد استراق السمع و هو ممنّع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۶۱

فقام بأذيال الدّجى يتلفّع

و أصغى لأخبار السما يتسمّع

فأتبعه منها ذوابل شرّع لتقذفه بالرّعب مثنى و موحدا

و ما هو إلّا قائم مدّ كفّه

ليسأل من ربّ السّماوات لطفه

لمولى تولّاه و أحكم رصفه

و كلّف أرباب البلاغة وصفه و أكرم منه القانت المتهجّدا

ملاقى ركب فى وفود النواسم

مقبّل ثغر للبروق البواسم

مختّم كفّ بالنجوم العواتم

مبلّغ قصد من حضور المواسم تجدّده مهما صنيع تجدّدا

و مضطرب فى الجوّ أثبت قامة

تقدّم يمشى فى الهواء كرامة

تطلّع فى غصن الرشاء كمامة

و تحسبه تحت الغمام غمامة يسيل على أعطافها عرق النّدى

هوى و استوى فى حالة و تقلّبا

كخاطف برق قد تألّق خلّبا

و تحسبه قد دار فى الأفق كوكبا

و مهما مشى و استوقف العقل معجبا تقلّب فيه العين لحظا مردّدا

لقد رام يرقى للسماء بسلّم

فيمشى على خطّ به متوهّم

أجل فى الذى يبديه فكر توسّم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۶۲

ترى طائرا قد حلّ صورة آدمى و جنّا بمهواة الفضاء تمرّدا

و منتسب للخال سمّوه ملجما

له حكمات حكمها فاه ألجما

تخالف جنسا والداه إذا انتمى

كما جنسه أيضا تخالف عنهما عجبت له إذ لم يلد و تولّدا

ثلاثتها فى الذكر جاءت مبينة

من اللاء سمّاها لنا اللّه زينة

و أنزل فيها آية مستبينة

و أودع فيها للجهول سكينة و آلاءه فيها على الخلق بدّدا

كسوه من الوشى اليمانىّ هودجا

يمدّ على ما فوقه الظّلّ سجسجا

و كم صورة تجلى به تبهر الحجا

و جزل وقود ناره تصدع الدجى و قلب حسود غاظ مذكيه موقدا

و ما هى إلّا مظهر لجهاده

أرتنا بها الأفراح فضل اجتهاده

ملاعبها هزّت قدود صعاده

و أذكرت الأبطال يوم طراده فما ارتبت فيه اليوم صدّقته غدا

ألا جدّد الرحمن صنعا حضرته

و دوح الأمانى فى ذراه هصرته

بقصر طويل الوصف فيه اختصرته

يقيّد طرف الطرف مهما نظرته «و من وجد الإحسان قيدا تقيّدا»

دعوت له الأشراف من كلّ بلدة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۶۳

فجاؤوا بآمال لهم مستجدّة

و خصّوا بألطاف لديه معدّة

أياد بفيّاض الندى مستمدّة فكلّهم من فضله قد تزوّدا

و جاءتك من آل النبىّ عصابة

لها فى مرامى المكرمات إصابة

أحبّتك حبّا ليس فيه استرابة

و لبّت دواعى الفوز منها إجابة و ناداهم التخصيص فابتدروا النّدا

أجازوا إليك البحر و البحر يزخر

لبحر سماح مدّه ليس يجزر

فروّاهم من عذب جودك كوثر

و واليت من نعماك ما ليس يحصر و عظمتهم ترجو النبيّ محمدا

عليه صلاة اللّه ثم سلامه

به طاب من هذا النظام اختتامه

و جاء بحمد اللّه حلوا كلامه

يعزّ على أهل البيان مرامه و تمسى له زهر الكواكب حسّدا

أبثّ به حادى الركاب مشرّقا

حديث جهاد للنفوس مشوّقا

رميت به من بالعراق مفوّقا

و أرسلت منه بالبديع مطوّقا حماما على دوح الثناء مغرّدا

ركضت به خيل البيان إلى مدى

فأحرزت خصل السبق فى حلبة الهدى

و نظمت من نظم الدرارى مقلّدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۶۴

و طوّقت جيد الفخر عقدا منضّدا و قمت به بين السماطين منشدا

نسقت من الإحسان فيه فرائدا

و أرسلت فى روض المحاسن رائدا

و قلّدت عطف الملك منه قلائدا

تعوّدت فيه للقبول عوائدا فلا زلت للفعل الجميل معوّدا

و لا زلت للصنع الجميل مجدّدا

و لا زلت للفخر العظيم مخلّدا

و عمّرت عمرا لا يزال مجدّدا

و عمّرت بالأبناء أوحد أوحدا و قرّت بهم عيناك ما سائق حدا

[قصيدة لابن زمرک يهنئ فيها بالعيد]

و قال فى عيد: [الكامل]

بشرى كما وضح الزمان و أجمل يعشى سناها كلّ من يتهلّل

أبدى لها وجه النهار طلاقة و افترّ عن ثغر الأقاح مقبّل

و منابر الإسلام يا ملك الورى بحلاك أو بحليّها تتكلّل

تجلو لنا الأكوان منك محاسنا تروى على مرّ الزمان و تنقل

فالشمس تأخذ من جبينك نورها و البشر منك بوجهها يتهلّل

و الروض ينفح من ثنائك طيبه و الورق فيه بالممادح تهدل

و البرق سيف من سيوفك منتضى و السّحب تهمى من يديك و تهمل

يا أيها الملك الذى أوصافه درّ على جيد الزمان يفصّل

اللّه أعطاك التى لا فوقها و حباك بالفضل الذى لا يجهل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۶۵

وجه كما حسر الصباح نقابه لضيائه تعشو البدور الكمّل

تلقاه فى يوم السماحة و الوغى و البشر فى جنباته يتهلّل

كفّ أبت أن لا تكفّ عن الندى أبدا فإن ضنّ الحيا تسترسل

و شمائل كالروض باكره الحيا و سرت بريّاه الصّبا و الشّمال

خلق ابن نصر فى الجمال كخلقه ما بعدها من غاية تتكمل

نور على نور بأبهى منظر فى حسنه لمؤمّل ما يأمل

فاق الملوك بسيفه و بسيبه فبعدله و بفضله يتمثّل

و إذا تطاول للعميد عميدهم فله عليه تطاول و تطوّل

يا آية اللّه التى أنوارها يهدى بها قصد الرشاد الضّلل

قل للذى التبست معالم رشده هيهات قد وضح الطريق الأمثل

قد ناصح الإسلام خير خليفة و حمى عزيز الملك أغلب أشمل

فلقد ظهرت من الكمال بمستوى ما بعده لذوى الخلافة مأمل

و عناية اللّه اشتملت رداءها و علقت منها عروة لا تفصل

فالجود إلّا من يديك مقتّر و الغيث إلّا من نداك مبخّل

و العمر إلّا تحت ظلّك ضائع و العيش إلّا فى جنابك ممحل

حيث الجهاد غدا علت راياته حيث المغانم للعفاة تنفّل

حيث القباب الحمر ترفع للقرى قد عام فى أرجائهنّ المندل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۶۶

يا حجّة اللّه التى برهانها عزّ المحقّ به و ذلّ المبطل

قل للذى ناواك يرقب نومه فوراءه ملك يقول و يفعل

و اللّه جلّ جلاله إن أمهلت أحكامه مستدرجا لا تهمل

يا ناصر الإسلام و هو فريسة أسد الفلا من حولها تتسلّل

يا فخر أندلس و عصمة أهلها لك فيهم النعمى التى لا تجهل

لا يهمل اللّه الذين رعيتهم فلأنت أكفى و العناية أكفل

لا يبعد النصر العزيز فإنه آوى إليك و أنت نعم الموئل

لو لا نداك لها لما نفع الندى و لجفّ من ورد الصنائع منهل

لولاك كان الدين يغمط حقّه و لكان دين النصر فيه يمطل

لكن جنيت الفتح من شجر القنا و جنى الفتوح لمن عداك مؤمّل

فلطالما استفتحت كلّ ممنّع من دونه باب المطامع مقفل

و متى نزلت بمعقل متأشّب فالعصم من شعفاته تستنزل

و إذا غزوت فإنّ سعدك ضامن أن لا تخيب و أنّ قصدك يكمل

فمن السعود أمام جيشك موكب و من الملائك دون جندك جحفل

و كتيبة أردفتها بكتيبة و الخيل تمرح فى الحديد و ترفل

من كلّ منحفز كلمعة بارق بالبدر يسرج و الأهلّة ينعل

أوفى بهاد كالظليم و خلفه كفل كما ماج الكثيب الأهيل

حيّ إذا ملك الكمىّ عنانه يهوى كما يهوى بجوّ أجدل

حملت أسود كريهة يوم الوغى ما عابها إلّا الوشيج الذّبّل

لبسوا الدروع غدائرا مصقولة و السّمر قضب فوقها تتهدّل

من كلّ معتدل القوام مثقّف لكنه دون الضريبة يعسل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۶۷

أذكيت فيه شعلة من نصله يهدى بها إن ضلّ عنه المقتل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۹؛ ص۶۷

و لربّ لمّاع الصقال مشهّر ماض، و لكن فعله مستقبل

رقّت مضاربه وراق فرنده فالحسن فيه مجمل و مفصّل

فإذا الحروب تسعّرت أجزالها ينساب فى يمناك منها جدول

و إذا دجا ليل القتام رأيته و كأنه فيه ذبال مشعل

فاعجب لها من جذوة لا تنطفى فى أبحر زخرت و هنّ الأنمل

هى سنّة أحييتها و فريضة أدّيتها قرباتها تتقبّل

فإذا الملوك تفاخرت بجدودها فلأنت أحفى بالجهاد و أحفل

يا ابن الذين جمالهم و نوالهم شمس الضحى و العارض المتهلّل

يا ابن الإمام ابن الإمام ابن الإما م ابن الإمام، و قدرها لا يجهل

آباؤك الأنصار تلك شعارهم فلحيّهم آوى النبىّ المرسل

فهم الألى نصروا الهدى بعزائم مصقولة و بصائر لا تخذل

ما ذا يحبّر شاعر فى مدحهم و بفضلهم أثنى الكتاب المنزل

مولاى لا أحصى مآثرك التى بحديثها تنضى المطىّ الذّلّل

و إذا الحقائق ليس يدرك كنهها سيّان فيها مكثر و مقلّل

فإليك من شوّال غرّة وجهه أهداكها يوم أغرّ محجّل

عذراء راق العيد رونق حسنها فغدا بنظم حليّها يتجمّل

رضعت لبان العلم فى حجر النّهى فوفت لها منه ضروع حفّل

سلك البيان بها سبيل إجادة لو لا صفاتك كان عنها يعدل

جاءت تهنى العيد أيمن قادم وافى بشهر صيامه يتوسّل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۶۸

و طوى الشهور مراحلا معدودة كيما يرى بفناء جودك ينزل

و أتى و قد شفّ النحول هلاله و لشوقه للقاء وجهك ينحل

عقدت بمرقبه العيون مسرّة فمكبّر لطلوعه و مهلّل

فاسلم لألف مثله فى غبطة ظلّ المنى من فوقه يتهدّل

فإذا بقيت لنا فكلّ سعادة فى الدين و الدنيا بها تتكفّل

[قصيدة له فى التهنئة أيضا]

و قال ابن الأحمر: و من جياد أناشيده المتميّزة بالسبقية، و بارقات تهانيه فى المواسم العقيقية، قوله يهنّئه- رضوان اللّه تعالى عليه!- بطلوع مولانا الوالد قدّس اللّه تعالى روحه:

[الكامل]

طلع الهلال و أفقه متهلّل فمكبّر لطلوعه و مهلّل

أوفى على وجه الصباح بغرّة فغدا الصباح بنورها يتجمّل

شمس الخلافة قد أمدّت نوره و بسعدها يرجو التمام و يكمل

للّه منه هلال سعد طالع لضيائه تعشو البدور الكمّل

و ألحت يا شمس الهداية كوكبا يعشى سناه كلّ من يتأمّل

و التاج تاج البدر فى أفق العلا ما زال بالزّهر النجوم يكلّل

و لئن حوى كلّ الجمال فإنه بالشّهب أبهى ما يكون و أجمل

أطلعت يا بدر السماح هلاله و الملك أفق و الخلافة منزل

يبدو بهالات السروج و إنه من نور وجهك فى العلا يستكمل

قلّدت عطف الملك منه صارما بغنائه و مضائه يتمثّل

حلّيته بحلى الكمال و جوهر ال خلق النفيس و كلّ خلق يجمل

يغزو أمامك و السعود أمامه و ملائك السبع العلا تتنزّل

من مبلغ الأنصار منه بشأنه غرّ البشائر بعدها تسترسل

أحيا جهادهم و جدّد فخرهم بعد المئين فملكهم يتأثّل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۶۹

فبه إلى الأجر الجزيل توصّلوا و بهم إلى ربّ السما يتوسّل

من مبلغ الأذواء من يمن و هم قد توّجوا و تملّكوا و تقيّلوا

أنّ الخلافة من بنيهم أطلعت قمرا به سعد الخليفة يكمل

من مبلغ قحطان آساد الشرى ما غابها إلّا الوشيج الذّبّل

أنّ الخلافة و هو شبل ليوثهم قد حاط منها الدين ليث مشبل

يهنى بنى الأنصار أنّ إمامهم قد بلّغته سعوده ما يأمل

يهنى البنود فإنها ستظلّه و جناح جبريل الأمين يظلّل

يهنى الجياد الصافنات فإنها بفتوحه تحت الفوارس تهدل

يهنى المذاكى و العوالى و الظّبا فبها إلى نيل المنى يتوصّل

يهنى المعالى و المفاخر أنه فى مرتقى أوج العلا يتوقّل

سبقت مقدّمة الفتوح قدومه و أتاك و هو الوادع المتمهّل

و بدت نجوم السعد قبل طلوعه تجلو المطامع قبله و تؤثّل

و روت أحاديث الفتوح غرائبا و النصر يملى و البشائر تنقل

ألقت إليك به السعود زمامها فالسعد يمضى ما تقول و تفعل

فالفتح بين معجّل و مؤجّل ينسيك ماضيه الذى يستقبل

أو ليس فى شأن المشير دلالة أنّ المقاصد من طلابك تكمل

ناداهم داعى الضلال فأقبلوا و دعاهم داعى المنون فجدّلوا

عصوا الرسول إباية و تحكّمت فيهم سيوفك بعدها فاستمثلوا

كانوا جبالا قد علت هضباتها نسفتهم ريح الجلاد فزلزلوا

كانوا بحارا من حديد زاخر أذكتهم نار الوغى فتبسّلوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۷۰

ركّبت أرجلها الأداهم كلّما يتحرّكون إلى قيام تصهل

كان الحديد لباسهم و شعارهم و اليوم لم تلبسه إلّا الأرجل

اللّه أعطاك التى لا فوقها فتحا به دين الهدى يتأثّل

جدّدت للأنصار حلى جهادها فالدين و الدنيا به تتجمّل

من يتحف البيت العتيق و زمزما و الوفد وفد اللّه فيه ينزل

متسابقين إلى مثابة رحمة من كلّ ما حدب إليه تنسل

هيما كأفواج القطا قد ساقها ظمأ شديد و المطاف المنهل

من كلّ مرفوع الأكفّ ضراعة و القلب يخفق و المدامع تهمل

حتى إذا روت الحديث مسلسلا بيض الصوارم و الرماح العسّل

من فتحك الأسنى عن الجيش الذى بثباته أهل الوغى تتمثّل

أهدتهم السّراء نصرة دينهم و استبشروا بحديثها و تهلّلوا

و تناقلوا عنك الحديث مسرّة بسماعه و اهتزّ ذاك المحفل

و دعوا بنصرك و هو أعظم مفخرا إنّ الحجيج بنصر ملكك يحفل

فاهنأ بملكك و اعتمد شكرا به لطف الإله و صنعه تتخوّل

شرّفت منه باسم والدك الرضا يحيا به منه الكريم المفضل

أبديت من حسن الصنيع عجائبا تروى على مرّ الزمان و تنقل

خفقت به أعلامك الحمر التى بخفوقها النصر العزيز موكّل

هدرت طبول العزّ تحت ظلالها عنوان فتح إثرها يستعجل

و دعوت أشراف البلاد و كلّهم يثنى الجميل و صنع جودك أجمل

وردوا ورود الهيم أجهدها الظما فصفا لهم من ورد كفّك منهل

و أثرت فيه للطراد فوارسا مثل الشموس وجوههم تتهلّل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۷۱

من كلّ وضّاح الجبين كأنه نجم و جنح النّقع ليل مسبل

يرد الطراد على أغرّ محجّل فى سرجه بطل أغرّ محجّل

قد عوّدوا قنص الكماة كأنما عقبانها ينقضّ منها أجدل

يستتبعون هوادجا موشيّة من كلّ بدع فوق ما يتخيّل

قد صوّرت منها غرائب جمّة تنسى عقول الناظرين و تذهل

و تضمّنت جزل الوقود حمولها و النصر فى التحقيق ما هى تحمل

و العاديات إذا تلت فرسانها آى القتال صفوفها تترتّل

للّه خيلك؛ إنها لسوابح بحر القتام و موجه متهيّل

من كلّ برق بالثّريّا ملجم بالبدر يسرج و الأهلّة ينعل

أوفى بهاد كالظليم و خلفه كفل كما لاح الكثيب الأهيل

هنّ البوارق غير أنّ جيادها عن سبق خيلك يا مؤيّد تنكل

من أشهب كالصبح يعلو سرجه صبح به نجم الضلالة يأفل

أو أدهم كالليل قلّد شهبه خاض الصباح فأثبتته الأرجل

أو أشقر سال النضار بعطفه و كساه صبغة بهجة لا تنصل

أو أحمر كالجمر أضمر بأسه بالركض فى يوم الحفيظة يشعل

كالخمر أترع كأسها لندامها و بها حبابة غرّة تتسيّل

أو أصفر لبس العشىّ ملاءة و بذيله لليل ذيل مسبل

أجملت فى هذا الصنيع عوائدا الجود فيها مجمل و مفصّل

أنشأت فيها من نداك غمائما بالفضل تنشأ و السماحة تهمل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۷۲

فجّرت من كفّيك عشرة أبحر تزجى سحاب الجود و هى الأنمل

من قاس كفّك و الغمام فإنه جهل القياس و مثلها لا يجهل

تسخو الغمام و وجهها متجهّم و الوجه منه مع النّدى يتهلّل

و السّحب تسمح بالمياه وجوده ذهب به أهل الغنى تتموّل

من قاس بالشمس المنيرة وجهه ألفيته فى حكمه لا يعدل

من أين للشمس المنيرة منطق ببيانه درّ الكلام يفصّل

من أين للشمس المنيرة راحة تسخو إذا بخل الزمان الممحل

من قاس بالبدر المنير كماله فالبدر ينقص و الخليفة يكمل

من أين للبدر المنير شمائل تسرى بريّاها الصبا و الشمال

من أين للبدر المنير مناقب بجهادها تنضى المطىّ الذّلّل

يا من إذا نفحت نواسم حمده فالمسك يعبق طيبه و المندل

يا من إذا لمحت محاسن وجهه تعشو العيون و يبهر المتأمّل

يا من إذا تليت مفاخر قومه آى الكتاب بذكرها تتنزّل

كفل الخلافة منك يا ملك العلا و اللّه جلّ جلاله بك أكفل

مأمونها و أمينها و رشيدها منصورها مهديّها المتوكّل

حسب الخلافة أن تكون وليّها و مجيرها من كلّ من يتخيّل

حسب الزمان بأن تكون إمامه فله بذلك عزّة لا تهمل

حسب الملوك بأن تكون عميدها ترجو الندى من راحتيك و تكمل

حسب المعالى أن تكون إمامها فعليك أطناب المفاخر تسدل

يا حجّة اللّه التى برهانها عزّ المحقّ به و ذلّ المبطل

أنت الإمام ابن الإمام ابن الإما م ابن الإمام و فخرها لا يعدل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۷۳

علّمت حتى لم تدع من جاهل أعطيت حتى لم تدع من يسأل

و عناية اللّه اشتملت رداءها و علقت منها عروة لا تفصل

و منها:

أخذت قلوب الكافرين مهابة فعقولهم من خوفها لا تعقل

حسبوا البروق صوارما مسلولة أرواحهم من بأسها تتسلّل

و ترى النجوم مناصلا مرهوبة فيفرّ منها الخائف المتنصّل

يا ابن الألى إجمالهم و جمالهم شمس الضحى و العارض المتهلّل

مولاى لا أحصى مآثرك التى بجهادها يتوصّل المتوسّل

أصبحت فى ظلّ امتداحك ساجعا طلّ المنى من فوقه يتهدّل

طوّقته طوق الحمائم أنعما فغدا بشكرك فى المحافل يهدل

فإليك من صون العقول عقيلة أهداكها صنع أغرّ محجّل

عذراء راق الصنع رونق حسنها فغدا بنظم حليّها يتكلّل

خيرتها بين المنى فوجدتها أقصى مناها أنها تتقبّل

لا زلت شمسا فى سماء خلافة و هلالك الأسمى يتمّ و يكمل

[قصيدة له يصف فيها نزهة لابن الأحمر]

قال: و من رقيق منازعه فى بعض نزه مولانا رضوان اللّه عليه بالقصر السلطانى فى شنيل قوله: [الكامل]

نفسى الفداء لشادن مهما خطر فالقلب من سهم الجفون على خطر

فضح الغزالة و الأقاحة و القنا مهما تثنّى أو تبسّم أو نظر

عجبا لليل ذوائب من شعره و الوجه يسفر عن صباح قد سفر

عجبا لعقد الثغر منه منظّما و العقد من دمعى عليه قد انتثر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۷۴

ما رمت أن أجنى الأقاح بثغره إلّا و قد سلّ السيوف من الحور

لم أنسه ليل ارتقاب هلاله و القلب من شكّ الظهور على غرر

بتنا نراقبه بأوّل ليلة فإذا به قد لاح من نصف الشّهر

طالعته فى روضة كخلاله و الطّيب من هذى و تلك قد اشتهر

و كلاهما يبدى محاسن جمّة ملء التنسّم و المسامع و البصر

و الكأس تطلع شمسها فى خدّه فتكاد تعشى بالأشعّة و النظر

نورية كجبينه، و كلاهما يجلو ظلام الليل بالوجه الأغرّ

هى نسخة للشيخ فيها نسبة ما إن يزالا يرعشان من الكبر

أفرغت فى جسم الزجاجة روحها فرأيت روح الأنس منها قد بهر

لا تسق غير الروض فضلة كأسها فالغصن فى ذيل الأزاهر قد عثر

ما هبّ خفّاق النسيم مع السّحر إلّا و قد شاق النفوس و قد سحر

ناجى القلوب الخافقات لمثله و وشى بما تخفى الكمام من الزهر

و روى عن الضحاك عن زهر الرّبا ما أسند الزهرىّ عنه عن مطر

و تحمّلت عنه حديث صحيحه رسل النسيم و صدّق الخبر الخبر

يا قصر شينيل و ربعك آهل و الروض منك على الجمال قد اقتصر

للّه بحركِ و الصّبا قد سرّدت منه دروعا تحت أعلام الشّجر

و الآس حفّ عذاره من حوله عن كل من يهوى العذار قد اعتذر

قبّل بثغر الزهر كفّ خليفة يغنيك صوب الجود منه عن المطر

و افرش خدود الورد تحت نعاله و اجعل بها لون المضاعف عن خفر

و انظم غناء الطير فيه مدائحا و انثر من الزهر الدراهم و الدّرر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۷۵

المنتقى من جوهر الشرف الذى فى مدحه قد أنزلت آى السّور

و المجتبى من عنصر النور الذى فى مطلع الهدى المقدّس قد ظهر

ذو سطوة مهما كفى، ذو رحمة مهما عفا، ذو عفّة مهما قدر

كم سائل للدهر أقسم قائلا: و اللّه ما أيامه إلّا غرر

مولاى سعدك كالمهنّد فى الوغى لم يبق من رسم الضلال و لم يذر

مولاى وجهك و الصباح تشابها و كلاهما فى الخافقين قد اشتهر

إنّ الملوك كواكب أخفيتها و طلعت وحدك فى مظاهرها قمر

فى كلّ يوم من زمانك موسم فى طيّه للخلق أعياد كبر

فاستقبل الأيام يندى روضها و يرفّ و النصر العزيز له ثمر

قد ذهّبت منها العشايا ضعف ما قد فضّضت منها المحاسن فى السّحر

يا ابن الذين إذا تعدّ خلالهم نفد الحساب و أعجزت منها القدر

إن أوردوا هيم السيوف غدائرا مصقولة فلطالما حمدوا الصدر

سائل ببدر عنهم بدر الهدى فبهم على حزب الضلال قد انتصر
و اسأل مواقفهم بكلّ مشهّر واقر المغازى فى الصحيح و فى السير
تجد الثناء ببأسهم و بجودهم فى مصحف الوحى المنزّل مستطر
فبمثل هديك فلتنر شمس الضحى و بمثل قومك فليفاخر من فخر
ما ذا أقول و كلّ وصف معجز و القول فيك مع الإطالة مختصر
تلك المناقب كالثواقب فى العلا من رامها بالحصر أدركه الحصر
إن غاب عبدك عن حماك فإنه بالقلب فى تلك المشاهد قد حضر
فاذكر فإنّ الذكر منك سعادة و بها على كل الأنام قد افتخر
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۷۶
و رضاك عنه غاية ما بعدها إلّا رضا اللّه الذى ابتدع البشر
فاشكر صنيع اللّه فيك فإنه سبحانه ضمن المزيد لمن شكر
و عليك من روح الإله تحيّة تهفو إليك مع الأصائل و البكر

[مقطوعات له فى الشكر]

ثم قال: و فى أغراضه الوقتية- استرسالا مع الطبع البديهى فى الشكر عن ضروب من التحف التى يقتضيها التحفّى السلطانى بأولياء خدمته- نبذ متعدّدة فيما يظهر فيها، فمنها قوله:

[الكامل]

يا خير من ملك الملوك بجوده و بفضله قد أشبه الأملاكا
و اللّه ما عرف الزمان و أهله أمنا و يمنا دائما لولاكا
وافيت أهلى بالرياض عشيّة فى روض جاهك تحت ظل ذراكا
فوجدته قد طلّه صوب الندى بسحائب تنهلّ من يمناكا
و سفائن مشحونة ألقى بها بحر السماح يجيش من نعماكا
رطب من الطلع النضيد كأنها قد نظّمت من حسنها أسلاكا
من كلّ ما كان النبىّ يحبّها و أحبّها الأنصار من أولاكا
و بدائع التّحف التى قد أطلعت مثل البدور أنارت الأحلاكا
نطف من النور المبين تجسّمت حتى حسبنا أنهنّ هداكا
يحلو على الأفواه طيب مذاقها لو لا التجسّد خلتهنّ ثناكا
طافت بها النّشأ الصغار كأنها سرب القطا لمّا وردن نداكا
نجواهم مهما سمعت كلامهم و نداؤهم: مولاى، أو مولاكا
بلّغت فى الأبناء عبدك سؤله لا زلت تبلغ فى بنيك مناكا
يتدارسون من الدعاء صحائفا كيما يطيل اللّه فى بقياكا
فبقيت شمسا فى سماء خلافة و هم البدور أمدّهنّ سناكا
و منها و قد أهداه نعمة اللّه أطباقا من حبّ الملوك: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۷۷

كتب الإله على العباد محبّة لكك كان فرض كتابها موقوتا

و أنا الذى شرّفته من بينهم حتى جعلت له المحبّة قوتا

ما زلت تتحفه بكلّ ذخيرة حتى لقد أتحفته الياقوتا

و إلى الملوك قد اعتزى من عزّه فغدا له يا قوتها ممقوتا

و منها فى مثل ذلك: [مجزوء الكامل]

يا خير من ملك الملوك أهديتنى حبّ الملوك

فكأنّما ياقوتها نظمت لنا نظم السلوك

إنّ الملوك إذا لجوا فغياثهم أن أمّلوك

و كذا العفاة إذا شكوا فغناهم أن يسألوك

فاللّه يقبل من دعا لعلاك من أهل السلوك

لا زلت تطلع غرّة كالشمس فى وقت الدّلوك

و منها، و قد أهداه صيدا ممّا صاده أولاده: [الكامل]

يا خير من ورث السماح عن الألى نصروا الألى و تبوّءوا الإيمانا

فى كلّ يوم منك تحفة منعم والى الجميل و أجزل الإحسانا

قد أذكرت دار النعيم عبيده و تضمّنت من فضله رضوانا

تهدى موالىّ الذين تفرّعوا عن دوح فخرك فى العلا أغصانا

لجلالك الأعلى قنيصا أتعبوا فى صيده الأرواح و الأبدانا

فتخصّنى منه بأوفر قسمة فسحت لعبدك فى الرضا ميدانا

للّه من مولى كريم بالذى تهدى الموالى يتحف العبدانا

تدعو بنىّ إلى الغنى بربّه يا ربّنا أغن الذى أغنانا

و عليك من قدس الإله تحيّة تهديك منه الرّوح و الريحانا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۷۸

و منها، و قد أهداه أصنافا من الفواكه: [الكامل]

يا من له الوجه الجميل إذا بدا فاقت محاسنه البدور كمالا

و المنتقى من جوهر الفخر الذى فات الخلائف عزّة و جلالا

ما أبصرت عيناى مثل هديّة أبدت لنا صنع الإله تعالى

فيها من التفاح كلّ عجيبة تذكى بريّاها صبا و شمالا

يهدى لنا نهد الحبيب و خدّه و ترى من الورد الجنىّ مثالا

و بها من الأترجّ شمس أطلعت من كلّ شطر للعيون هلالا

و يحفّها ورق يروق كأنه ورق النّضار و قد أجاد نبالا

لون العشيّة ذهّبت صفحاتها رقّت و راقت بهجة و جمالا

و بها من النّقل الشهىّ مذكّر عهدا تولّى ليته يتوالى

للّه منها خضرة من حضرة تغنى العفاة و تحسب الآمالا

أذكرتنى العهد القديم و معهدا كانت شموس الراح فيه تلالا

فأدرت تجديد العهود و إنما كتب المشيب على عذارى لالا

فأدرت من ذكراك كأس مدامة و شربت من حبى لها جريالا

فبقيت شمسا فى سماء خلافة لا يستطيع لها الزمان زوالا

و منها يوم عاشوراء: [الكامل]

يا أيها المولى الذى بركاته رفعت لواء للندى منشورا

لك راحة تزجى الغمام بأنمل فجّرت منها بالنوال بحورا

و اليوم موسم قربة و عبادة و غدا، ظفرت بأجره، عاشورا

راعيت فيه سنّة نبويّة تروى الثقات حديثه المشهورا

لا زلت عامك كلّه فى غبطة لقّيت منها نضرة و سرورا

و منها فى بعض قطعة: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۷۹

و اليت ما أوليت يا بحر الندى و وحقّ جودك ما رأيت كهذه

فإذا يهزّ لها اللسان حسامه فصفات فخرك قد قضت بنفاذه

علّمت فرسان الكلام نظامها كتعلّم التلميذ من أستاذه

و البحر تمتار السحائب ماءه فتجوده من غيثها برذاذه

و منها، و قد أهداه باكورا: [الكامل]

يا وارث الأنصار و هى مزيّة بفخارها أثنى الكتاب المنزل

أهديتنى الباكور و هى بشارة ببواكر الفتح الذى يستقبل

و ولادة لهلال تمّ طالع وجه الزمان بوجهه يتهلّل

هو أوّل الأنوار فى أفق الهدى و ترى الأهلّة بعده تسترسل

مولاى صدق الفال قد جرّبته من لفظ عبدك، و العواقب أجمل

و منها فى جفنة: [الطويل]

طعامك من دار النعيم بعثته فشرّفته من حيث أدرى و لا أدرى

بهضبة نعمى قد سمونا لأوجها فصدنا بأعلاها الشهىّ من الطير

و قوراء قد درنا بهالة بدرها كما دارت الزّهر النجوم على البدر

و قد حملت فوق الرءوس لأنها هديّة مولى حلّ فى مفرق الفخر

فما شئت من طعم زكىّ مهنّإ و ما شئت من عرف ذكىّ و من نشر

فلو أنها قد قدمت لخليفة لأعظمها قدرا و بالغ فى الشكر

و كم لك من نعمى علىّ عميمة يقلّ لأدناها الجميل من الذكر

فلا زلت يا مولى الملوك مبلّغا أمانىّ ترجوها إلى سالف الدهر

و منها شكرا عن كتاب: [مجزوء الرجز]

مولاى يوم الجمعه سعوده مجتمعه

فانعم صباحا و اغتنم أوقاته المجتمعه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۸۰

و ابشر بصنع عاجل أعلامه مرتفعه

و انتظر الفتح الذى يأتيك بالنصر معه

و بيضه و سمره إلى العداة مشرعه

و اللطف مرجوّ فرد بفضل ربى مشرعه

فاتحتنى شرّفتنى برقعة مرفّعه

بل روضة ممطورة أزهارها منوّعه

حديقة قد جدتها بصوب جود مترعه

و راية منشورة و آية مستبدعه

كم حكم لطيفة فى طيّها مستودعه

عقيلة صورتها من الجمال مبدعه

سقيتنى من فضلها بفضل كاس مترعه

قدم و أملاك الورى على علاك مجمعه

و منها شكرا على خلعة: [الكامل]

يا بدر تمّ فى سماء خلافة حفّت نجوم السّعد هالة قصره

ألبست عبدك من ثيابك ملبسا قد قصّرت عنه مدارك شكره

و رضاك عنه خير ما ألبسته فلقد أشاد بجاهه و ببرّه

ألبستنى، أركبتنى، شرّفتنى أهديتنى ما لا أقوم بحصره

نظرى لوجهك و هو أجمل نيّر يزرى على شمس الزمان و بدره

أعلى و أعظم منّة لا سيما و أنا المنعّم فى الحضور ببشره

لا زلت مولى للملوك مؤمّلا و حلاك للإسلام مفخر دهره

و منها، و قد خلع- رضوان اللّه تعالى عليه!- على رسول من أرساله: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۸۱

أبحر سماح مدّ عشرة أبحر تفيض غمام الجود و هى الأنامل

بكفّك غيث للبلاد و أهلها يروّض محل الأرض و العام ماحل

لك الخير إن أصبحت بحر سماحة يعمّ نداه فالمواهب ساحل

خلعت على هذا الرسول ملابسا بها تتسنّى فى علاك المآمل

و بلّغته آماله كيف شاءها فبلّغت يا مولاى ما أنت آمل

[مقطوعات فى معان مختلفة]

و منها، و قد مرض بعض أبنائه رحمة اللّه تعالى على الجميع، قوله سائلا عن حاله:

[الطويل]

أسائل بدر التمّ كيف هلاله و أدعو له الرحمن جلّ جلاله

و أسأله تعجيل راحته التى وسيلتنا فيها النبىّ و آله

ستبلغ فيه ما تؤمّل من منى و يرضيك يا بدر الكمال كماله

و فى مثله: [الطويل]

أقول لبدر التّمّ كيف هلالكا نعمت صباحا بالسعود و آلكا

و بلّغت فى النجل الكريم سعادة تقرّ بها عينا و ينعم بالكا

و خصّصت بالبشرى من اللّه ربّنا كما عمّ أقطار البلاد نوالكا

و من التورية باسم قائد ولّاه على جماعة من الجند: [الكامل]

يا أيها المولى الذى أيامه تهمى بسحب الجود من آلائه

أبشر لجيشك بالسعادة كلّما يغزو و نصر اللّه تحت لوائه

و أنشده فى ملبس اتّخذه: [الطويل]

أمولاى يا ابن السابقين إلى العلا و من نصروا الدين الحنيفىّ أولا

غنيت بنور اللّه عن كلّ زينة و ألبست من رضوانه أشرف الحلى

و قارك زاد الملك عزّا و هيبة و سوّغه من رحمة اللّه منهلا

و يا شمس هدى فى سماء خلافة و أبناؤه الزّهر المنيرة تجتلى

تبارك من أبداك فى كلّ مظهر جميلا جليلا مستعاذا مؤمّلا

فتخجل منك الشمس شمس هداية و يحسد منك البدر بدرا مكمّلا

إذا أنت ألبست الزمان و أهله ملابس عزّ ليس يدركها البلى

و طوّقت أجياد الملوك أياديا و توّجتهم بالفخر تاجا مكلّلا

فما شئت فالبس فى المشاهد كلها تبارك ما أبهى و أسنى و أجملا

ألا كلّ من صلّى و ضحّى و من دعا و مدّ يديه ضارعا متوسّلا

وجودك شرط فى حصول قبوله وجودك أثرى كفّه فتنفّلا

و قال برسم ما يرسم على ثوب فى بعض هدايا مولانا رحمه اللّه تعالى للسلطان أبى العباس: [مجزوء الكامل]

أهدى أبا العباس ملك النّدى و الباس

ثوب السماء لأنه بدر بدا للناس

فلق الصباح بوجهه عوّذته بالناس

يكسو إماما لم يزل بحلى المحامد كاسى

فيا له من مرتد ثوب التّقى لبّاس

أذياله من حمده مسكيّة الأنفاس

و بطرزه مدح زرى بالمدح فى القرطاس

إن كنت فى لون السما ء بنسبة و قياس

فلأنت يا بدر العلا شرّفتنى بلباس

أنا منشد (ما فى وقو فك ساعة من باس)

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۸۳

لترى رياضا أطلعت زهرا على أجناس

أوراقها توريقها بقضيبها الميّاس

و من المديح مدامتى و من المحابر كاسى

فاللّه يمتع لابسى بالبشر و الإيناس

و قال فى مثل ذلك: [مجزوء الكامل]

إنّ الإمام محمدا أهدى الخليفة أحمدا

للباسه ثوبا، و قد لبس المحامد و ارتدى

و عمامة الشفق التى من فوقها شمس الهدى

يا حسنها إذ أرسلت من كفّه غيث النّدى

و كأنّ و شى رقومها بالبرق طرّز عسجدا

و بطرزه لون السما ء و وجهه قمر بدا

للّه منه نيّر حلّ المنازل أسعدا

مستنصر، أعلى له فوق المنازل أسعدا

ثم قال: و أنشده و هو على جواد أدهم: [الطويل]

تجلّى لنا المولى الإمام محمد على أدهم قد راق حسن أديمه

فأبصرت صبحا فوق ليل و قد حكى مقلّد ذاك الطّرف بعض نجومه

و كتب له مع هديّة زهر: [الطويل]

أمولاى تقبيلى ليمناك شاقنى و لا ينكر الظمآن شوقا إلى البحر

و لمّا رأيت الدهر ماطلنى بها و شوّقنى من حيث أدرى و لا أدرى

بعثت لكك الزّهر الجنىّ لعلّه يقبّلها عنى ثغور من الزهر

و كتب إليه أيضا متشوّقا: [الطويل]

كتبت و دمعى بلّل الركب قطره و أجرى به بين الخيام السواقيا

حنينا لمولى أتلف المال جوده و لكنه قد خلّد الفخر باقيا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۸۴

و ما عشت بعد البين إلّا لأننى أرجّى بفضل اللّه منه التلاقيا

و أنشده أيضا و هو بحال تألّم: [الطويل]

كأنى بلطف اللّه قد عمّ خلقه و عافى إمام المسلمين و قد شفى

و قاضى القضاء الحتم سجّل ختمه و خطّ على رسم الشفاء له «اكتفى»

و له فى مثل ذلك: [الطويل]

لك الخير يا مولاى أبشر بعصمة عقدت مع الأيام فى حفظها صلحا

و عافية فى صحّة مستجدّة تجدّد للدين السعادة و النّجحا

و وجه التهانى مشرق متهلّل و جوّ التهانى بعد ما غام قد أضحى

و فى مثل ذلك: [مجزوء الرمل]

يا إماما قد تخذنا ه من الدهر ملاذا

خطّ يمناك ينادى صحّ هذا صحّ هذا

و قال مهنّئا بالشفاء: [السريع]

الحمد للّه بلغنا المنى لمّا رأيناك، و زال العنا

و فزت بالأجر و كبت العدا و فزت بالعزّ و طيب الثنا

فالحمد للّه على ما به منّ علينا من ظهور السنا

و قال أيضا فى نحوه: [الطويل]

نعم قرّت العينان و انشرح الصدر و قد لاح من وجه الإمام لنا البدر

سرينا بليل التيه يكذب فجره فلمّا تجلّى فجره صدق الفجر

أغرّ المحيّا بالحياء مقنّع زهاه الكلام الحرّ و النسب الحرّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۸۵

إمام الهدى قد خصّه بخلافة إله له فى خلقه النهى و الأمر

و قال فى مثله، و قد ركب رحمه اللّه تعالى لمعاهد حضرته: [الطويل]

هنيئا هنيئا لا نفاد لعدّه و بشرى لدين اللّه إنجاز وعده

فقد لاح بدر التمّ فى أفق العلا و حلّ كما يرضى منازل سعده

و طاف أمير المسلمين محمد بحضرته العليا مبلّغ قصده

و لاحت بها الأنوار من بشر وجهه و فاح بها النّوّار من نشر حمده

و أبصرت الأبصار شمس هداية و أشرقت الأرجاء من زهر رفده

و لوّحت الأعلام فيها بنصره كما لوّح الصبح المنير ببنده

ستهدى لك الأيام كلّ مسرّة و يحيى به الرحمن آثار جدّه

فسلّ حسام السعد و اضرب به العدا و خلّ حسام الهند فى كنز غمده

فسيفك سيف اللّه مهما سللته يقيم حدود اللّه قائم حدّه

و قال، و قد عاد رحمه اللّه تعالى من بعض متوجّهاته الجهاديّة لجبل الشوار: [الطويل]

على الطائر الميمون و الطالع السّعد قدمت مع الصّنع الجميل على وعد

و قد عدت من جبل الشوار لتجتلى عقائل للفتح المبين بلا عدّ

و قال ممّا رسم فى طيقان الأبواب بالمبانى السعيدة التى ابتناها رحمه اللّه تعالى: [مجزوء الرمل]

أنا تاج كهلال أنا كرسىّ جمال

ينجلى الإبريق فيه كعروس ذى اختيال

جود مولانا ابن نصر قد حبانى بالكمال

و فى مثله: [مجزوء الرمل]

من رأى التاج الرفيعا قد حوى الشكر البديعا

تحسد الأفلاك منه قوسه السهل المنيعا

دمت ربعا للتهانى أنظم الشمل الجميعا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۸۶

و فيه: [مجزوء الرمل]

للغنى بالله قصر للتّهانى يصطفيه

فيه محراب صلاة يقف الإبريق فيه

تاليا سورة حسن و المعالى تقتفيه

و فيه: [مجزوء الرمل]

أىّ قوس ذى جمال سهمه سهم السعاده

ملك الإبريق فيه عوّد الإحسان عاده

ذو صلاة من صلات كلّها دأبا معاده

و قال فى المعنى ممّا كتب لعمّنا الأمير سعد رحمة اللّه تعالى عليه: [المجتث]

انظر لأفق جمال به الأباريق تصعد

حسن بديع حباه به الأمير الممجّد

فخر الإمارة سعد به الخليفة يسعد

و كيف لا و أبوه فخر الملوك محمد

عليه حلى رضاه فى كلّ يوم يجدّد

و قال فيه أيضا: [المجتث]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۹؛ ص۸۶

رفعت قوس سمائى يزهى بتاج الهلال

قد قلّدته نقوشى درّ الدرارى العوالى

ترى الأباريق فيه تهديك عذب الزلال

قد زان قصرى سعد بسعده المتوالى

فدام يعمر ربعى فى كلء مولى الموالى

و فى الغرض: [الخفيف]

ما ترى فى الرياض أشباهى يسحر العقل حسنى الزاهى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۸۷

زان روضى أميره سعد و هو نجل الغنىّ بالله

دام منه بمرتقى عزّ آمر بالسعود أو ناهى

و قال فى غرض الشكر عن مغطى صنهاجى أهداه إياه: [الطويل]

لمن قبّة حمراء مدّ نضارها تطابق منها أرضها و سماؤها

و ما أرضها إلّا خزائن رحمة و ما قد سما من فوق ذاك غطاؤها

و قد شبّه الرحمن خلقتنا به و حسبک فخرا بان منه اعتلاؤها

و معروشة الأرجاء معروشة بها صنوف من النعماء منها و طاؤها

ترى الطير فی أجوافها قد تصفّفت علی نعم عند الإله کفاؤها

و نسبتها صنهاجة غير أنها تقصّر عمّا قد حوی خلفاؤها

حبتنی بها دون العبيد خلافة علی اللّه فی يوم الجزاء جزاؤها

و منها: [الکامل]

ما للعوالم جمّعت فی قبّة قد شادها کرم الإمام محمد

ما إن رأيت و لا سمعت کطائر عن ثوب موشیّ الرياش مجرّد

إن لم تکن تلک الطيور تغرّدت فلشکر هذا العبد سجع مغرّد

صفّت عليها للفواکه کلّ ما قد عاهدته بدوحها المتعوّد

لو شاهدت صنهاجة أوضاعه دانت له أملاکها بتعبّد

عوّدتنی الصنع الجميل تفضّلا لا زلت خير معوّذ و معوّد

و بسورة الأنعام کم من آية فيها لقار بالنوال مجوّد

و قال تذييلا لبيتی ابن المعتز: [الطويل]

سقتنی فی ليل شبيه بشعرها شبيهة خدّيها بغير رقيب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۸۸

«فأمسيت فی ليلين للشّعر و الدّجی و شمسين من خمر و خدّ حبيب»

إلی أن بدا الصبح المبين کأنه محيّا ابن نصر لم يشن بغروب

شمائله مهما أديرت کؤوسها قلائد أسماع و أنس قلوب

و قال مذيّلا علی بيت ابن وکيع: [الخفيف]

«هی فی أوجه الندامی عقيق و هی مثل النضار فی الأقداح»

کابن نصر تراه فی الحرب ليثا و هو بدر الندی و غيث السماح

ذکره قد ثنی قدود الندامی و أعاد الحياة فی الأرواح

و قال ممّا يرسم للغنی باللّه: [مجزوء الرمل]

للغنی باللّه ملک برده بالعزّ مذهب

دام فی رفعة شان ما جلا الإصباح غيهب

و قال أيضا: [مجزوء الرمل]

يا ابن نصر لک ملک ليس تعدوه الفتوح

دمت روحا للمعالی ما سری فی الجسم روح

و من مقطوعاته: [الخفيف]

و ابن نصر له محيّا کصبح إن تجلّی جلا لنا کلّ کرب

ذو حسام کأنّه لمع برق فی بنان کأنها غيث سحب

و من أخری: [الخفيف]

و كأنّ النجوم فى غسق اللى ل جمان يلوح فى آبنوس

و كأنّ الصباح فى الأفق يجلى بحلىّ النجوم مثل العروس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۸۹

و كأنّ الرياض تهدى ثناء للغنى بالله فوق الطروس

و قال من قصيدة أولها: [الكامل]

أضياء هدى أم ضياء نهار و شذا المحامد أم شذا الأزهار

قسما بهديك فى الضياء، و إنه شمس تمدّ الشّهب بالأنوار

و منها:

كم من لطائف للهدى أوضحتها خفيت لطائفها على الأفكار

كم من جرائم قد غفرت عظيمها مستنزلا من رحمة الغفّار

علمت ملوك الأرض أنك فخرها فتسابقت لرضاك فى مضمار

و منها يصف الجيش:

سالت به تحت العجاج سفينة لقحت بريح العزّ من أنصار

أرست بجودى الجود فى يوم الندى و جرت بيوم الحرب فى تيّار

و منها:

ألقى بأيدى الريح فضل عنانه فيكاد يسبق لمحة الأبصار

و منها:

فهى العراب متى انبرت يوم الوغى قد أعربت عن لطف صنع البارى

و منها:

إن خاض فى ليل العجاج رأيته يجلو دجنّته بوجه نهار

و منها:

كم فيهم من قار ضيف طارق و ضحت شواهد فضله للقار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۹۰

و منها:

يا أيها الملك الذى أيامه غرر تلوح بأوجه الأعصار

قد زارك العيد السعيد مبشرا فاسمح لألف منهم بمزار

لمّا ازدهته عواطف ألطفتها عطف الإله عليك عطف سوار

فأتى يؤمّم منك هديا صالحا كى يستمدّ النور بعد سرار

و أتاك يسحب ذيل سحب أغدقت تغرى جفون المزن باستعبار

جادت بجارى الدمع يقطر بالندى فرعى الربيع لها حقوق الجار

فأعاد وجه الأرض طلقا مشرقا متضاحكا بمباسم النوّار

لمّا دعاك إلى القيام بسنّة حكّمت داعى الجود و الإيثار

فأفضت فينا من نداك مواهبا حسنت مواقعها على التكرار

فاهنأ بعيد عاد يشتمل الرضا جذلان يرفل فى حلى استبشار

و منها:

لا عذر لى إن كنت فيه مقصّرا سدّت صفاتك أوجه الأعذار

فإذا نظمت من المناقب درّها شرّفتنى منها بنظم درارى

فلذاك أنظمها قلائد لؤلؤ لألاؤها قد شفّ بالأنوار

[مما أنشده على لحد ابن الأحمر]

و أنشده على لحده المقدّس رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

ضريح أمير المسلمين محمد يخصّك ربّى بالسلام المردّد

و حيّتك من روح الإله تحيّة مع الملإ الأعلى تروح و تغتدى

و شقّت جيوب الزهر فيك كمائم يرفّ بها الريحان عن خضل ندى

و صابت من الرّحمى عليك غمائم تروّى ثرى هذا الضريح المنجّد

وزارتك من حور الجنان أوانس نواعم فى كلّ النعيم المخلّد

و جاءتك بالبشرى ملائكة الرضا كما جاء فى الذكر الحكيم الممجّد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۹۱

و صافح منك الروض أطيب تربة و عاهد منك المزن أكرم معهد

رضا اللّه و الصفح الجميل و عفوه يوالى على ذاك الصفيح المنضّد

و يا صدفا قد فاز من جوهر العلا بكلّ نفيس بالنفاسة مفرد

أعندك أنّ العلم و الحلم و الحجا و زهر الحلى قد أدرجت طىّ ملحد

و هل أنت إلّا هالة القمر الذى بنور هداه الشهب تهدى و تهتدى

و يا عجبا من ذلك الترب كيف لا يفيض ببحر للسماحة مزبد

لقد ضاقت الأكوان و هى رحيبة بما حزت من فخر عظيم و سودد

قدمت على الرحمن أكرم مقدم و زوّدت من رحماه خير مزوّد

أقام بك المولى الإمام محمد مؤمّل فوز بالشفيع محمد

فجاء كما ترضى و ترضى به العلا و أنجز للآمال أكرم موعد

و مدّ ظلال العدل فى كل وجهة و كفّ أكفّ البغى من كلّ معتد

و قام بمفروض الجهاد عن الورى و عوّد دين اللّه خير معوّد

قضى بعد ما قضّى الخلافة حقها و عامل وجه اللّه فى كلّ مقصد

و فتّح بالسيف الممالك عنوة و مدّت له أملاكها كفّ مجتد

و كسّر تمثال الصليب و أخرست نواقيس كانت للضلال بمرصد

و طهّر محرابا و جدّد منبرا و أعلن ذكر اللّه فى كلّ مسجد

و دانت له الأملاك شرقا و مغربا و كلّهم ألقى له الملك باليد

و طبّق معمور البسيطة ذكره و سارت به الركبان فى كلّ فدفد

و سافر عن دار الفناء ليجتلى بما قدّم اليوم السعادة فى غد

و قام بأمر اللّه حقّ قيامه بعزمة لا وان و لا متردّد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۹۲

لئن سار للرحمن خير مودع و حلّ من الفردوس أشرف مقعد

فقد خلّف المولى الخليفة يوسفا يعيد له غرّ المساعى و يبتدى

سبيلك فى سبل المكارم يقتفى و هديك يا خير الأئمة يقتدى

محمد جلّ الخطب من بعد يوسف و يوسف جلى الخطب بعد محمد

و لو وجد الناس الفداء مسوّغا فداك ببذل النفس كلّ موحّد

ستبكيك أرض كنت غيث بلادها و تبكيك حتى الشّهب فى كلّ مشهد

و تبكى عليك السحب ملء جفونها بدمع يروّى غلّة المجدب الصّدى

و تلبس فيك النيرات ظلامها حدادا و يذكى النجم جفن مسهّد

و ما هى إلّا أعين قد تسهّدت فكحّلها نجم الظلام بإثمد

فلا زلت فى ظلّ النعيم مخلّدا و نجلك يحيا بالبقاء المخلّد

و أوردك الرحمن حوض نبيّه و أصدر من خلّفت من خير مورد

عليك سلام مثل حمدك عاطر يفضّ ختام المسك عن تربك الندى

و صلّى على المختار من آل هاشم صلاة بها نرجو الشفاعة فى غد

[له يستعطف السلطان أبا الحجاج]

و قال يستعطف الوالد السلطان أبا الحجّاج: [الوافر]

بما قد حزت من كرم الخلال بما أدركت من رتب الجلال

بما خوّلت من دين و دنيا بما قد حزت من شرف الجمال

بما أوليت من صنع جميل يطابق لفظه معنى الكمال

تغمّدنى بفضلك، و اغتفرها ذنوبا فى الفعال و فى المقال

و قال أيضا: [الطويل]

أ تعطش أولادى و أنت غمامة تعمّ جميع الخلق بالنفع و السقيا

و تظلم أوقاتى و وجهك نيّر تفيض بها الأنوار للدين و الدنيا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۹۳

وجّدك قد سمّاك ربّك باسمه و أورثك الرحمن رتبته العليا

و قد كان أعطانى الذى أنا سائل و سوّغنى من غير شرط و لا ثنيا

و شعرى فى غير المصانع خالد يحيّيه عنى فى الممات و فى المحيا

و ما زلت أهدى المدح مسكا مفتّقا فتحمله الأرواح عاطرة الريّا

و قد أكثر العبد التشكّى و إنه و حقّك يا فخر الملوك قد استحيا

و ما الجود إلّا ميّت، غير أنه إذا نفخت يمناك فى روحه يحيا

فمن شاء أن يدعو لدين محمد فيدعو لمولانا الخليفة بالبقيا

[من شعره فى أبى الحجاج]

و قال أيضا فيه و قد نزل بالولجة من مرج الحضرة: [الخفيف]

منزل اليمن و الرضا و السعود أنجزت فيه صادقات الوعود

كلّ يوم نزاهة إن تقضّت أنشدتها السعود: بالله عودى

جمع المسلمين وصف كمال بين بأس عمّ الملوك وجود

فاهن فى غبطة و عزّة ملك أنت و اللّه فخر هذا الوجود

و قال أيضا مشيرا لتوليته العلامة: [الكامل]

لك غرّة ودّ الصباح جمالها و محاسن تهوى البدور كمالها

و شمائل تحكى الرياض خلالها و أنامل تزجى الأنام خلالها

للمستعين خلافة نصريّة عرفت ملوك العالمين جلالها

و أنا الذى قد نال منك معاليا تهدى النجوم الزاهرات منالها

تهديه ما قد نلته من بعضها فالفخر كلّ الفخر فيمن نالها

فى كلّ يوم منك منّة منعم لو طاولت سمك السما ما طالها

بلّغت آمال العبيد فبلّغت فيك العبيد من البقا آمالها

و قال أيضا و كتبها إليه مع خمسة أقلام: [الطويل]

أيا مالكا لم يبد للعين حسنه سوى ملك قد حلّ من عالم القدس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۹۴

لك الخير خذها كالأنامل خمسة تعوّذ مرآك المكمّل بالخمس

فمن أبصرت عيناك مرآه فليقل أعوذ بربّ الناس أو آية الكرسى

ثم قال ابن الأحمر: و قال يخاطب مولانا الوالد رحمة اللّه تعالى عليه و قد مرّ معه بفحص ريّة، و الثلج قد عمّ أنديته، و بسط أرديته، فى وجهة توجهها مولانا الجدّ تغمّده اللّه تعالى إلى مالقة: [الكامل]

يا من به رتب الإمارة تعتلى و معالم الفخر المشيدة تبتنى

ازجر بهذا الثلج حالا إنه ثلج اليقين بنصر مولانا الغنى

بسط البياض كرامة لقدومه و افترّ ثغرا عن مسرّة معتنى

فالأرض جوهرة تلوح لمعتل و الدوح مزهرة تفوح لمجتنى

سبحان من أعطى الوجود وجوده ليدلّ منه على الجواد المحسن

و بدائع الأكوان فى إتقانها أثر يشير إلى البديع المتقن

ثم قال: و من أوليات نظمه يخاطب شيخه الوزير أبا عبد اللّه بن الخطيب مادحا قوله:

[الطويل]

أما و انصداع النور من مطلع الفجر

إلى آخره، و قد تقدّمت.

[له يراجع الكاتب أبا زكريا بن أبى دلامة]

ثم قال: و قال يراجع الكاتب أبا زكريا بن أبى دلامة: [الطويل]

على الطائر الميمون و الطالع السّعد أتتنى مع الصنع الجميل على وعد

و أحييت يا يحيى بها نفس مغرم يجيل جياد الدمع فى ملعب السهد

نسيت و ما أنسى وفائى و خلّتى و أقفر ربع القلب إلّا من الوجد

و ما الطلّ فى ثغر من الزهر باسم بأزكى و أصفى من ثنائى و من ودّى

فأصدقتها من بحر فكرى جواهرا تنظّم من درّ الدرارىّ فى عقد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۹۵

و كنت أطيل القول إلّا ضرورة دعتنى إلى الإيجاز فى سورة الحمد

و أنشد السلطان أبا العباس المرسى فى غراب من إنشائه: [الطويل]

أ إنسان عين الدهر جفنك قد غدا يحفّك منه طائر اليمن و السّعد

إذا ما هفا فوق الرءوس شراعه أراك جناحا مدّ للجزر و المدّ

و أنشد فيه أيضا: [الطويل]

لك الخير شأن الجفن يحرس عينه و هذا بعين اللّه يحرس دائما

تبيت له خمس الثريّا معيذة تقلّده زهر النجوم تمائما

فيا جفن، لا تنفكّ فى الحفظ دائما و إن كنت فى لجّ من البحر عائما

انتهى ما لخّصته من كلام ابن الأحمر فى حقّ ابن زمرك، و ذلك جملة من نظمه.

و قد رأيت أن أعزّز ذلك ببعض موشحات ابن زمرك المذكور ممّا انتقيته من كلام ابن الأحمر.

[موشحة لابن زمرك، يتشوق فيها إلى غرناطة]

فمنها قوله متشوّقا إلى غرناطة و يمدح الغنى بالله:

بالله يا قامة القضيب و مخجل الشمس و القمر

من ملك الحسن فى القلوب و أيّد اللحظ بالحور

من لم يكن طبعه رقيقا لم يدر ما لذّة الصّبا

فربّ حرّ غدا رقيقا تملكه نفحة الصّبا

نشوان لم يشرب الرحيقا لكن إلى الحسن قد صبا

فعذّب القلب بالوجيب و نعّم العين بالنظر

و بات و الدمع فى صبيب يقدح من قلبه الشّرر

عجبت من قلبى المعنّى يهفو إذا هبّت الرياح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۹۶

لو كان للصّب ما تمنّى لطار شوقا بلا جناح

و بلبل الدّوح إن تغنّى أسهر ليلى إلى الصباح

عساك إن زرت يا طبيبى بالطّيف فى رقدة السّحر

أن تجعل النوم من نصيبى و العين تحمى من السّهر

كم شادن قاد لى الحتوفا بمربع القلب قد سكن

يسلّ من لحظه سيوفا فالقلب بالروع ما سكن

خلقت من عادتى ألوفا أحنّ للإلف و السّكن

غرناطة منزل الحبيب و قربها السؤل و الوطر

تبهر بالمنظر العجيب فلا عدا ربعها المطر

عروسة تاجها السبيكه و زهرها الحلى و الحلل

لم ترض من عزّها شريكه بحسنها يضرب المثل

أيّدها اللّه من مليكه تملكها أشرف الدول

بدولة المرتجى المهيب الملك الظاهر الأغرّ

تختال من بردها القشيب فى حلّة النور و الزّهر

كرسيّها جنّة العريف مرآتها صفحة الغدير

و جوهر الطّلّ عن شنوف تحكمها صنعة القدير

و الأنس فيها على صنوف فمن هديل و من هدير

كم خرق الزهر من جيوب و كلّل القضب بالدّرر

فالغصن كالكاعب اللّعوب و الطير تشدو بلا وتر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۹۷

و لائم النصر فى احتفال و فرح دين الهوى جديد

سلطانها معمل العوالى محمد الظافر السعيد

و مخجل البدر فى الكمال سلطانها المجتبى الفريد

أصفح مولى عن الذنوب أكرم عاف إذا قدر

و شمس هدى بلا مغيب و بحر جود بلا حسر

مولاى يا عاقد البنود تظلّل الأوجه الصّباح

أوحشت يا نخبة الوجود غرناطة هالة السماح

سافرت باليمن و السعود و عدت بالفتح و النجاح

يا ملهم القلب للغيوب و مطعم النصر و الظفر

أسمعك اللّه عن قريب: «على السلامه من السّفر»

[موشحة أخرى لابن زمرك]

و قال أيضا من الموشحات الرائقة، فى مثل أغراض هذه السابقة، و أشار إلى محاسن من وصف الرشاد:

نسيم غرناطة عليل لكنه يبرئ العليل

و روضها زهره بليل و رشفه ينقع الغليل

سقى بنجد ربا المصلّى مباكرا روضه الغمام

سقى بنجد ربا المصلى تبسم الزهر فى الكمام

و الروض بالحسن قد تجلّى و جرّد النهر عن حسام

و دوحها ظلّه ظليل يحسن فى ربعه المقيل

و البرق و الجوّ مستطيل يلعب بالصارم الصقيل

عقيلة تاجها السبيكه تطلّ بالمرقب المنيف

كأنها فوقه مليكه كرسيّها جنّة العريف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۹۸

تطبع من عسجد سبيكه شموسها كلّما تطيف

أبدعك الخالق الجميل يا منظرا كلّه جميل

قلبى إلى حسنه يميل و قلبنا قد صبا جميل

و زاد للحسن فيك حسنا محمد الحمد و السّماح

جدّد للفخر فيك مبنى فى طالع اليمن و النجاح

تدعى رشادا و فيك معنى يخصّك الفأل بافتتاح

فالنصر و السعد لا يزول لأنه ثابت أصيل

سعد و أنصاره قبيل آباؤه عترة الرسول

أبدى به حكمة القدير و توّج الروض بالقباب

و درّع الزهر بالغدير و زيّن النهر بالحباب

فمن هديل و من هدير ما أولع الحسن بالشباب

كبت على روضها القبول و طرفها بالسّرى كليل

فلم يزل بينها يجول حتى تبدّت له حجول

للزهر فى عطفها رقوم تلوح للعين كالنجوم

و للندى بينها رسوم عقد الندى فوقه نظيم

و كلّ واد بها يهيم و لم يزل حولها يحوم

شنيلها مدّ منه نيل و الشين ألف لمستنيل

و عين واد بها تسيل من فوق خدّ له أسيل

كم من ظلال به ترفّ تضفو له فوقها ستور

و من زجاج به يشفّ ما بين نور و بين نور

و من شموس بها تصفّ تديرها بينها البدور

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۹۹

مزاجها العذب سلسبيل يا هل إلى رشفها سبيل

و كيف و الشيب لى عذول و صبغه صفرة الأصيل

يا سرحة فى الحمى ظليله كم نلت فى ظلّك المنى

روّضك اللّه من خميله يجنى بها أطيب الجنى

و برقها صادق المخيله ما زال بالغيث محسنا

أنجز لى وعدك القبول فلم أقل مثل من يقول

«يا سرحة الحىّ يا مطول شرح الذى بيننا يطول»

[موشحة كتب بها إلى الغنى باللّه]

و من ذلك ما كتب به إلى الغنى باللّه:

أبلغ لغرناطة السلام وصف لها عهدى السليم

فلو رعى طيفها ذمام ما بتّ فى ليلة السليم

كم بتّ على اقتراح أعلّ من خمرة الرضاب

أدير فيها كؤوس راح قد زانها الثغر بالحباب

أختال كالمهر فى الجماح نشوان فى روضة الشباب

أضاحك الزهر فى الكمام مباهيا روضه الوسيم

و أفضح الغصن فى القوام إن هبّ من جوّها النسيم

بينا أنا و الشباب ضاف و ظلّه فوقنا مديد

و مورد الأنس فيه صاف و برده رائق جديد

إذ لاح فى الفود غير خاف صبح به نبّه الوليد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۰۰

أيقظ من كان ذا منام لمّا انجلى ليله البهيم

و أرسل الدمع كالغمام فى كلّ واد به أهيم

يا جيرة عهدهم كريم و فعلهم كلّه جميل

لا تعذلوا الصّبّ إذ يهيم فقبله قد صبا جميل

القرب من ربعكم نعيم و بعدكم خطبه جليل

كم من رياض به و سام يزهى بها الرائض المسيم

غديرها أزرق الجمام و نبتها كلّه جميم

أعندكم أننى بفاس أكابد الشوق و الحنين

أذكر أهلى بها و ناسى و اليوم فى الطول كالسنين

اللّه حسبى فكم أقاسى من وحشة الصب و البنين

مطارحا ساجع الحمام شوقا إلى الإلف و الحميم

و الدمع قد لجّ فى انسجام و قد و هى عقده النظيم

يا ساكنى جنّة العريف أسكنتم جنة الخلود

كم ثمّ من منظر شريف قد حفّ باليمن و السّعود

و ربّ طود به منيف أدواحه الخضر كالبنود

و النهر قد سلّ كالحسام لراحة الشّرب مستديم

و الزهر قد راق بابتسام مقبّلا راحة النديم

بلّغ عبيد المقام صحبى لا زلتم الدهر فى هنا

لقاكم بغية المحبّ و قربكم غاية المنى

فعندكم قد تركت قلبى فجدّد اللّه عهدنا

و دارك الشمل بانتظام من يرتجى فضله العميم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۰۱

فى ظلّ سلطاننا الإمام الطاهر الظاهر الحميم

مؤمّن العدوتين ممّا يخاف من سطوة العدا

و فارج الكرب إن ألمّا و مذهب الخطب و الرّدى

قد راق حسنا و فاق حلما و ما عدا غير ما بدا

مولاى يا نخبة الأنام و حائز الفخر فى القديم

كم أرقب البدر فى التمام شوقا إلى وجهك الكريم

[موشحة أخرى عارض بها موشحة ابن سهل]

منها موشحة عارض بها موشحة ابن سهل التى أولها «ليل الهوى يقظان» و هى:

نواسم البستان تنثر سلك الزّهر

و الطّلّ فى الأغصان ينظمه بالجوهر

و راحة الإصباح أضاء منها المشرق

تنشرها الأرواح فلا تزال تخفق

و الزهر زهر فاح لها عيون ترمق

فأيقظ الندمان يبصرن ما لم يبصر

جواهر الشّبان قد عرضت للمشترى

قدحت لى زندا يا أيّهذا البارق

أذكرتنى عهدا إذ الشباب رائق

فالشوق لا يهدا و لا الفؤاد الخافق

و كيف بالسّلوان و القلب رهن الفكر

و سحب الهجران تحجب وجه القمر

لو لا شموس الكاس نديرها بين البدور

و عرّج الإيناس منّا على ربع الصدور

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۰۲

لكن لها وسواس يغرى بربّات الخدور

كم واله هيمان بصبح وجه مسفر

ضياؤه قد بان من تحت ليل مقمر

يا مطلع الأنوار كم فيك من مرأى جميل

و نزهة الأبصار ما ضرّ لو تشفى الغليل

يا روضة الأزهار و عرفها يبرى العليل

قضيبك الفتان يسقى بدمع همر

فلاعج الأشجان فيض الدموع يجرى

هل فى الهوى ناصر أو هل يجار الهائم

لو كان لى زائر طيف الخيال الحائم

ما بتّ بالساهر و دمع عينى ساجم

و الحبّ ذو عدوان يجهد فى ظلم البرى

و صارم الأجفان مؤيّد بالحور

رحماك فى صبّ أذكرته عهد الصّبا

بواعث الحبّ قادت إليه الوصبا

لم تهف بالقلب ريح الصّبا إلّا هبا

بليلة الأردان قد ضمّخت بالعنبر

يشير غصن البان منها بفضل المئزر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۰۳

طيّبها حمد فخر الملوك المجتبى

من يرجح الطود من حلمه إذا احتبى

قد جرّد السعد منه حساما مذهبا

فالبأس و الإحسان و الغوث للمستنصر

تحمله الركبان تحيّة للمنبر

عصابة الكتّاب حقّ لها الفوز العظيم

تختال فى أثواب حق لها الفخر الجسيم

فحسبها الإطناب فى الحمد و الشكر العميم

خليفة الرحمن لا زلت سامى المظهر

يا مورد الظمآن و رأس مال المعسر

خذها على دعوى تزرى على الروض الوسيم

جاءت كما تهوى أرقّ من لدن النسيم

قد طارحت شكوى من قال فى الليل البهيم

«ليل الهوى يقظان و الحبّ ترب السهر»

«و الصبر لى خوّان و النوم من عينى برى»

[من موشحات ابن زمرک فى الصبوحيات]

و له فى الصبوحيات:

ريحانة الفجر قد أطلّت خضراء بالزهر تزهر

و راية الصبح قد أظلّت فى مرقب الشمس تنشر

فالشّهب من غارة الصباح ترعد خوفا و تخفق

و أدهم الليل فى جماح أعنّة البرق يطلق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۰۴

و الأفق فى ملتقى الرياح بأدمع الغيث يشرق

و السّحب بالجوهر استهلّت فالبرق سيف بجوهر

صفاحه المذهبات حلّت فى راحة الجوّ تشهر

كم للصّبا ثمّ من مقيل بطيبه الزهر يشهد

و النهر كالصارم الصّقيل فى حلية النور يغمد

و ربّ قال به و قيل للطير فى حين تنشد

فألسن الورق قد أملّت مدائحا عنه تشكر

و نسمة الصبح قد تجلّت فى سندس الروض تعثر

و الكاس فى راحة النديم يجلو بها غيهب الهموم

أقبست النار فى القديم من قبل أن تخلق الكروم

و النهر فى ملعب النسيم للزهر فى عطفه رقوم

فلبّة الحلى قد تجلّت و الطّلّ فى الحلى جوهر

و بهجة الكون قد تجلّت و الطّلّ فى الحلى جوهر

و بهجة الكون قد تجلّت و الروض بالحسن يبهر

يذكرنى و جنة الحبيب و الآس فى صفحة العذار

و شارب الشارب العجيب بين أقاح و جلّنار

يدير من ثغره الشنيب سلافة دونها العقار

حلّت لأهل الهوى و جلّت بالذكر و الوهم تسكر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۰۵

كم من نفوس بها تسلّت فما لها الدهر منكر

يا غصن بان يميل زهوا ريّان فى روضة الشباب

لو كنت تصغى لرفع شكوى أطلت من قصة العقاب

و من لمثلى ببثّ نجوى للبدر فى رفرف السحاب

عزائم الصبر فيك حلّت و عقدة الصبر تذخر

قد أكثرت منك ما استقلّت و ليت لو كنت تشعر

كم ليلة بتّها و بتّا ضدّين فى السّهد و الرقاد

أسامر النجم فيك حتى علّمت أجفانها السهاد

أرقب بدر الدّجى، و أنتا قد لحت فى هالة الفؤاد

نفسى ولّيت ما تولّت دعها على الشوق تصبر

لو سمتها الهجر ما تولّت و لم تكن عنك تنفر

علّمها الصبر فى الحروب سلطاننا عاقد البنود

معفّر الصّيد للجنوب أعزّ من حفّ بالجنود

نصرت بالرعب فى القلوب و البيض لم تبرح الغمود

عناية اللّه فيه حلّت بسعده الدين ينصر

و الخلق فى عصره تملّت غنائما ليس تحصر

مولاى يا نكتة الزمان دار بما ترتضى الفلك

جلّلت باليمن و الأمان كلّ مليك و ما ملك

لم يدر وصفى و لا عيانى أملك أنت أم ملك

جنودك الغلب حيث حلّت بالفتح و النصر تحمر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۰۶

و عادة اللّه فيك دلّت إنك بالكفر تظفر

يا آية اللّه فى الكمال و مخجل البدر فى التمام

قدمت بالعزّ و الجلال و الدهر فى ثغره ابتسام

يختال فى حلّة الجمال و البدر قد عاد فى اختتام

ريحانة الفجر قد أطلّت خضراء بالزهر تزهر

و راية الصبح قد أظلّت فى مرقب الشرق تنشر

و قال سامحه اللّه تعالى:

قد طلعت راية الصباح و آذن الليل بالرحيل

فباكر الروض باصطباح و اشرب على زهره البليل

فالورق هبّت من السّنات لمنبر الدّوح تخطب

تسجع مفتنّة اللغات كلّ عن الشوق يعرب

و الغصن بعد الذهاب يأتى لأكؤس الطّلّ يشرب

و أدمع السّحب فى انسياح فى كلّ روض لها سبيل

و الجوّ مستبشر النواحى يلعب بالصارم الصقيل

قم فاغتنم بهجة النفوس ما بين نور و بين نور

و شفّع الصّبح بالشّموس تديرها بيننا البدور

و نبّه الشّرب للكؤوس تمزج من ريقة الثغور

ما أجمل الراح فوق راح صفراء كالشمس فى الأصيل

تغادر الصدر ذا انشراح للأنس فى طيّه مقيل

و لا تذر خمرة الجفون فسكرها فى الهوى جنون

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۰۷

و لتخش من أسهم العيون فإنها رائد المنون

عرضت منها إلى الفتون و كلّ خطب لها يهون

أهيم بالغادة الرّداح و الجسم من حبّها عليل

لو بتّ منها على اقتراح نقعت من ريقها الغليل

أواعد الطّيف للمنام و من لعينىّ بالمنام

أسهر فى ليلة التمام و أنت يا بدر فى التمام

و ألثم الزهر فى الكمام عليه من ثغرك ابتسام

سفرت عن مبسم الأقاح و ريقك العذب سلسبيل

قل لى يا ربّة الوشاح هل لى إلى الوصل من سبيل

يا كعبة الحسن زدت حسنا و للهوى حولك المطاف

و غصن بان إذا تثنّى لو حان من زهرك القطاف

ألا انعطاف على المعنّى فالغصن يزهى بالانعطاف

أصبحت تزهو على الملاح بذلك المنظر الجميل

و وجهك الشمس فى اتّضاح لو أنها لم تكن تميل

ما الزهر إلّا بنظم درّ تحسد فى حسنه العقود

للملك الظاهر الأغرّ أكرم من حفّ بالسعود

محمد الحمد و ابن نصر و باسط العدل فى الوجود

مساجل السّحب فى السماح بالغيث من رفده الجليل

و مخجل البدر فى اللّياح بغرّة ما لها مثيل

يا مشرب الحبّ فى القلوب و واهب الصفح للصفاح

نصرت بالرعب فى الحروب و الرعب أجدى من السلاح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۰۸

قد لحت من عالم الغيوب لم تعدم الفوز و الفلاح

مراكش نهبة افتتاح و الصنع فى فتحها جليل

بشراك بالفتح و النجاح و الشكر من ذلك القبيل

و قال أيضا رحمه اللّه تعالى:

فى كؤوس الثغر من ذاك اللّعس راحة الأرواح

و تغشّى الروض مسكىّ النّفس عاطر الأرواح

و كسا الأدواح و شيا مذهبا يبهر الشّمسا

عسجد قد حلّ من فوق الرّبا يبهج النّفسا

فاتّخذ للّه فيه مركبا تلحق الأنسا

منبر الغصن عليه قد جلس ساجع الأدواح

حلل السندس خضرا قد لبس عطفه المرتاح

قم ترى هذا الأصيل شاحبا حسنه قد راق

و لأذيال الغصون ساحبا فى حلى الأوراق

و نديم قال لى مخاطبا قول ذى إشفاق

عادة الشمس بغرب تختلس هات شمس الراح

إن أرانا الجوّ وجها قد عبس أوقد المصباح

و وجوه الشّرب تغنى عن شموس كلّما تجلى

بلحاظ أسكرتنا عن كؤوس خمرها أحلى

مظهرات من خفايا فى النفوس سورا تتلى

ما زمان الأنس إلّا مختلس فاغتنم يا صاح

و عيون الشّهب تذكى عن حرس تخصم النّصّاح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۰۹

ما ترى ثغر الوميض باسما يظهر البشرا

و ثناء الروض هبّ ناسما عاطرا نشرا

بثّ من أزهاره دراهما قائلا: بشرى

ركب المولى مع الظهر الفرس و سقى و ارتاح

بجنود اللّه دأبا يحترس إن غدا أو راح

وجب الشكر علينا و الهنا بعضنا بعضا

فزمان السّعد وضّاح السنى وجهه الأرضى

أثمرت فيه العوالى بالمنى ثمرا غضّا

يجتنى الإسلام منها ما اغترس سيفه السفّاح

فى ضمير النقع منها قد هجس شهب تلتاح

يا إماما بالحسام المنتضى نصر الحقّا

ثغرك الوضّاح مهما أومضا أخجل البرقا

و ديون السعد منه تقتضى توسع الحقّا

لك وجه من صباح مقتبس بشره وضّاح

و جميل الصفح منه ملتمس منعم صفّاح

هاكها تمزج لطفا بالنسيم كلّما هبّا

قد أتت بالبرّ و الصنع الجسيم تشكر الرّبّا

أخجلت من قال فى الصبح الوسيم مغرما صبّا

«غرّد الطير فنبّه من نعس» يا مدير الراح

و تعرّى الفجر عن ثوب الغلس و انجلى الإصباح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۱۰

و قال أيضا سامحه اللّه تعالى:

قد أنعم اللّه بالشفاء و استكملت راحة الإمام

فلتنطق الطير بالهناء و ليضحك الزهر فى الكمام

وجوده بهجة الوجود و برؤه راحة النفوس

قد لاح فى مرقب السعود و استبشرت أوجه الشموس

فالدوح قومى إلى البنود أكمامه غطّت الرءوس

و الزّهر فى روضة السماء كالزّهر قد راق بابتسام

و الصبح مستشرف اللواء و البدر مستقبل التمام

محاسن الكون قد تجلّت جمالها العقل يبهر

عرائس بالبها تحلّت و الطل فى الحلى جوهر

و ألسن الورق قد أملّت مدائحا عنه تشكر

تستوقف الخلق بالغناء كأنها تحسن الكلام

تطنب للّه فى الثناء تقول سلّمت يا سلام

كم من ثغور لها ثغور تبسم إذ جاءها البشير

و من خدور بها بدور يشير منها له المشير

تقول إذ حفّها السرور تبارك المنعم القدير

قد أنعم اللّه بالبقاء فى ظلّ مولى به اعتصام

قد صادف النّجح فى الدواء فالداء عنّا له انفصام

يهنيك مولاى بل يهنّى ببرئك الدين و الهدى

فالغرب و الشرق منك يعنى بمذهب الخطف و الردى

و اللّه لولاك ما تهنّا ما فيه من سطوة الردى

يا مورد الأنفس الظماء قد كان يشتفّها الأوام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۱۱

و قرّة العين بالبهاء رددت للأعين التمام

لو أبذل الروح فى البشاره بذلت بعض الذى ملك

فأنت يا نفس مستعاره مولاى بالفضل جمّلك

لم أدر إذ سطّر العباره أملك هو أم ملك

لا زلت مولاى فى هناء مبلّغ القصد و المرام

و دمت للملك فى اعتلاء تسحب أذياله الغمام

[موشحة لابن زمرک فى مالقة]

و قال فى مالقة:

عليك يا ريّة السلام و لا عدا ربعك المطر

مذ حلّ فى قصرك الإمام فقربك السؤل و الوطر

و الدوح فى روضك الأنيق للشكر قد حطّت الرءوس

و الغصن فى نهره غريق و فى حلاه كما عروس

و الجوّ من وجهه الشريق تحسده أوجه الشموس

و أعين الزهر لا تنام تستعذب السهد و السّهر

ينفث من تحتها الغمام يرقيك من أعين الزّهر

عروسة أنت يا عقيله تجلى على مظهر الكمال

مدّت لك الكفّ مستقيله تمسح أعطافك الشمال

و البحر مرآتك الصقيله تشفّ عن ذلك الجمال

و الحلى زهر له انتظام يكلّل القضب بالدّرر

قد راق من ثغره ابتسام و الورد فى خدّها خفر

إن قيل من بعلها المفدّى و من له وصلها مباح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۱۲

أقول أسنى الملوك رفدا مخلد الفخر بالصفاح

محمد الحمد حين يهدى ثناؤه عاطر الرياح

تخبر عن طيبه الكمام و الخبر يغنى عن الخبر

فالسعد و الرعب و الحسام و النصر آياته الكبر

ذو غرّة تسحر البدورا و طلعة تخجل الصّباح

كم راية سامها ظهورا تظلّل الأوجه الصّباح

و كم جهاد جلاه نورا أظفر بالفوز و النجاح

الطاهر الظاهر الهمام أعزّ من صال و افتخر

لسيفه فى العدا احتكام جرى به سابق القدر

يا مرسل الخير فى الغوار لو تطلب البحر تلحق

لك الجوارى إذا تجارى سوابق الشّهب تسبق

تستنّ فى لجّة البحار فالكفر منهنّ يفرق

فالدين و ليقصر الكلام بسيفك اعتزّ و انتصر

كذاك أسلافك الكرام هم نصروا سيّد البشر

[موشحة أخرى لابن زمرك فى مالقة]

و قال من غير هذا البحر فى المحدث بمالقة:

قد نظم الشمل أتمّ انتظام و اغتنم الأحباب قرب الحبيب

و استضحك الروض ثغور الغمام عن مبسم الزهر البرود الشّنيب

و عمّم النّور رؤوس الرّبا و جلّل النّور صدور البطاح

و صافح القضب نسيم الصّبا فالزهر يرنو عن عيون وقاح

و عاود النهر زمان الصّبا فقلّد الزهر مكان الوشاح

و أطلع القصر برود التمام فى طالع الفتح القريب الغريب

خدودها قامت مقام الغمام فلا اشتكى من بعدها بالمغيب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۱۳

أصبحت يا ريّة مجلى النفوس جمالك العين بها يبهر

و البشر يسرى فى جميع الشموس و راية الأنس بها تشهر

و الدوح للشكر تحطّ الرءوس و أنجم الزهر بها تزهر

و راجع النهر غناء الحمام و قد شدت تسجع سجع الخطيب

بمنبر الغصن الرشيق القوام لمّا انثنى يهفو بقدّ رطيب

يا حبّذا مبناك فخر القصور بروجه طالت بروج السما

ما مثله فى سالفات العصور و لا الذى شاد ابن ماء السما

كم فيه من مرأى بهيج و نور فى مرتقى الجوّ به قد سما

خليفة اللّه و نعم الإمام أتحفك الدهر بصنع عجيب

يهنيك شمل قد غدا فى التئام ممهّدا فى ظلّ عيش خصيب

نواسم الوادى بمسك تلوح و نفحة النّدّ به تعبق

و بهجة السكان فيه تلوح و جوّه من نورهم يشرق

و روضه بالسّرّ منه يبوح بلابل عن وجده تنطق

لو أنّ من يفهم عنها الكلام فهى تهنيك هناء الأديب

و نهره قد سلّ منه الحسام يلحظه النرجس لحظ المريب

فأجمل الأيام عصر الشباب و أجمل الأجمل يوم اللّقا

يا درّة القصر و شمس القباب و هازم الأحزاب فى الملتقى

بشّرك الربّ بحسن المآب متّعك اللّه بطول البقا

و لا يزال القصر قصر السلام يختال فى برد الشباب القشيب

يتلو عليك الدهر فى كلّ عام نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ

[سورة الصف، الآية: ۱۳]

[موشحة لابن زمرك فى الشفاء]

و قال من المخلّع فى الشفاء:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۱۴

فى طالع اليمن و السعود قد كملت راحة الإمام

فأشرق النور فى الوجود و ابتسم الزهر فى الكمام

قد طلعت رایهٔ النجاح و انهزم البؤس و العنا

و قال حیّ علی الفلاح مؤذّن القوم بالمنی

فالدهر یأتی بالاقتراح مستقبلا أوجه الهنا

تخفق منشورهٔ البرود و السعد یقدم من أمام

و الأنس مستجمع الوفود و اللطف مستعذب الجمام

و أکؤس الطّلّ مترعات بأنمل السوسن الندی

و الطیر مفتنّهٔ اللغات تشدو بأصوات معبد

و الغصن یذهب ثم یأتی بالسندس الغضّ مرتدی

و الدوح یومی إلی السجود شکرا لذی الأنعم الجسام

و الریح خفّاقهٔ البنود تباکر الروض بالغمام

مظاهر للجمال تجلّی قد هزّ أعطافها السرور

و باهر الحسن قد تجلّی ما بین نور و بین نور

قد هنأت بالشفاء مولی بعصره تفخر العصور

ما بین بأس و بین جود قد مهّد الأمن للأنام

فالدین ذو أعین رقود و کان لا یطعم المنام

و الکاس فی راحهٔ السقاهٔ تروح طورا و تغتدی

یهدیکها رائق السّمات ما بین برق و فرقد

و الشمس تذهب للبیات قد لبست ثوب عسجد

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۹، ص: ۱۱۵

و الزهر فی الیانع المجود یقابل الشّرب بابتسام

و الروض من حلیهٔ الغمود قد جرّد النهر عن حسام

مولای، یا أشرف الملوک و عصمهٔ الخلق أجمعین

أهدیک من جوهر السلوک یقذفه بحرک المعین

جعلت تنظیمه سلوکی و أنت لی المنجد المعین

تحیّهٔ الواحد المجید و رحمهٔ اللّه و السلام

علیک من راحم ودود یا مخجل البدر فی التمام

و قال من الرمل المجزوء:

وجه هذا الیوم باسم و شذا الأزهار ناسم

هاتها صاح کؤوسا جالبات للسرور

و ارتقب منها شموسا طالعات فی حبور

ما تری الروض عروسا فی حلی نور و نور

و أتت رسل النواسم تجتلی هذی النواسم

قد أهلّت بالبشائر أضحکت ثغر الأزاهر

سنحت فی یمن طائر و نظمن کالجواهر

فانشروها فی العشائر إنّ هذا الصنع باهر

و أشیعوا فی العوالم الغنی بالله سالم

أی نور یتوقّد أی بدر یتلالا

أیّ فخر یتخلّد أیّ غیث یتوالی

إنما المولی محمد رحمة اللّه تعالی

کفّه بحر المقاسم و بها حجّ المباسم

خیر أملاک الزمان من بنی سعد و نصر

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۹، ص: ۱۱۶

ما تری أنّ الشّوانی فی صعید البرّ تجری

قد أطارتها التهانی دون بحریّ و بحر

مذ رأت بحر النعائم کلّها جار وعائم

فهنیئا بالشفاء یا أمیر المسلمین

و لنا حقّ الهناء و جمیع العالمین

إن جهرنا بالدعاء ینطق الدهر أمین

دمت محروس المکارم بظبا البیض الصوارم

[موشحة لابن زمرک یهنئ فیها السلطان موسی بن أبی عنان]

و قال یهنی السلطان موسی ابن السلطان أبی عنان، و قد وجّه إلیه الغنی بالله أمّه و عیاله عند تملّکه المغرب من قبله:

قد نظم الشمل أتمّ انتظام و لاحت الأقمار بعد المغیب

و أضحک الروض ثغور الغمام عن مبسم الزهر البرود الشنیب

و عاود الغصن زمان الصّبا و أشرب الأنس جمیع النفوس

و عمّم النّور رؤوس الرّبا و جلّل النّور وجوه الشموس

و أطرب الغصن نسیم الصّبا فالدوح للشکر تحطّ الرءوس

و استقبل البدر لیالی التمام و صافح الصبح بکفّ خضیب

و راجع الأطیار سجع الحمام بکلّ ذی لحن بدیع غریب

نواسم الوادی بمسک تفوح و نفحة النّدّ به تعبق

و بهجة السکان فیه تلوح و جوّه من نوره یشرق

و عرفه بالطیب منه یفوح کأنه من عنبر یفتق

و النهر قد سلّ کمثل الحسام حبابه تطفو و طورا تغیب

و ثغره قد راق منه ابتسام یهنّئ الحبّ بقرب الحبیب

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۹، ص: ۱۱۷

کواکب أبراجهن الخدور یلوح منها کلّ بدر لیاح

جواهر أصدافهنّ القصور نظمها السعد كنظم الوشاح
يا حبّذا و اللّه ركب السرور يبشّر المولى بنيل اقتراح
ابتهج الكون بموسى الإمام و اختال فى برد الشباب القشيب
و عاده يخدم مثل الغلام شبابه قد عاد بعد المشيب
أكرم به و اللّه وفد الكريم مولى سنا «الحرة» فى مقدمه
مرضاتها تحظى بدار النعيم و توجب التوفيق من منعمه
بشرّه النصر و فتح جسيم و خيره أجمع فى مقدمه
لقاؤها المبرور مسك الختام بشّرك اللّه بصنع عجيب
و قصرك الميمون قصر السلام خطّ بحفظ من سميع مجيب
مولاى، يهنيك و حقّ الهنا قد نظم الشمل كنظم السعود
قد فزت بالفخر و نيل المنى و أنجز السعد جميع الوعود
و قرت العين و زال العنا و كلما مر صنيع يعود
و لا يزل ملككك حلف الدوام يحوز فى التخليد أو فى نصيب
يتلو عليك الدهر بعد السلام نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ
[سورة الصف، الآية: ۱۳]

[موشحة لابن زمرك أخرى فى وصف غرناطة]

و قال رحمه اللّه تعالى فى وصف غرناطة و الطرد و غيرهما:
للّه ما أجمل روض الشباب من قبل أن يفتح زهر المشيب
فى عهده أدرت كأس الرّضاب حبابها الدّرّ بثغر الحبيب
من كلّ من يخجل بدر التمام إذا تبدّى وجهه للعيون
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۱۸
و يفضح الغصن بلين القوام و أين منه لين قدّ الغصون
و لحظه يمضى مضاء الحسام و يذهل العقل بسحر الجفون
أبصرت منه إذ يحطّ النّقاب شمسا و لكن ما لها من مغيب
إذا تجلّت بعد طول ارتقاب صرفت عنها اللحظ خوف الرقيب
من عاذرى منه فؤادا صبا للامع البرق و خفق الرياح
يطير إن هبّ نسيم الصّبا تعيره الريح خفوق الرياح
ما أولع الصّبّ بعهد الصّبا و هل على من قد صبا من جناح
فقلبه من شوقه فى التهاب قد أحرق الأكباد منه الوجيب
و الجفن منه سحبه فى انسكاب قد روّض الخدّ بدمع سكيب
غرناطة ربع الهوى و المنى و قربها السؤل و نيل الوطر
و طيبها بالوصل لو أمكنا لم أقطع الليل بطول السهر

عمّا قريب حقّ فيها الهنا بيمن ذى العودة بعد السّفر

و يحمد الناس نجاح الإياب بكلّ صنع مستجدّ غريب

و يكتب الفال على كلّ باب نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ

[سورة الصف، الآية: ۱۳]

ما لذّة الأملاك إلّا القنص لأنه الفال بصيد العدا

كم شارد جرّع فيه الغصص و أورد المحروب ورد الردى

و كم بدا الفحص لنا من حصص قد جمع البأس بها و الندى

و منها بعد أبيات من الوزن و الروى:

مولاى مولاى، و أنت الذى جدّدت للأملاك عهد الجلال

و الشمس و البدر من العوّد لمّا رأت منك بديع الجمال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۱۹

و الروض فى نعمته يغتدى بطيب ما قد حزته من خلال

بشراك بشراك بحسن المآب تستضحك الروض بثغر شنيب

و دمت محروس العلا و الجناب بعصمة اللّه السميع المجيب

انتهى ما انتقيته من كلام ابن زمرك من كتاب ابن الأحمر، رحمه اللّه تعالى. و قد عرفت منه ما تسنّى للغنى بالله بن الأحمر من الفتوحات و السعود و نفاذ الأمر على ملوك المغرب، فهو الأحقّ بقول لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

ملك إذا عانيت منه جبينه فارقته و النور فوق جبينى

و إذا لثمت يمينه و خرجت من أبوابه لثم الملوك يمينى

و كان الغنى بالله المذكور معتقدا فى الصالحين، حتى إنه كتب و هو بفاس مخلوع إلى ضريح ولى اللّه سيدى أبى العباس السبتى بمراكش، و من إنشاء وزيره لسان الدين على لسانه:

[الخفيف]

يا ولىّ الإله أنت مطاع

الأبيات و النثر بعدها، و قد ذكرتهما فى الباب الخامس فراجعه، و كان ذلك بفضل اللّه تعالى عنوان رجوعه إلى ملكه، و نظم تلك الأماكن فى سلكه، حتى حصل له من السعد ما لم يحصل لغيره حسبما يعلم ذلك من كلام لسان الدين و ابن زمرك و غيرهما.

[ترجمة أبى العباس أحمد بن جعفر، السبتى، الخزرجى، و ذكر بعض أحواله]

و السبتى المذكور: هو سيدى أبو العباس أحمد بن جعفر السبتى الخزرجى، الولى الصالح العالم العارف بالله، القطب، ذو الكرامات الشهيرة، و المناقب الكثيرة، و الأحوال الباهرة، و الفضائل الظاهرة، و الأخلاق الطاهرة، نزيل مراكش، و بها توفى سنة إحدى و ستمائة، و ولادته بسبتة عام أربعة و عشرين و خمسمائة، و دفن خارج مراكش، و قبره مشهور مقصود بإجابة الدعاء، و قد زرته مرارا كثيرة، فرأيت عليه من ازدحام الناس ما لا يوصف، و هو ترياق مجرّب.

قال لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى: كان سيدى أبو العباس السبتى- رضى اللّه عنه!- مقصودا فى حياته، مستغاثا به فى الأزمات، و حاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۲۰

و مبنى أمره على انفعال العالم عن الوجود، و كونه حكمة فى تأثير الوجود، له فى ذلك أخبار ذائعة و أمثال باهرة؛ و لمّا توفى ظهر هذا الأثر على تربته، و تشبّث بلحده، و انسحب على مكانه عادة حياته، و وقع الإجماع على تسليم هذه الدعوى، و تخطّى الناس مباشرة قبره بالصدقة إلى بعثها له من أماكنهم على بعد المدى، و انقطاع الأماكن القصى، تحملهم أجنحة نيّاتهم فتهوى إليه بمقاصدهم من كلّ فج عميق، فيجدون الثمرة المعروفة و الكرامة المشهورة.

و قال ابن الزيات: كان أبو العباس قد أعطى بسطة فى اللسان، و قدرة على الكلام، لا يناظره أحد إلّا أفحمه، و لا يسأله إلّا أجابه، كأنّ القرآن و الحجج على طرف لسانه حاضرة، يأخذ بمجامع القلوب، و يسحر العامّة و الخاصّة ببيانه، يأتيه المنكرون للإنكار فما ينصرفون إلّا مسلّمين منقادين، و شأنه كلّه عجيب، و هو من عجائب الزمان.

و حدّثنى مشايخنا أنهم سمعوه يقول: أنا القطب.

و حدّثنى أبو الحسن الصنهاجى من خواصّ خدّامه قال: خرجت معه مرة لصهريج غابة الرمّان يوم عرفة، فجلسنا هناك و صلّينا، فقال لى: إنما سمى هذا اليوم يوم عرفة؛ لانتشار الرحمة فيه لمن تعرّف إليه بالطاعات، و قد فاتنا عرفة، فتعال نمثّل بهذا المكان و نعمل كما يعملون، لعلّ اللّه تعالى يتغمّدنا برحمته معهم، فعمل مكانا دائرا بعين الكعبة، و محلّ عنصر الماء الحجر، و موضعا آخر مقام إبراهيم، فطاف بالعين أسبوعا و أنا أطوف بطوافه، و كبر على العنصر فى كلّ طواف، و صلّى قبل المقام ركعتين تامّتين، و أطال فى سجود الثانية، ثم استند إلى الشجرة ثم قال لى: يا علىّ، اذكر كلّ حاجة لك من حوائج دنياك تقض، فإنّ اللّه تعالى وعد فى هذا اليوم من تعرّف له أن يقضى حوائجه، فقلت له: ما أريد إلّا التوفيق، فقال لى: ما خرجت معك من باب المدينة حتى وفقت، فسألته عن حاله من بدايته إلى نهايته، و بم تنفعل له الأشياء و يستجاب له الدعاء؟ و لم صار يأمر بالصدقة و الإيثار من شكا إليه حالا أو

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۲۱

تعذّر عليه مطلب فى هذه الدار؟ فقال لى: ما آمر الناس إلّا بما ينتفعون به، و إنى لمّا قرأت القرآن و قعدت بين يدى الشيخ أبى عبد اللّه الفخار تلميذ القاضى عياض و نظرت فى كتب الأحكام و بلغت من السنّ عشرين سنة وجدت قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ [سورة النحل، الآية: ۹۰] فتدبرته و قلت: أنا مطلوب، فلم أزل أبحث عنها إلى أن وقفت على أنها نزلت حين آخى النبى صلى اللّه عليه و سلم بين المهاجرين و الأنصار، و أنهم سألوا النبى صلى اللّه عليه و سلم أن يعلمهم حكم المواخاة، فأمرهم بالمشاطرة، ففهمت أنّ العدل المأمور به فى الآية هو المشاطرة، ثم نظرت إلى حديث «تفترق أمتى على ثلاثين فرقة - الحديث» و أنه صلى اللّه عليه و سلم قاله صبيحة اليوم الذى آخى فيه بين المهاجرين و الأنصار، و ذكر له الأنصار أنهم شاطروا المهاجرين، فقال لهم ذلك بأثره، فعلمت أنّ الذى هو عليه و أصحابه المشاطرة و الإيثار، فعقدت مع اللّه تعالى نيّة أن لا يأتينى شىء إلّا شاطرت فيه الفقراء، فعملت عليه عشرين سنة، فأثمر لى الحكم بالخاطر، فلا أحكم على خاطرى بشىء إلّا صدق، فلمّا أكملت أربعين سنة راجعت تدبّر الآية فوجدت الشطر هو العدل، و الإحسان ما زاد عليه، فعقدت مع اللّه تعالى نيّة لا يأتينى قليل و لا كثير إلّا أمسكت ثلثه و صرفت الثلثين للّه تعالى، فعملت عليه عشرين سنة، فأثمر لى الحكم فى الخلق بالولاية و العزل فأولى من شئت، و أعزل من شئت، ثم نظرت بعد ذلك فى أوّل ما فرضه اللّه تعالى على عباده فى مقام الإحسان، فوجدت شكر النعمة، بدليل إخراج الفطرة عن المولود قبل أن يفهم، و وجدت أصناف من تصرف إليهم الصدقات الواجبة سبعة و سبعة أصناف أخر أصرفها فيها للإحسان و الزيادة، و ذلك أنّ لنفسك عليك حقّا، و للزوجة حقّا، و للرحم حقّا، و لليتيم حقّا، و للضيف حقّا، و ذكر صنفين آخرين، فانتقلت لهذه الدرجة، و عقدت مع اللّه تعالى عقدا أنّ كلّ ما يأتينى أمسك سبعيه حقّ النفس و حقّ الزوجة و أصرف الخمسة أسباع لمستحقّيها، فأقمت عليه أربعة عشر عاما، فأثمر لى الحكم فى السماء، فمتى قلت «يا ربّ» قال لى: لبّيك، ثم قال لى: إنها نهايتى بتمام عمرى، و هو أن تنقضى لى ستة أعوام تكملة العشرين عاما.

قال الصنهاجى: فأرّخت ذلك اليوم، فلمّا مات و حضرت جنازته تذكّرت التاريخ المكتوب، و حقّقت العدد، فنقصت من ستة أعوام

ثلاثة أيام خاصة، فيحتمل أن تكون من الشهور الناقصة، و اللّه سبحانه و تعالى أعلم بالصواب.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۲۲

و قال أبو بكر بن مساعد: جاء بعض السلاطين إلى أبى العباس و هو راكب، و قال له:

إلى متى تحيّرنا و لا تصرّح لنا عن الطريق؟ فقال له: هو الإحسان، فقال له: بيّن لى، فقال له:

كلّ ما أردت أن يفعله اللّه تعالى معك فافعله مع عبيده.

و قال له أبو الحسن الخباز: أما ترى ما فيه الناس من القحط و الغلاء؟ فقال: إنما حبس المطر لبخلهم، فلو تصدّقوا لمطروا، فقل لأصحابك الفلاحين: تصدّقوا بمثل ما أنفقتم تمطروا، فقال له: لا يصدقنى أحد، و لكن مرنى فى خاصة نفسى، فقال له: تصدّق بمثل ما أنفقت، فقال له: إنّ اللّه تعالى لا يعامل بالدّين، و لكن أستسلف، فاحتال و تصدّق بها كما أمره، قال: فخرجت إلى البحيرة التى عمرتها و الشمس شديدة الحرّ، فأيست من المطر، و رأيت جميع ما غرست مشرفا على الهلاك، فأقمت ساعة فإذا سحابة أمطرت البحيرة حتى رويت، و ظننت أنّ الدنيا كلّها مطرت، فخرجت فإذا المطر لم يتجاوزها؛ انتهى.

و الحكايات عنه فى مثل ذلك كثيرة.

و قال ابن الخطيب القسطمينى فى رحلته: حضرت عند الحاج الصالح الورع الزاهد أبى العباس أحمد بن عاشر بمدينة سلا، و قد سأله بعض الفقراء عن كرامة الأولياء، فقال له: لا تنقطع بالموت الكرامة، انظر إلى السبتى، يشير إلى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبى العباس السبتى المدفون بمراكش، و ما ظهر عند قبره من البركات فى قضاء الحاجات بعقب الصدقات، سمعت يهوديّا بمراكش يلجأ لذكره و ينادى باسمه فى أمر أصابه مع المسلمين، فسألته عن سببه، فأخبر أنه وجد بركته فى غير موطن، فسألته عمّا بدا له فى وقت، فقال لى: و حقّ ما أنزل على موسى بن عمران ما أذكر لك إلّا ما اتفق لى، سريت ليلة مع قافلة فى مفازة، فعرجت دابتى، فما شككت فى قتلى و سلب مالى، فجلست و بكيت، و بينى و بين الناس بعد، و قلت: يا سيدى أبا العباس، خاطرك، قال لى: و اللّه ما أتممت الكلام إلّا و أهل القافلة أصابهم سبب وقفوا به، و ضربت دابتى، و خفّ عرجها، ثم زال، و اتّصلت بالناس، فقلت له:

لم لم تسلم؟ فقال: حتى يريد اللّه تعالى، و عجبت من كون ذلك من يهودى، و هذه شهادة من عدوّ فى الدين.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۲۳

و لقد وقفت على قبره مرات، و سألت اللّه تعالى فى أشياء يسّر لى فيها سؤلى: منها أن أكون ممّن يشتغل بالعلم و يوصف به، و أن ييسّر علىّ فهم كتب عينتها، فيسّر اللّه تعالى علىّ ذلك فى أقرب مدة.

و كان السبتى آية فى أحواله، ما أدرك صحبته إلّا الخواصّ من الناس، و كان أصل مذهبه الحضّ على الصدقة، و كان أمره عجبا فى إجابة الدعاء بنزول المطر، و اختصاصه بمكان دون آخر، و قال لأصحابه: أنا القطب، و كان تفقّه على أبى عبد اللّه الفخار، و وقفت على قبره، و له بركات و أنوار.

و كان السبتى آية فى المناظرة، و أوذى باللسان كثيرا جدا فصفح و تجاوز.

و رأى عبد الرحمن بن يوسف الحسنى النبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى النوم، فقال له: يا رسول اللّه، ما تقول فى السبتى؟ قال: و كنت سيىء الاعتقاد فيه، فقال لى بعد أن تبسّم: هو من السّبّاق، قال: فقلت بيّن لى يا رسول اللّه، فقال: هو ممّن يمرّ على الصراط كالبرق، قال: فخرجت بعد الصبح، فلقينى أبو العباس، فقال لى: ما رأيت و ما سمعت؟ و اللّه لا تركتك حتى تعرفنى، فعرفته، فصاح: كلمة الصفا من المصطفى صلى اللّه عليه و سلم؛ انتهى ببعض اختصار.

و قال ابن الزيات: و حدّثنى أبو العباس الصنهاجى و غيره أنّ رجلا يعرف بابن الشكاك، و كان غنيّا فدار عليه الزمان و افتقر، حدّث أنه وصل لأبى العباس السبتى، و عليه ثوب خلق تظهر منه عورته، فشكا إليه حالته، فأخذ بيده إلى أن خرج معه من باب تاغزوت، فجاء إلى مطهرة هنالك، قال: فدخل أبو العباس المطهرة و تجرّد من أثوابه و نادانى، و قال لى: خذ هذه الثياب، فأخذتها، و كان بعد

العصر، فأردت أن أرى ما يكون من أمره، فصعدت إلى حائط هناك إلى قرب المغرب، فإذا بفتى خرج من الباب على دابة معه رزمة ثياب، فلمّا رأيته نزلت إليه، فقال لى: أين الفقيه أبو العباس؟ فقلت:ها هو فى الساقية عريان، فقال لى: أمسك الدابّة، فسمعت الفقيه يقول له: أين تلك الثياب؟ فأخذها منه، و خرج، فلمّا رآنى قال لى: و ما لك هنا؟ قلت: يا سيدى، خفت عليك، فلم أقدر على الانصراف و أتركك، فقال لى: أفترى الذى فعلت ما فعلت له يتركنى؟ ثم سألت الفتى عن سبب وصوله إليه، فذكر له أنّ إحدى الكرائم أمرته أن يحمل إليه تلك الثياب، و قالت له: لا تدفعها إلّا للفقيه، و لا يلبسها إلّا هو، و هذه قصّة صحيحة مشهورة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۲۴

و قال ابن الخطيب: و روضته بباب تاغزوت أحد أبواب مراكش غير حافلة البناء، ربما يتبرّع متبرّع باحتفالها فلا تساعده الأقدار، و زرتها، فرأيت فى داخلها أشياخا من أهل التعفّف و التصوّف يسارقون خفية الناظر إلى مساقط رحمات اللّه تعالى عليها لكثرة زائريها، فيقتحم ذو الحاجة بابها خالعا نعله مستحضرا نيّته و يقعد بإزاء القبر و يخاطبه بحاجته، و يعين بين يدى النجوى صدقة على قبره، و يدسّها فى أوانى فى القبر معدّة لذلك، و من عجز عن النقدين تصدّق بالطعام و نحوه، فإذا خفّ الزائرون آخر النهار عمد القائم إلى التربة إلى ما أودع هناك فى تلك الأوانى و فرّقه على المحاويج الحافّين بالروضة، و يحصون كلّ عشية، و يعمّهم الرزق المودع فيها، و إن قصر عنهم كملوه فى غده.

قال ابن الخطيب لسان الدين: و ترافع خدام الروضة لقاضى البلد، و تخاصموا فى أمر ذلك الرزق المودع هناك، فسألهم القاضى عن خرجه اليوم، فقالوا: يحصل فى هذه الأيام فى اليوم الواحد ثمانمائة مثقال ذهبا عينا، و ربما وصل فى بعض الأيام لألف دينار فما فوقها، فروضة هذا الولىّ ديوان اللّه تعالى فى المغرب لا يحصى دخله و لا تحصر جبايته، فالتبر يفيض، و اللجين يسيل، و ذوو الحاجات كالطير تغدو خماصا و ترجع بطانا، يختصّ برحمته من يشاء و اللّه ذو الفضل العظيم.

و قال: و أنا ممّن جرّب المنقول عن القبر، فاطّرد القياس، و تزيّفت الشبهة، و تعرفت من بدء زيارته ما تحقّقت من بركته، و شهد على برهان دعوته؛ انتهى.

و قال الشيخ أبو الحجاج يوسف التادلى فى كتابه «التشوّف، إلى رجال التصوّف»: كان أبو العباس جميل الصورة، أبيض اللون، حسن الثياب، فصيح اللسان، مقتدرا على الكلام، حليما، صبورا، يحسن إلى من يؤذيه، و يحلم على من يسفه عليه، رحيما عطوفا محسنا إلى اليتامى و الأرامل، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الطرق و السوق، و يحضّ على الصدقة، و يذكر فى فضلها آيات و أحاديث، و يأخذها و يفرقها على المساكين، و يرد أصول الشرع إلى الصدقة، و يفسّرها بها، و يقول: معنى قول المصلّى «اللّه أكبر» أى: من أن نضنّ عليه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۲۵

بشىء، فمن رأى شيئا من متاع الدنيا فى نفسه أكبر فلم يحرم و لا كبر، و معنى رفع اليدين للتكبير: تخلّيت من كلّ شىء لا قليلا و لا كثيرا، و هكذا يتكلّم بنحو هذا فى جميع العبادات، و يقول: سرّ الصوم أن تجوع، فإذا جعت تذكّرت الجائع، و ما يقاسيه من نار الجوع، فتتصدّق عليه، فمن صام و لم يعطف على الجائع فكأنه لم يصم، إلى غير ذلك من كلامه فى مثل هذا.

و كان إذا أتاه امرؤ يأمره بالصدقة، و يقول له: تصدّق، و يتّفق لك ما تريده، و أخباره فى ذلك كثيرة عجيبة.

قال التادلى: و حدّثنى ولده الفقيه أبو عبد اللّه عن أبيه أنه قال: كان ابتداء أمرى و أنا صغير أنى سمعت كلام الناس فى التوكل، ففكّرت فى دقيقه فرأيت أنه لا يصحّ إلّا بترك شىء، و لم يكن عندى منه بدّ، فتركت الأسباب، و اطّرحت العلائق، و لم تتعلّق نفسى بمخلوق، فخرجت سائحا متوكّلا، و سرت نهارى كلّه، فأجهدنى الجوع و التعب، و قد نشأت فى رفاهية من العيش، و ما مشيت قطّ على قدمى، فبلغت قرية فيها مسجد، فتوضّأت و دخلت المسجد فصلّيت المغرب ثم العشاء، و خرج الناس، فقمت لأصلّى، فلم أقدر من شدّة الجوع و التألّم بالمشى، فصلّيت ركعتين، و جلست أقرأ القرآن إلى أن مضى جزء من الليل، فإذا قارع يقرع الباب بعنف،

فاستجاب له صاحب الدار، فقال له: هل رأيت بقرتى؟ فقال: لا، فقال:

إنها ضلّت، و قد أكثر عجلها من الحنين فطلبها فلم نجدها فى القرية، فقال أحدهم: لعلّها فى المسجد وقت العتمة، ففتحوا باب المسجد و دخلوا فوجدونى، فقال صاحب البقرة: ما أظنّك أكلت الليلة شيئا، فذهب و جاءنى بكسرة خبز و قدح لبن، ثم ذهب ليأتينى بالماء فوجد بقرته فى داخل الدار، فخرج لجيرانه و قال لهم: ما زالت البقرة من الدار، و ما كان خروجى إلّا لهذا الفتى الجائع فى المسجد، ثم رغّبنى أن أمشى معه لمنزله، فأبيت.

و كان من أول أمره يسكن فى الفندق و يعلّم الحساب و النحو و يأخذ الأجرة على ذلك، و ينفقها على طلبة العلم الغرباء، و يمشى فى الأسواق، و يذكّر الناس، و يضربهم على ترك الصلاة، و يأتى بالطعام على رأسه.

و بات ليلة عند الطلبة فارتفعت أصواتهم بالمذاكرة، فإذا بالحرس قد قرعوا باب الفندق، فقام إليهم القيّم بخدمته، فقالوا له: ما تعلمون أن من رفع صوته بالليل يقتل؟ ثم قعد اثنان من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۲۶

الحرس على باب الفندق ليحملونا إذا طلع الفجر للقصر، فجاء القيّم فأخبرنا فأدركنا خوف عظيم، و أيقنّا بالهلاك، فأخذ أبو العباس فى الضحك و لا يبالى، ثم خلا بنفسه عند السّحر ساعة ثم قال لنا: لا خوف عليكم، قد استوهبتكم من اللّه تعالى، و هذان الحرسيان الواقفان غدا يقتلان إن شاء اللّه تعالى، فقيل له: الجزاء عندك على الأفعال من الخير و الشّرّ، و هما لم يفعلا ما يوجب قتلهما، بل جزاؤهما يروّعان كما روّعانا، فقال: العلماء ورثة الأنبياء، و ترويعكم عظيم لا يقابله منكم إلّا القتل، فما زلنا نعارضه فى ذلك حتى قال: عقوبتهما أن يضرب كلّ واحد منهما مائة سوط، ثم اجتاز عبد اللّه الخرّاز صاحب الوقت بالجامع الأعظم، فوجد تابوته مفتوحا، و رأى الحرسيين على قرب، فلم يشكّ أنها حلّاه، فحملا إلى رحبة القصر قبل طلوع الفجر، فقال لنا أبو العباس: احضروا على ضربهما كما أراد قتلكم، فتبعناهما، و حضرنا حتى ضرب كلّ واحد مائة سوط.

و كراماته و مناقبه كثيرة لا تحصى.

و كان يقول: أصل الخير فى الدنيا و الآخرة الإحسان، و أصل الشّرّ فيهما البخل، قال اللّه تعالى فَأَمَّا مَنْ أَعْطى [سورة الليل، الآية: ۵] الآية و قال عن إبليس ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ [سورة الأعراف، الآية: ۱۷] الآية و قال وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ [سورة التوبة، الآية: ۷۵] الآية و قال وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ [سورة الحشر، الآية: ۹] و قال إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ [سورة القلم، الآية: ۱۷] و قال وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ [سورة آل عمران، الآية: ۱۳۳] و قال لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ [سورة البقرة، الآية: ۱۷۷] و قال إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ [سورة الأحزاب، الآية: ۷۲] الآية فهذه الأمانة هى الرزق، فأعطت السماوات ما فيها من الماء و هو المطر، و الأرض ما فيها من الماء النازل من الجبال، و الجبال ما فيها كذلك، و أنبتت الأرض و أبت إمساكها، فخزن الإنسان جميعها عنده و منع المساكين إنه كان ظلوما جهولا، و فى الحديث «هم الأقلّون و ربّ الكعبة، إلّا من قال هكذا و هكذا- الحديث» و لمّا أراد اللّه تعالى إهلاك فرعون و قومه دعا عليهم موسى بالبخل، فقال رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ [سورة يونس، الآية: ۸۸] إلى قوله: دَعْوَتُكُما [سورة يونس، الآية: ۸۹] و كان رضى اللّه عنه فى آخر عمره كثيرا ما يقرأ هذه الآية أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى [سورة النجم، الآية: ۳۳] إلى قوله:

سَوْفَ يُرى [سورة النجم، الآية: ۴۰] و كان يقول: من قال إنّ اللّه تعالى لا يجازى على الصدقات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۲۷

فقد وافق اليهود على الفرية على اللّه تعالى لأنهم قالوا يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ [سورة المائدة، الآية: ۶۴] أى لا يجازى على الصدقات، قال اللّه تعالى غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ إلى آخره أى يجازى على العطاء كيف شاء. و كان يقول فى قوله تعالى وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ [سورة التوبة، الآية: ۳۴] الآية. إنما كويت هذه المواضع لأنّ الغنى يعرض عن المسكين بوجهه، ثم بجنبه، ثم بظهره،

فعوقبت هذه المواضع بالكيّ بالنار لإعراضه عن الفقير، و منازعه رحمه اللّه تعالى فى أمثال هذا كثيرة؛ انتهى ملخصا.

و حدّث أبو إسحاق إبراهيم بن أبى يعمور أنه دخل صحبة الشيخ سيدى أبى العباس السبتى إلى الأمير السيد أبى سعيد عثمان يعوده، فقال له: ادع اللّه تعالى لى أيها الشيخ، فقال له: ارجع إلى اللّه تعالى حقّ الرجوع بحيث تتحقّق أنه الممرض و المعافى، و اخرج عن بعض ما عندك من فضول الدنيا لأبناء الجنس، لتكون ممّن وقى شحّ نفسه، فحينئذ يحصل لك ما ترجوه من الدعاء، ثم التفت إلى الحاضرين و قال: فى المرض فوائد لا ينبغى أن تجهل:

الأولى معرفة قدر العافية، الثانية تمحيص بعض الذنوب، الثالثة توقّع الثواب، الرابعة تنقية الجسم من فضول الأخلاط، الخامسة كثرة ذكر اللّه تعالى و التضرّع إليه، السادسة حدوث الرقة و الشفقة، السابعة- و هى العظمى- الصدقة و الخروج عن رذيلة البخل؛ انتهى.

و حدث الكاتب أبو القاسم بن رضوان عن أبى بكر بن منظور عن بعض أعيان مراكش أنه توفى و أوصى ابنا له كان من أهل البطالة أن يعمد إلى ألف دينار من متخلّفه، فيدفعها للشيخ سيدى أبى العباس السبتى، ففعل، و قال للشيخ: إنّ أبى توفى و أوصانى أن أدفع إليك هذه الألف دينار تضعها حيث شئت، فقال له الشيخ: قد قبلتها و صرفتها إليك، فقال له: يا سيدى، و ما تأمرنى أن أفعل بها؟ قال: خذها، قال: فانصرفت من عنده و سؤت ظنّا بقوله، ثم قلت:

و أنا أنفق مثل ذلك على عادتى فى الوجه الذى يلذّ لى، فلأفعلن بها ما أفعل بغيرها، فأخذتها فى محفظة، و خرجت ألتمس الزنى، فإذا امرأة على دابة و غلام يقودها، فأشرت إلى الغلام، فقال لى: نعم، و اتبعنى إلى بستان لى، فنزلت المرأة، فأدخلتها إلى قبة كانت فى البستان، و أخذ الغلام الدابة و صار ناحية، و قال: أغلق الباب، ففعلت، ثم أقبلت إلى القبة فإذا المرأة تبكى بكاء شديدا حتى طال بكاؤها، و بكيت لبكائها، فقلت لها: ما شأنك؟ فقالت: افعل ما دعوتنى لأجله، ودع عنك هذا، و نحيبها يزيد، فقلت لها: إنّ المعنى الذى دعوتك لأجله لا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۲۸

يصلح مع البكاء، بل مع الأنس و انشراح الصدر و زوال الانقباض و رفع الخجل، فقالت: نترك البكاء و نرجع للأنس على ما تحبّ و يوفى غرضك، فقلت: لا، حتى أعلم سبب بكائك، و ألححت عليها، فقالت: أتعرف حاجب الملك الذى سجنه؟ قلت: نعم، قالت: فأنا أبنته، و لم يبق له أحد غيرى، و قد سجنه الملك و أخذ أمواله، فما زلت أبيع ما ترك أبى و أنفقه عليه، حتى لم يبق بيدى شىء، فلمّا أعيتنى الحيلة فيما أنفقه ألجأت نفسى و وقفت هذا الموقف و أنا بكر ما رأى لى أحد وجها قطّ، فرميت لها بالألف دينار و قلت لها: و اللّه لا قربت منك على هذا الوجه أبدا، فأنفقى الدنانير على والدك إلى أن تنفد، و ابعثى لى غلامك أعلمه بمنزلى، و لازمى دارك، و استمرّى على صيانتك و إلّا فضحتك، و ترينى و اللّه لا أزال أبيع أملاكى و أنفقها على والدك حتى أموت أو يفنى كلّ ما أملكه، ثم خرجت ألتمس الغلام و إذا بجماعة يطلبون البنت، و قالوا: إن الملك رضى عن والدها، و ردّ عليه ضياعه و أملاكه، و وصله بعشرة آلاف دينار، و قعد يلتمس بنته فلم توجد، فسقط فى يد الغلام الذى كان مع الدابة، و ظنّ أنّ الأمر على ما جرى بينى و بين البنت، فبادرته و قلت له: لا عليك، فتجاهل فى خبرها حتى ينصرفوا، و دخلت إلى البنت و قلت لها: إنّ الملك قد رضى عن والدك، و ردّ عليه ماله، و وصله، فسيرى إلى دارك، فركبت دابتها و انصرفت، فدخلت على والدها فقال لها: أين كنت؟ و ما الذى أخرجك من دارك؟ و همّ بها، فقالت له: أخرج عنى كلّ من فى الدار، ففعل، فأخبرته أمرها مع الشاب من أوله إلى آخره، و رمت إليه بالألف دينار، و قالت له: هذا الذى أعطانى لأنفق عليك، فقال أبوها: هذا و اللّه هو الكبريت الأحمر، و اللّه لو كان أبوه كنافا ما أنفت أن أزوّجك منه، فوجّه العبد الذى كان معها إلى الشاب، و قال له: إنّ سيدى يدعوك، قال:

فخفت أن يوضع عنده الأمر على غير وجهه، ثم أقدمت إقدام من علم براءة نفسه، فدخلت عليه، فقام إلىّ و عانقنى، و قد عرف لى مقامى، و قال: أما الآن و أنت من أعيان الناس فقد قرّت بك عينى، و قال: و اللّه لو كان أبوك كنافا ما أنفت لبنتى أن أزوجك منها، فما قام من المجلس حتى وجّه إلى العدول و أشهد على نفسه بأنه زوّج ابنته فلانة من هذا الشاب، و نقدها عنه الشطر الأول من العشرة

آلاف دينار التى وصله بها الملك و أجلّ لها عنه الشطر الثانى، و أهدى لها من الحلى كذا و كذا، و من الثياب كذا و كذا، حتى أتى على أكثر أملاكه حتى أنفقها على ذلك، فحصل من إشارة الشيخ السبتى- رضى اللّه عنه!- فى تلك الألف دينار على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۲۹

أضعاف مضاعفة من الأموال، و ظفر ببنت حاجب الملك؛ انتهى.

[رجع إلى ترجمة ابن زمرك و بعض فوائده، عن الشاطبى]

رجع إلى ابن زمرك رحمه اللّه تعالى.

قال الشاطبى فى الإشارات و الإفادات ما صورته: إفادة- أفادنى صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد اللّه بن زمرك إثر إيابه إلى وطنه من رحلة العدوة فى علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثا:

الفقه فى اللغة، و هو النظر فى مواقع الألفاظ و أين استعملتها العرب، و من مثل هذا الوجه «قرم» و «عام» إذا اشتهى، لكن لا يستعمل «قرم» إلّا مع اللحم، و لا يستعمل «عام» إلّا مع اللبن، فتقول: عمت إلى اللبن، و كذلك قولهم: أصفر فاقع، و أحمر قان، و لا يقال بالعكس، و هذا كثير. و الثانية تحرى الألفاظ البعيدة عن طرفى الغرابة و الابتذال، فلا يستدلّ بالحوشى من اللغات و لا المبتذل فى ألسن العامة. و الثالثة اجتناب كلّ صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه؛ إذ المقصود الوصول فى بيان المعنى إلى أقصاه، و الإتيان بما يحصله سريعا و يمكنه فى الذهن، و تحرى كلّ صيغة تمكن المعنى و تحرّض السامع على الاستماع، و أخبرنى أنّ كتّاب المغرب يحافظون فى شعرهم و كتابتهم على طريقة العرب، و يذمّون ما عداها من طريقة المولدين، و أنها خارجة عن الفصاحة، و هذه المعانى الثلاثة لا توجد إلّا فيها.

و ذكر من شرح بديعية الحلى من المغاربة و هو الشيخ النحوى عبيد الثعالبى فى شواهد حسن الختام أنّ منه ختام قصيدة للكتاب البارع أبى عبد اللّه المعروف بابن زمرك الأندلسى مدح بها ملك المغرب عبد العزيز حين قدم عليه رسولا من صاحب الأندلس، و هو قوله:

[الطويل]

و لو أنشدت بين العذيب و بارق لقال رواة الغرب يا حبّذا الشرق

و لم يظهر لى كل الظهور دلالته لى على حسن الختام، و لا بدّ، فاللّه سبحانه أعلم.

[موشحة لابن زمرك فى مدح الرسول]

و قد أطلنا فى ترجمة ابن زمرك فلنختم نظامه بموشحة له زهرية مولدية تضمّنت مدح المصطفى صلى اللّه عليه و سلم، و هى هذه:

لو ترجع الأيام بعد الذهاب لم تقدح الأيام ذكرى حبيب

و كلّ من نام بليل الشباب يوقظه الدهر بصبح المشيب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۳۰

يا راكب العجز ألا نهضة قد ضيّق الدهر عليك المجال

لا تحسبن أنّ الصّبا روضة تنام فيها تحت فيء الظلال

فالعيش نوم و الردى يقظة و المرء ما بينهما كالخيال

و العمر قد مرّ كمرّ السحاب و الملتقى باللّه عمّا قريب

و أنت مخدوع بلمع السراب تحسبه ماء و لا تستريب

و اللّه ما الكون بما قد حوى إلّا ظلال توهم الغافلا

و عادة الظّلّ إذا ما استوى تبصره منتقلا زائلا

إنّا إلى اللّه عبيد الهوى لم نعرف الحقّ و لا الباطلا

فكلّ من يرجو سوى اللّه خاب و إنما الفوز لعبد منيب

يستقبل الرّجعى بصدق المتاب و يرقب اللّه الشهيد الرقيب

يا حسرتا! مرّ الصّبا و انقضى و أقبل الشيب يقصّ الأثر

و اخجلتا و الرحل قد قوّضا و ما بقى فى الخبر غير الخبر

و ليتنى لو كنت فيما مضى أدّخر الزاد لطول السّفر

قد حان من ركب التصابى إياب و رائد الرشد أطال المغيب

يا أكمه القلب بغين الحجاب كم ذا أناديك فلا تستجيب

«هل يحمل الزاد لدار الكريم» و المصطفى الهادى شفيع مطاع

فجاهه ذخر الفقير العديم و حبّه زادى و نعم المتاع

و اللّه سمّاه الرؤوف الرحيم فجاره المكفول ما إن يضاع

عسى شفيع الناس يوم الحساب و ملجأ الخلق لرفع الكروب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۳۱

يلحقنى منه قبول مجاب يشفع لى فى موبقات الذنوب

يا مصطفى و الخلق رهن العدم و الكون لم يفتق كمام الوجود

مزية أعطيتها فى القدم بها على كلّ نبىّ تسود

مولدك المرقوم لمّا نجم أنجز للأمّة وعد السعود

ناديت لو يسمح لى بالجواب شهر ربيع يا ربيع القلوب

أطلعت للهدى بغير احتجاب شمسا، و لكن مالها من غروب

[من تلامذة لسان الدين الطبيب ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا و الأديب أبو بكر بن جزى الكلبى]

و من تلامذة لسان الدين رحمه اللّه تعالى، الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا، و شرحه عليها من أبدع الشروح، و قد نقل فيه عن لسان الدين كثيرا، و اعتمد عليه فى أمور الطب، و قد طال عهدى به الآن، و هو من الكتب المشهورة بالمغرب، و لم أره بهذه الديار المشرقية.

و من تلامذة لسان الدين رحمه اللّه تعالى: الأديب الكاتب العالم العلامة القاضى أبو بكر بن جزىّ الكلبى، و أبوه الشيخ أبو القاسم بن جزىّ شيخ لسان الدين، و بيت بنى جزى بيت كبير مشهور بالمغرب و الأندلس، و قد عرّفنا فيما سبق بالشيخ أبى القاسم و ابنيه العلّامتين الناظمين الناثرين الكاتب أبى عبد اللّه محمد و القاضى أبى بكر المذكور، فليراجع فى الباب الثالث.

و رأيت بخطّ بعض علماء المغرب أنّ أبا بكر المذكور روى عن لسان الدين بن الخطيب- رحمه اللّه تعالى!- جميع تواليفه مع أنه مقاربه فى السّنّ، و لكن الإنصاف فى ذلك الزمان غير معدوم، و قد عرّف به لسان الدين فى «الإحاطة» و الذى فهمت من عبارته فى «الإحاطة» أنه إن عبر بصاحبنا فلا يطلقها غالبا إلّا على تلامذته، و ربما أطلقها على غيرهم كما لا يخفى على من مارس كلامه، رحمه اللّه تعالى! و أتقن تاريخ أهل المغرب و الأندلس، رحم اللّه تعالى الجميع!.

[من تلامذة لسان الدين أبو عبد اللّه الشريشى]

و من تلامذة لسان الدين رحمه اللّه تعالى: مؤدّب أولاد الملوك و معلمهم القرآن و سنّة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أبو عبد اللّه الشريشى، و هو الذى تولّى أولا نقل «الإحاطة» من مبيضتها، كما سبقت الإشارة إليه فى كلام حفيد السلطان ابن الأحمر، و أحكم نسخه، فكانت فى مجلّدات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۳۲

ستة، و كان لسان الدين ألقى إليه بالمبيضات اعتمادا منه عليه، و ثقة به؛ لاشتغال لسان الدين بأمور المملكة.

و من تلامذة لسان الدين: القاضى الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد اللّه بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربى.

قال فى «الإحاطة»: صاحبنا الفقيه الخطيب، كاتب الإنشاء بالباب السلطانى أبو محمد، نسيج وحده فى أصالة البيت و عفاف النشأة، مقصود المنزل، نبيه الصهر، معمّ مخول فى الأصالة، بارع الخطّ، جيّد القريحة، سيّال المداد، نشيط البنان، جلد على العمل، خطيب ناظم ناثر، قرأ بغرناطة، و ولى الخطابة بالمسجد الأعظم و القضاء سنتين ببلده فى حداثة السّنّ، ثم انتقل إلى غرناطة فجأجأت به الكتابة السلطانية داحضة بالحقّ، آوته إلى هضبة أمانة مستظهرة ببطل كفاية، فاستقلّ رئيسا فى غرض إعانتى و انتشالى من هفوة الكلفة على جلل الضعف و إلمام المرض. ثم كشفت الخبرة منه عند الحادثة على الدولة، و إزعاجها من الأندلس عن سوأة لا توارى، و عورة لا يرتاب فى أشنوعتها و لا يتمارى، فسبحان من علّم النفس فجورها و تقواها، إذ لصق بالداهى الفاسق فكان آلة انتقامه، و جارحة صيده، و أحبولة كيده، فسفك الدماء، و هتك الأستار، و مزّق الأسباب، و بدل الأرض غير الأرض، و هو يزقه فى أذنه زقوم النصيحة، و يستحله لقب الهداية، و يبلغ فى شدّ أزره إلى الغاية، عنوان عقل الفتى اختياره، يجرى فى سبيل دعوته طوالا، أخرق يسىء السمع فيسىء الإجابة، بدويّا قحّا جهوريّا ذاهلا عن عواقب الدنيا و الآخرة، طرفا فى سوء العهد و قلّة الوفاء، مردودا فى الحافرة، منسلخا من آية السعادة، تشهد عليه بالجهل يده، و يقيم عليه الحجج شرهه، و تبوئه هفوات الندم جهالته، ثم أسلم المحروم مصطنعه أحوج ما كان إليه، و تبرأ منه، و لحقته بعده مطالبة مالية لقى لأجلها ضغطا، و هو الآن بحال خزى، و احتقاب تبعات، و استدعيت شيئا من نظمه و نثره حال التصنيف ليترجم به، فكتب إلىّ ما نصّه: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۹؛ ص۱۳۲

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۳۳

يا سيّدا فاق فى مجد و فى شرف وفات سبقا بفضل الذات و السلف

و فاضلا عن سبيل الذمّ منحرفا و عن سبيل المعالى غير منحرف

و تحفة الزمن الآتى به فلقد ربا بما حازه منها على التّحف

و معدنا لنفيس الدّرّ فهو لما حواه منه لدى التشبيه كالصدف

و بحر علم جميع الناس مغترف منه، و نيل المعالى خير مؤتلف

و سابقا بذّ أهل العصر قاطبة فالكلّ فى ذاك منهم غير مختلف

من ذا يخالف فى نار على علم أو يجحد الشمس نورا و هو غير خفى

ما أنت إلّا وحيد العصر فى شيم و فى ذكاء و فى علم و فى ظرف

للّه من منتم للمجد منتسب بالفضل متّسم، بالعلم متّصف

للّه من حسب عدّ و من كرم قد شاده السلف الأخيار للخلف

إيه أيا من به تبأى الوزارة إذ كنت الأحقّ بها فى الذات و الشرف

يا صاحب القلم الأعلى الذى جمعت فيه المعالى فبعض البعض لم أصف

يا من يقصّر وصفى فى علاه و من أنسى مديح حبيب فى أبى دلف

شرّفتنى عند ما استدعيت من نظمى نظما تدوّنه فى أبدع الصحف

و ربما راق ثغر فى تبسّمه حتى إذا ناله إلمام مرتشف

أجلّ قدرك أن ترضى لمنتجع بسوء كيلته حظّا مع الحشف

هذا، و لو أننى فيما أتيت به نافحت بالطيب زهر الروضة الأنف

لكنت أفضى إلى التقصير من خجل إذ لست بالبعض ممّا تستحقّ أفى

فحسبى العجز عمّا قد أشرت به فالعجز حتما قصارى كلّ معترف

لكن أجبت إلى المطلوب ممتثلا و إن غدوت بمرمى القوم كالهدف

فانظر إليها بعين الصفح عن زلل و اجعل تصفّحها من جملة الكلف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۳۴

بقيت للدهر تطويه و تنشره تسمو من العزّ باسم غير منصرف

ثم ذكر نثرا، و أنّ مولده بوادى آش آخر عام تسعة و سبعمائة، و تولّى الخطابة و الإمامة بها عام ثمانية و ثلاثين و سبعمائة، ثم ولى القضاء بها و بأعمالها عام ثلاثة و أربعين و سبعمائة، ثم انتقل للحضرة آخر رجب عام ستة و خمسين و سبعمائة، و من شعره قوله: [الطويل]

ألا أيها الليل البطىء الكواكب متى ينجلى صبح بليل المآرب

و حتى متى أرعى النجوم مراقبا فمن طالع منها على إثر غارب

أحدّث نفسى أن أرى الركب سائرا و ذنبى يقصينى بأقصى المغارب

فلا فزت من نيل الأمانى بطائل و لا قمت فى حقّ الحبيب بواجب

فكم حدّثتنى النفس أن أبلغ المنى و كم علّلتنى بالأمانى الكواذب

و ما قصّرت بى عن زيارة قبره معاهد أنس من وصال الكواعب

و لا حبّ أوطان نبت بى ربوعها و لا ذكر خلّ حلّ فيها و صاحب

و لكن ذنوب أثقلتنى فها أنا من الوجد قد ضاقت علىّ مذاهبى

إليك رسول اللّه شوقى مجدّدا فيا ليتنى يمّمت صدر الركائب

فأعملت فى تلك الأباطح و الرّبا سراى مجدّا بين تلك السباسب

و قضّيت من لثم البقيع لبانتى و جبت الفلا ما بين ماش و راكب

و روّيت من ماء بزمزم غلّتى فللّه ما أشهاه يوما لشارب

حبيبى شفيعى منتهى غايتى التى أرجّى و من يرجوه ليس بخائب

محمد المختار و الحاشر الذى بأحمد حاز المجد من كلّ جانب

رؤوف رحيم خصّنا اللّه باسمه و أعظم بماح فى الثناء و عاقب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۳۵

رسول كريم رفّع اللّه قدره و أعلى له قدرا رفيع الجوانب

و شرّفه أصلا و فرعا و محتدا يزاحم آفاق السما بالكواكب

سراج الهدى ذو الجاه و المجد و العلا و خير الورى الهادى الكريم المناسب

هو المصطفى المختار من آل هاشم و ذو الحسب العدّ الرفيع المناصب

هو الأمد الأقصى، هو الملجأ الذى ينال به مرغوبه كلّ راغب

إمام النبيين الكرام، و إنه لكالبدر فيهم بين تلك الكواكب

بشير نذير مفضل متطوّل سراج منير بذّ نور الكواكب

شريف منيف باهر الفضل كامل نفيس المعالى و الحلى و المناقب

عظيم المزايا ما له من مماثل كريم السجايا ما له من مناسب

ملاذ منيع ملجأ عاصم لمن يلوذ به من بين آت و ذاهب

جليل جميل الخلق و الخلق ما له نظير، و وصف اللّه حجّة غالب

و ناهيك من فرع نمته أصوله إلى خير مجد من لؤىّ بن غالب

أولى الحسب العدّ الرفيع جنابه بدور الدياجى أو صدور الكتائب

له معجزات ما لها من معارض و آيات صدق ما لها من مغالب

تحدّى بهنّ الخلق شرقا و مغربا و ما ذاك عمّن حاد عنها بغائب

فدونكها كالأنجم الشّهب عدة و نور سنا لا يختفى للمراقب

و إحصاؤها مهما تتبّعت معوز و هل بعد نور الشمس نور لطالب

لقد شرّف اللّه الوجود بمرسل له فى مقام الرّسل أعلى المراتب

و شرّف شهرا فيه مولده الذى جلا نوره الأسنى دياجى الغياهب

فشهر ربيع فى الشهور مقدّم فلا غرو أنّ الفخر ضربة لازب

فللّه منه ليلة قد تلألأت بنور شهاب بيّن الأفق شاهب

ليهن أمير المسلمين بها المنى و أن نال من مولاه أسنى الرغائب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۳۶

على حين أحياها بذكر حبيبه و ذكر الكرام الطاهرين الأطايب

و ألّف شملا للمحبين فيهم فسار على نهج من الرشد لاحب

فسوف يجازى عن كريم صنيعه بتخليد سلطان و حسن عواقب

و سوف يريه اللّه فى نصر دينه غرائب صنع فوق تلك الغرائب

فيحمى حمى الإسلام عمّن يرومه بسمر العوالى أو بيض القواضب

و يعتزّ دين اللّه شرقا و مغربا بما سوف يبقى ذكره فى العجائب

إلهى ما لى بعد رحماك مطلب أراه بعين الرشد أسنى المطالب

سوى زورة القبر الشريف و إنه لموهبة فاقت جميع المواهب

عليه سلام اللّه ما لاح كوكب و ما رافق الأظعان حادى الركائب

و قال لسان الدين رحمه اللّه تعالى: و ليس لهذا الرجل انتحال لغير الشعر و الكتابة و غير هذا الشعر قران، فقلّ أن ينتهى هذا الشعر فى

الضعة و الاسترذال إلى ما دون هذا النمط، فهو بغير ثان شعرا و شكلا و بلدا، لطف اللّه تعالى بنا و به! انتهى باختصار.

[من تلامذة لسان الدين الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون]

و من تلامذة لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون، و من نظمه على لسان من يرمى بالداء العضال فى فرج عبد بن زمرك الوزير بعد ابن الخطيب: [الكامل]

قالوا كلفت به غلاما حالكا فأجبتهم فى فيه ما يرمى المهج

مهما جننت بحسنه و بحبّه علّقت فوقى منه حرزا من سبج

و رأيت بخطّ الوادى آشى ما صورته: وجدت بخطّ لسان الدين، و خاتمه أعلام البيان المجيدين، ذى الوزارتين أبى عبد اللّه بن الخطيب رحمه اللّه تعالى فى طرة اسم الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون، المختصّ به، المتأدّب بما انفرد به من انتساخ تواليف ابن الخطيب ما نصّه: يسقط هذا الساقط من الديوان؛ انتهى.

و لعلّ لسان الدين إنما أمر بإسقاطه من «الإحاطة» لما يتّهم به من معنى بيتيه السابقين، و يحتمل أن يكون لغير ذلك، و اللّه سبحانه و تعالى أعلم.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۳۷

الباب الثامن [من القسم الثانى] فى ذكر أولاد لسان الدين

اشارة

فى ذكره أولاده الرافلين فى حلل الجلالة، المقتفين أوصافه الحميدة و خلاله، الوارثين العلم و العمل و الرياسة و المجد عن غير كلاله، و وصيته لهم الجامعة لآداب الدين و الدنيا، المشتملة على النصائح الكافية و الحكم الشافية من كل مرض بلا ثنيا، المنقذة من أنواع الضلالة، و ما يتبع ذلك من المناسبات القوية، و الأمداح النبوية، التى لها على حسن الختام أظهر دلاله.

[عدة أولاد لسان الدين و ترجمتهم بقلمه]

اعلم- وفّقنى اللّه تعالى و إياك لمرضاته! و جعلنا ممّن يعتبر بالدهر فى معضاته!- أنّ أولاد لسان الدين ثلاثة: عبد اللّه، و محمد، و على، و كلّهم حدّث عن أبيه و عن ابن الجياب.

أما محمد فقد نال حظّه من التصوّف، و لم يكن له إلى خدمة الملوك تشوّف، و لم يحضرنى الآن نصّ من أنبائه أكتبه لعدم وجود الكتب التى هى مظان ذلك، إذ قد تركتها بالمغرب.

و قد سبق فيما مرّ من كلام ابن خلدون أنّ أولاد لسان الدين كانوا من ندماء السلطان و أهل خلوته، و أنّ عليّا كان خالصة السلطان، رحم اللّه تعالى الجميع!

و أمّا عبد اللّه فقد كتب بالعدوتين، لملوك الحضرتين، و تولّى القيادة و الكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدبّر الدولة، و أكثر الناس بها كالخواصّ حوله، و لا أعلم الآن ما آل إليه أمره بعد وفاة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۳۸

أبيه، و قد ألمّ ببعض التعريف بمبدإ أحواله أبوه لسان الدين فى كتاب «الإحاطة، فى تاريخ غرناطة»، فقال فى حقّه ما ملخّصه: عبد اللّه بن محمد بن على بن سعيد بن الخطيب التلمسانى، حسن الشكل، جيّد الفهم، يغطّى منه رماد السكون جمرة حركة، منقبض عن

الناس، قليل البشاشة، حسن الخطّ، وسط النظم، كتب عن الأمراء بالمغرب، و أنشدهم، و أقبض صكوكهم بالإقطاعات و الإحسان، و اختال فى خلعهم. ثم لمّا كانت الفتنة كتب عن سلطان وطنه، معزّز الخطّة بالقيادة. قرأ على قاضى الجماعة الخطيب أبى القاسم الحسنى، و الخطيب أبى سعيد فرج بن لب التغلبى، و استظهر ببعض المبادىء فى العربية، و استجيز له من أدركه ببلاده من أهل المشرق و المغرب. و شعره مترفّع عن الوسط إلى الإجادة، يكلله عذر الحداثة.

[قصيدة فى مدح الرسول من شعر عبدالله بن لسان الدين]

فمنه قوله فى مولد أربعة و ستين و سبعمائة: [المتقارب]

بحقّ الهوى يا حداة الحمول قفوها قليلا بتلك الطلول

معاهد مرّت عليها السحاب ببرق خفوق و دمع هموم

أحنّ إليها حنين العشار و أبكى عليها بشجو طويل

فيا سعد، عرّج عليها الركاب ففيها لقلبى شفاء الغليل

سقاها من المزن صوب الغمام و حيّا بعرف النسيم العليل

و لا زال فيها يجرّ الذيول فيحيى النفوس بجرّ الذيول

لئن حلت يا ربع عن عهدنا فعهد الهوى ليس بالمستحيل

و ممّا شجانى و ميض خفوق كقلبى غداة النوى و الرحيل

و ميض إذا بلّه المزن و هنا يضىء سناه كعضب صقيل

أطار الفؤاد فؤاد المشوق و أغرى السّهاد بطرف كليل

فبتّ أطاول ليل التمام بوجد جديد و صبر محيل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۳۹

و دمع يساجل دمع الغمام و شجو الحمائم عند الهديل

فيا ليت شعرى و هل من سبيل على الوجد يوما بصبر جميل

و هل يسمح الدهر بعد العناد بجبر الكسير و عزّ الذليل

و هل راجع عهدنا بالحمى على رغم دهر ظلوم جهول

فيا حسن مأوى عزاء جميل و يا طيب مأوى بظلّ ظليل

و فى ذمّة اللّه ركب سروا يجدّون و الليل مرخى السدول

نشاوى بكأسين كأس الهوى و كأس من الأمن مثل الشّمول

يؤمّون بالعيس أمّ القرى و قبر النبىّ الشفيع الرسول

ديار بها الوحى وحى السما تنزّل، أكرم به من نزول

بها أشرق الدين كالشمس نورا و آن من الشرك وقت الأفول

فيا حادى العيس يطوى الفلا بوخد القلاص و نصّ الذّميل

سفائن آل طواها السّرى و شقّ الحزون و قطع السهول

نشدتك بالبان بان الحمى و بالمورد العذب و السلسبيل

إذا ما حللت لدى طيبة و جئت محلّ الرضا و القبول

و قبرا ثوى فيه خير الورى و بشرى الكليم و فخر الخليل

فأبلغ تحيّة صبّ مشوق عدته عوادى الزمان الخذول

و قل يا رسول الهدى و الشفيع إذا ضاق صدر أب عن سليل

عليك الصلاة و طيب السلام يحيّيك عند الضحى و الأصيل

نبيّ كريم رؤوف رحيم بنصّ الكتاب و حكم العقول

إمام الهدى المجتبى المصطفى بأزكى شهيد و أهدى دليل

به يظهر اللّه دين الهدى و علّم كيف سواء السبيل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۴۰

و قام بأعباء دين الإله أتمّ القيام بفعل و قيل

فأكرم بليلة ميلاده على كلّ وقت و عصر و جيل

لك اللّه من ليلة فضلها يجرّ على النجم فضل الذيول

و أيّد بالنصر مولى أقام مواسمها فعل برّ وصول

أعاد بها الليل مثل النهار بوجه كريم و فعل جميل

و أبدى الرضا نحوها و القبول و أكرم به من حفيّ كفيل

سميّ النبيّ الكريم الرسول و سيف الإله العليّ الجليل

محمد المرتجى المستجار مبيد العدا و منيل الجزيل

من النفر الغرّ أسد الكفاح و أهل السماح عشيّ النزول

تراهم لدى السلم أطواد حلم و يوم الكريهة آساد غيل

مبيد العداة، و محيى العفاة و مأوى الغريب، و مدنى الدخيل

فبأس حكى النار عند احتدام وجود حكى السّحب عند الهمول

فيصلى عداه لدى الحرب نارا و يروى نداه زمان المحول

إذا فلّت البيض يوم الوغى فلست ترى عزمه ذا فلول

مليك كفيل لمن يرتجيه بكلّ مرام بعيد وسول

و فرع كريم حميد الخلال نماه إلى المجد طيب الأصول

فدام لنا ما سرى فى الرياض نسيم الصّبا و مهبّ القبول

و حنّ مشوق لأرض الحجاز إذا لاح إيماض برق كليل

[و منه قصيدة يمدح بها السلطان أبا عبد اللّه محمد بن يوسف بن نصر]

و قال يمدح السلطان أبا عبد اللّه محمد بن يوسف بن نصر من مدينة فاس: [الطويل]

لمن طلل بالرّقمتين محيل عفت دمنتيه شمأل و قبول

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۴۱

يلوح كباقى الوشم غيّره البلى و جادت عليه السّحب و هى همول

فيا سعد، مهلا بالرّكاب لعلّنا نسائل ربعا فالمحبّ سؤول

قف العيس ننظر نظرة تذهب الأسى و يشفى بها بين الضّلوع غليل

و عرّج على الوادى المقدس بالحمى فطاب لديه مربع و مقيل

فيا حبّذا تلك الديار و حبّذا حديث بها للعاشقين طويل

دعوت لها سقى الحمى و ربوعه و ميض و عرف للنسيم عليل

و أرسلت دمعى للغمام مساجلا فسال على الخدّين منه مسيل

فأصبح ذاك الرّبع من بعد محله رياضا بها الغصن المروح يميل

لئن حال رسم الدار عمّا عهدته فعهد الهوى فى القلب ليس يحول

و ممّا شجانى بعد ما سكن الهوى بكاء حمامات لهنّ هديل

توسّدن فرع البان و النجم مائل و قد آن من جيش الظلام رحيل

فيا صاحبى دع عنك لومى فإنه كلام على سمع المحبّ ثقيل

تقول: اصطبارا عن معاهدك الألى و هيهات صبرى ما إليه سبيل

فللّه عينا من رآنى و للأسى غداة استقلّت بالخليط حمول

يطاول ليل التّمّ منى مسهّد و قد بان عنّى منزل و خليل

فيا ليت شعرى هل يعودنّ ما مضى؟ و هل يسمحنّ الدهر و هو بخيل

و هل راجع عهد الحمى؟ سقى الحمى و ظلّ بعين الدمع فيه ظليل

و أيام أنس كم نعمنا بقربها و قد غاب عنّا حاسد و عذول

حلفت بربّ الراقصات إلى منّى لهنّ إلى البيت العتيق ذميل

لجود أمير المسلمين محمد بكلّ مرام فى الزمان كفيل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۴۲

مليك أتاه اللّه فى الملك عزمة يروع الأعادى بأسها و يهول

هو الملك المنصور و البطل الذى يهون عليه الخطب و هو جليل

إذا فلّت البيض الرقاق وجدته أخا عزمات ما لهن فلول

يقصّر باع المدح دون صفاته و يرجع عنها الفكر و هو كليل

من النفر البيض الوجوه لدى الوغى لهم غرر وضّاحة و حجول

همو ما همو و الحرب قد شبّ نارها و للخيل فى جنح العجاج صهيل

إذا سئلوا يوم الندى فنوالهم تفيض شآبيب له و سيول

بهم عزّ دين اللّه شرقا و مغربا و أصبح دين الكفر و هو ذليل

هم السادة الأنصار و العرب الألى حمى الدين حيّ منهم و قبيل

لهم يوم بدر و الرسول أميرهم تصول به أرماحهم و تطول

فأصبح أصحاب القليب كأنهم كثيب لوطء المرهفات مهيل

و قد أمن الإسلام كيد عدوّه و غودر ربع الكفر و هو محيل

و عدّوا رواحا للمدينة و الرضا لهم منه فوز عاجل و قبول

فمن ذا يجارى أو يدانى عصابة جزاؤهم عند الإله جزيل

لكم يا بنى نصر من المجد هضبة تزول الرواسى و هى ليس تزول

فيا سيّد الأملاك و الواحد الذى إذا عدّ فخر ليس عنه عدول

لقد قرع الأعداء منك مؤيدا له الذعر نصر و الحسام دليل

فلم يدركوا ما أمّلوا غير ساعة كذاك متاع الأخسرين قليل

تعاوين فى باب البنود بسحرة كلاب عليهم بعد ذاك عويل

أبى اللّه إلّا أن يموتوا بغيظهم فويل لهم من مكرهم و أليل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۴۳

فأضحوا حديثا فى البلاد و يومهم و ساء صباح عندهم و أصيل

بسعد إمام ينزل العصم سعده و يروى نداه و الزمان محول

و فرع كمال فى الخلافة ثابت نمته إلى المجد الزكىّ أصول

حكى وجهه شمس النهار إذا بدا و ريّاه عرف الروض و هو بليل

أعاد لنا بالعدل أيامه التى عهدنا، فدارت للسرور شمول

فدام لنا ما هبّ عرف من الصّبا و أومض برق فى الظلام كليل

و حنّ مشوق للحجاز إذا بدت لعينيه منه شامة و طفيل

و أشرق نجم مثل قلبى خافق و حان له عند الغروب أفول

و ما زالت الأقدار تجرى بأمره و صنع إله العرش فيه جميل

[لعبد اللّه ابن لسان الدين فى إعذار ابن السلطان]

و قال فى إعذار ابن السلطان رحمه اللّه تعالى و رضى عنه: [الوافر]

أثرها عزمة تنضى الركابا و إن دميت لها العين انسكابا

لعلّ الوجد تطفأ منه نار أبت إلّا زفيرا و التهابا

أما بعد الألى ترجو قلوب تسارع نحو أرضهم انقلابا

فيا أخوىّ، كفّا عن عتابى فلست بسامع أبدا عتابا

تذكّرت العقيق فسال دمعى عقيقا من تذكّره مذابا

أقول لنسمة مرّت صباحا يعطّر عرفها القفر اليبابا

ألا يا هذه كونى رسولى و كونى إن رجعت لى الجوابا

نشدتك بلّغى صحبى سلامى إذا جئت المعاهد و القبابا

يلومنى العواذل فى اشتياقى إذا ما القلب من وجدى تصابى

و كم بين الأباطح من مهاة تروع بلحظها الأسد الغضابا

رمتنى ثم قالت و هى تزرى و لم تحذر بفكتها العقابا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۴۴

إذا ما الشّهب للغرب استمالت وفود الليل بالإصباح شابا

أوجّه، إن رقدت، إليك طيفى كلمع البرق يخترق السحابا

فقلت: لقد بخلت على مشوق أبى إلّا غراما و اكتئابا

و كيف له بنوم بعد وجد يذيب لهيبه الضّمّ الصلابا

سينصره من الأنصار ملك إذا ناداه مظلوم أجابا

كريم الذات من ملأ كرام لقد طابت سجاياهم و طابا

تواضع رحمة و علا محلّا و سهّل منه للناس الحسابا

فليس يصدّ عن جدواه راج و ليس يسدّ عن عافيه بابا

له عطف على الراجى جميل يفلّ من الردى ظفرا و نابا

و ملك آمن الأرجاء حتى ترى الغزلان لا تخشى الذئابا

أمولاى الذى أحيا المعالى و قد بليت و ألحفت الترابا

مددت على البلاد جناح عدل و كفّ الجور تستلب استلابا

و تاب الدهر ممّا قد جناه فجدت له بعفوك حين تابا

و سكّن عزّ دولتك الدواهى فكانت رحمة دفعت عذابا

و يا للّه إعذار سعيد دعوت السعد فيه فاستجابا

عجبت لمقدم و الروع يهفو بأفئدة الكماة و ما استرابا

و من شبل أطاع أخا سلاح و حكّمه اصطبارا و احتسابا

و هل عذر لعاذر ليث غاب أظنّ فؤاده و العقل غابا

فلو لا سنّة حكمت و هدى أصبت و قد سلكت به الصوابا

لحامت عصبة الأنصار عنه بأسياف تقدّ بها الرقابا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۴۵

من الصّيد الذين لهم نفوس لغير الفخر لا تصل الطّلابا

تنير الليل أوجههم إذا ما أرادوا السير أو حثّوا الركابا

دعوت به الأنام ليوم حشر و لم تذخر لهم إلّا الثوابا

رأوا من زخرف الدنيا مقاما يذكّر بالجنان لمن أنابا

و أبهتهم فما عاطوا حديثا و لا عرفوا السؤال و لا الجوابا

و لو مكثوا به دهرا طويلا لما ذكروا الطعام و لا الشرابا

و طاردت الصّوار بكلّ ضار كما أتبعت عفريتا شهابا

ضربت به على الآذان منها فلم تسطع حراكا و اضطرابا

و معصوب الجبين بتاج روق يروع خواره الأسد الغضابا

تعرّف أنّ تحت الأرض ثورا فرام بأن يشقّ له الترابا

و كلت به هضيم الكشح أجنى حديد الناب تحسبها حرابا

تباعد مجمع الشدقين منه و سال الموت بينهما لعابا

فأثبته كوحى الطرف حتى توثق منه جازره غلابا

و صاح به الصّوار و قد رآه حبيس الكلب قد منع الإيابا

(فغضّ الطّرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت و لا كلابا)

و أرسلت الجياد إلى استباق كأنّ بوارقا شقّت سحابا

فمن ورد أقبّ و من كميت و أشهب يلهب الأرض التهابا

و ساقية العماد إذا أطلّت إلى الأدواح تنساب انسيابا

تحوم بها العصيّ فراش ليل تروم بسمعه منه اقترابا

تحفّ بها خيول القوم منّا فترسل نحوها الجرد العرابا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۴۶

عجائب أبدعت علياك فيها و مثلك يبدع الأمر العجابا

محمد لا عدمت الدهر حمدا فقد أحسنت فى الملك المنابا

و زكّى نفسك الرحمن لمّا رآك ملكت للمجد النّصابا

تداركت البلاد و من عليها فأمّنت التنائف و الشعابا

لقد أوليتنا بيض الأيادى لقد طوّقتنا المنن الرغابا

روت عنك العوالى فى المعالى حديث الفخر حقّا لا انتسابا

ستفتح من بلاد الشرك أرضا قد اعتقلت عقائلها اغتصابا

و تعمل فى العدا بيض المواضى إلى أن ينكر السيف القرابا

فما كأس من الصهباء صرف تعيد الشيخ من طرب شبابا

و طاف بها من الرهبان بدر يهتّك من دجى الليل الحجابا

تجدّ الأنس عودا بعد بدء و ربع الهمّ تتركه خرابا

بأعذب من ثنائك حين يطوى به الركب الأباطح و الهضابا

أمولاى استمعها بنت فكر تخيّرها فأبرزها لبابا

و غاص على فرائدها العوالى و شقّ على نفائسها العبابا

و هنّاك الإله بكلّ نعمى تقود لك الأمانىّ الصعابا

و دمت لعزّة الإسلام ركنا إلى أن يشمل الشيب الغرابا

[و له، و أنشده السلطان ليلة الميلاد فى سنة ۷۶۵]

و قال، و قد أنشدها السلطان ليلة الميلاد عام خمسة و ستين و سبعمائة: [الكامل]

نفس الصّبا أهدى إلىّ نسيما قد رام ممتنعا و رام عظيما

يا هل يبلّغنى السّرى خير الورى فأرى معاهد للهوى و رسوما

و أسابق الركبان فوق نجيبة تفرى من البيد العراض أديما

و أحطّ رحلى فى كريم جواره أرجو نعيما فى الجنان مقيما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۴۷

حتّى إذا بلغوا الذى قد أمّلوا و رأوا مقاما بالرضا موسوما

و تزاحموا فى الترب يستلمونه أ رأيت فى الورد الظّماء الهيما

قبّلت ذاك الترب من شوقى إلى من حلّه و أقمت فيه لزيما

و بكيت من دمع المآقى زمزما و تركت جسمى كالحطيم حطيما

صلّى عليه اللّه ما هبّت صبا تهدى من الطيب الذكىّ شميما

للّه مولده الذى أنواره صدعت ظلاما للضلال بهيما

شرعت من التأييد سيف هداية أردت ظباه فارسا و الروما

كسر الأكاسر بالعراء و لم يدع أن ردّ قيصر قاصرا مهزوما

للّه منها ليلة أضحى بها شمل الهدى لأولى الهدى منظوما

أبدا أمير المسلمين أعدّها بدعا من القصر الكريم جسيما

ملك أقام اللّه منه لخلقه مولى رؤوفا بالعباد رحيما

يحمى ذمار المسلمين من الردى و يبيح ربعا للعدا و حريما

بمحمد قد عاد دين محمد غضّ الرياض و كان قبل هشيما

أحيا به اللّه الخلافة بعد ما كانت بأطباق التراب رميما

من آل سعد الخزرج بن عبادة طابوا فروعا فى العلا و أروما

تلقاه فى يوم الكريهة و الوغى و الخيل عابسة أغرّ و سيما

و تخال كفّيه إذا شحّ الحيا أفقا بعامية الغيوث غيوما

تأبى خلال العدل و الشيم العلا من أن يرى فى دهره مظلوما

كهف العباد و فخرها و ثناؤه ترك المديح على الطروس رقيما

لا زال يلقى العيش طلقا و العلا مرقى و صرف الحادثات خديما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۴۸

ما اهتزّ غصن فى الحديقة ناعم لمّا أحسّ من الشمال شميما

مولده بغرناطة، يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة و أربعين و سبعمائة؛ انتهى.

[بين لسان الدين و ابنه عبد اللّه]

و ممّا خاطب به لسان الدين رحمه اللّه تعالى ولده عبد اللّه المذكور ما فى «النفاضة» من قوله: أنشدت ابنى عبد اللّه و قد وصل لزيارتى من الباب السلطانى حيث جرايته و وظيفته، و انجرّ حديث ما فقد بغرناطة فى شجون الكلام: [الخفيف]

يا بنىّ عبد الإله احتسابا عن أثاث و منزل و عقار

كيف يأسى على خسارة جزء من يرى الكلّ فى سبيل الخسار

هدف لا تنى سهام الليالى عن سباق تجاهه و بدار

واحد طائش و سهم مصيب ليس ينجى منها اشتمال حذار

غير ذى الدار صرّف الهمّ فيها فمناخ الرحيل ليس بدار

انتهى. و قال أيضا رحمه اللّه تعالى: ممّا أنشدته ولدى عبد اللّه، و أمرته بحفظه و التأدّب به و اللهج بحكمته: [الوافر]

إذا ذهبت يمينك لا تضيّع يسارك فى البكاء و لا المصيبه

و يسراك اغتنم فالقوس ترمى و ما تدرى أرشقتها قريبه

و ما بغريبة نوب الليالى و لكنّ النجاة هى الغريبه

قال: و من المنظوم فى قريب من هذا قولى: [الطويل]

أيا أهل هذا القطر ساعده القطر دهيت فدلّونى لمن يرفع الأمر

تشاغلت بالدنيا و نمت مفرّطا و فى شغلى أو نومتى سرق العمر

و قال رحمه اللّه تعالى: و ممّا قلته و قد انصرف عنّى الولد عبد اللّه إلى مدينة فاس لإقامة رسمه من الخدمة. و أشجانى انصرافه لوقوع قرحة على قرح، و اللّه المستعان: [الخفيف]

بان يوم الخميس قرّة عينى حسبى اللّه أىّ موقف بين

لو جنى موقف النّوى حين حيّا حان يوم الوداع و اللّه حينى

ضايقتنى صروف هذى الليالى و أطالت همّى و ألوت بدينى

وطن نازح و شمل شتيت كيف يبقى معذّب بعد ذين

يا إلهى، أدرك بلطفك ضعفى إنّ ما أشتكيه ليس بهين

و قال رحمه اللّه تعالى: أنشدت يوما ولدى عبد اللّه و قد رأيت منه نشاطا و مرحا انتقل منى إليه بعد السنّ: [الرمل]

سرق الدهر شبابى من يدى و فؤادى مشعر بالكمد

جملة الأمر إذا أبصرته باع ما أفقدنى من ولدى

و قد سبق هذان البيتان عند ذكر بعض نظم لسان الدين رحمه اللّه تعالى.

[على بن لسان الدين]

و أمّا على بن لسان الدين رحمه اللّه تعالى فهو شاعر البيت بعد أبيه النبيه، و كان مصاحبا للسلطان أحمد المرينى المستنصر باللّه ابن السلطان أبى سالم ابن السلطان أبى الحسن المرينى، رحمهم اللّه تعالى!.

و حكى بعضهم أنه حضر معه فى بستان، سحّ فيه ماء المذاكرة الهتّان، و قد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار، و أزمع النهار لما قدم الليل على الفرار، فقال المستنصر لمّا لان جانبه، و سالت بين سرحات البستان جداوله و مذانبه: [البسيط]

يا فاس، إنى و أيم اللّه ذو شغف فى كلّ ربع به مغناه يسبينى

و قد أنست بقرب منك يا أملى و نظرة فيكم بالأنس تحيينى

فأجابه أبو الحسن على بن الخطيب، بقوله المصيب: [البسيط]

لا أوحش اللّه ربعا أنت زائره يا بهجة الملك و الدنيا مع الدين

يا أحمد الحمد، أبقاك الإله لنا فخر الملوك و سلطان السلاطين

[تذييلات له على كتاب «الإحاطة» لأبيه]

و قد رحل، رحمه اللّه تعالى، إلى مصر، و لم يحضرنى الآن من أحواله بعد دخوله مصر ما أعوّل عليه، و قد كان وقف بالقاهرة على نسخة «الإحاطة» التى وجّهها أبوه إلى مصر و وقفها بخانقاه سعيد السعداء كما أشرنا إليه فيما مرّ، فكتب بالحواشى كتابات مفيدة، و قد ذكرنا بعضها فيما أسلفناه من هذا الكتاب، فليراجع: إمّا تكميل لما أغفله أبوه، و إما إخبار عمّا شاهده هو، أو رواية له عن المترجم به،

أو جواب عن أبيه فيما انتقد عليه. و لنذكر شيئا منها غير ما تقدّم بعد إيراد نصّ «الإحاطة» فنقول:

قال فى «الإحاطة» فى حرف الميم فى ترجمة شمس الدين الهوارى الضرير شارح ألفية ابن مالك و صاحب البديعية المشهورة بالأعمى و البصير، ما صورته:

محمد بن أحمد بن على الهوّارى، يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن جابر، من أهل المرية.

[فى ترجمة محمد بن أحمد الهوارى، الشهير بابن جابر]

حاله- رجل كفيف البصر، مدل على الشعر، عظيم الكفاية و المنّة على زمانته، رحل إلى المشرق، و تظاهر برجل من أصحابنا يعرف بأبى جعفر الإلبيرى، صارا روحين فى جسد، و وقع الشعر منهما بين لحيى أسد، و شمّر للعلم و طلبه، فكان وظيفة الكفيف النظم، و وظيفة البصير الكتب، و انقطع الآن خبرهما؛ انتهى.

فكتب المذكور على أوّل الترجمة ما صورته: نعم الرجل و رفيقه أبو جعفر، أحسن اللّه تعالى إليهما، فلقد أحسنا الصحبة، فى الغربة، و انفردا بالنزاهة و الفضل و علوّ الهمّة، إلّا أن المصنّف قصّر فيهما بعض قصور، و منهما يطلب الإغضاء و الصفح، فالرجل مات، و ذكر الأموات بالخير مشروع، و هما و اللّه الشرف الباهر بقطرهما علما و عملا، أمتع اللّه تعالى بهما! قاله ولد المؤلّف على بن الخطيب بالقاهرة؛ انتهى.

و كتب على قول أبيه «و انقطع الآن خبرهما» ما نصّه: هما الآن بالبيرة من حلب، تحت إنعام و لطف، تحثّ إليهما الرواحل، و تضرب إليهما آباط النّجب؛ انتهى.

رجع لتكميل ترجمة الشمس ابن جابر من «الإحاطة»:

قال لسان الدين بعد ما مضى ما نصّه، و جرى ذكره فى الإكليل بما نصّه: محسوب من طلبتها الجلّة، و معدود فيمن طلع بأفقها من الأهلّة، رحل إلى المشرق و قد أصيب ببصره،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۵۱

و استهان فى جنب الإفادة بمشقّة سفره، على بيان عذره، و وضوح ضرّه.

[من شعر ابن جابر الذى لم يذكره لسان الدين]

شعره- و شعره كثير، فمنه قوله: [الطويل]

سلوا حسن ذاك الخال فى صفحة الخدّ متى رقموا بالمسك فى ناعم الورد

و قولوا لذاك الثغر فى ذلك اللّمى متى كان شأن الدّرّ يوجد فى الشهد

و من هزّ غصن القدّ منها لفتنتى و أودعه رمّانتى ذلك النّهد

و من متّع القضب اللّدان بوصفها إلى أن أعرن الحسن من ذلك القدّ

فتاة تفتّ القلب منّى بمقلة لها رقّة الغزلان فى سطوة الأسد

تمنّيت أن تهدى إلىّ نهودها فقالت رأيت البدر يهداه أو يهدى

فقلت أ للرّمّان بدّ من الجنى فتاهت و قالت: باللواحظ لا الأيدى

فقلت أليس القلب عندك حاصلا فقالت قلوب الناس كلّهم عندى

فقلت اجعلينى من عبيدك فى الهوى فقالت كفانى كم لحسنى من عبد

إذا شئت أن أرضاك عبدا فمت جوى و لا تشتكى و اصبر على ألم الصّدّ

أ لم تر أنّ النحل يحمل ضرّها لأجل الذى تجنيه من خالص الشهد

كذلك بذل النّفس سهل لذى النّهى لما يكسب الإنسان من شرف الحمد

أ لست ترى كفّ ابن جانئ طالما أضاع كريم المال فى طلب المجد

و كتب ابن المؤلف على هذه القصيدة ما صورته: عارضة قوية، و نزعة خفاجية، و كيف لا و الشيخ أبو عبد اللّه صدر صدور الأندلس علما و نظما و نحوا، زاده اللّه تعالى من فضله! انتهى.

رجع إلى الترجمة- قال لسان الدين: و قال، يعنى ابن جابر: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۵۲

عرّج على بان العذيب و نادى و انشد فديتك أين حلّ فؤادى

و إذا مررت على المنازل بالحمى فاشرح هنالك لوعتى و سهادى

إيه فديتك يا نسيمة خبّرى كيف الأحبّة و الحمى و الوادى

يا سعد، قد بان العذيب و بانه فانزل فديتك قد بدا إسعادى

خذ فى البشارة مهجتى يوما إذا بان العذيب و نور حسن سعاد

قد صحّ عيدى يوم أبصر حسنها و كذا الهلال علامة الأعياد

و ممّا نقلته من جزء قيّده لى صاحبنا الفقيه الأستاذ أبو على الزواوى ممّا ادّعاه لنفسه:

[الوافر]

علىّ لكلّ ذى كرم ذمام ولى بمدارك المجد اهتمام

و أحسن ما لدىّ لقاء حرّ و صحبة معشر بالمجد هاموا

و إنى حين أنسب من أناس على قمم النجوم لهم مقام

يميل بهم إلى المجد ارتياح كما مالت بشاربها المدام

همو لبسوا أديم الليل بردا ليسفر عن أديمهم الظلام

هم جعلوا متون العيس أرضا فمذ عزموا الرحيل فقد أقاموا

فمن كلّ البلاد لنا ارتحال و فى كلّ البلاد لنا مقام

و حول موارد العلياء منّا لنا مع كلّ ذى شرف زحام

تصيب سهامنا غرض المعالى إذا ضلّت عن الغرض السّهام

و ليس لنا من المجد اقتناع و لو أنّ النجوم لنا خيام

ثم سرد لسان الدين القصيدة بتمامها، و ذكر بعد ما سبق اثنين و ستين بيتا، و لم نثبتها لطولها، ثم قال بعدها: نجزت و ما كادت، ثم قال بعدها أيضا: و قد وطّأ لإمطاء قروحها، و أعيا لإكثار سروحها، ثم قال بعده: و اللّه ولىّ النجاة بفضله؛ انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۵۳

و كتب ابنه على أول القصيدة و هو: «علىّ لكلّ ذى كرم ذمام» ما نصّه: نزعة معرّيّة، قاله ابن المؤلف، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

و كتب الشيخ ابن مرزوق على قوله «نجزت إلى آخره» ما صورته: ما أنصف المصنّف هذا الفاضل فى ترجمته، و قدره شهير، و مكانه من الفضيلة كبير، و علمه غزير، و لعلّه لم يطلع إلّا على ما أودعه.

و كتب إثره ابن لسان الدين ما صورته: نعم يا سيدى أبا عبد اللّه بن مرزوق، لم ينصف المترجم به المؤلّف، و لو لا أنهما بالحياة ما صدر منكم التنبيه، و لو حصلا تحت الصفيح لم تعملوا فيهما قلما، هكذا شأن الدنيا بقلّة الوفاء شنشنة معروفة، و الحقد على الأموات

شأن المغاربة، قاله على ابن المصنّف رحمه اللّه تعالى! انتهى.

و لا خفاء أنّ لسان الدين لم يستوف حقوق الشمس ابن جابر الهوّارى المذكور مع أنّ له محاسن جمّة.

و من محاسنه رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

هناؤكم يا أهل طيبة قد حقا فبالقرب من خير الورى حزتم السّبقا

فلا يتحرّك ساكن منكم إلى سواها و إن جار الزمان و إن شقا

فكم ملك رام الوصول لمثل ما وصلتم فلم يقدر و لو ملك الخلقا

فبشراكم نلتم عناية ربّكم فها أنتم فى بحر نعمته غرقى

ترون رسول اللّه فى كلّ ساعة و من يره فهو السعيد به حقّا

متى جئتم لا يغلق الباب دونكم و باب ذوى الإحسان لا يقبل الغلقا

فيسمع شكواكم و يكشف ضرّكم و لا يمنع الإحسان حرّا و لا رقّا

بطيبة مثواكم و أكرم مرسل يلاحظكم فالدهر يجرى لكم دفقا

فكم نعمة للّه فيها عليكم فشكرا، و شكر اللّه بالشكر يستبقى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۵۴

أمنتم من الدجّال فيها فحولها ملائكة يحمون من دونها الطّرقا

كذاك من الطاعون أنتم بمأمن فوجه الليالى لا يزال لكم طلقا

فلا تنظروا إلّا لوجه حبيبكم و إن جاءت الدنيا و مرّت فلا فرقا

حياة و موتا تحت رحماه أنتم و حشرا فستر الجاه فوقكم ملقى

فيا راحلا عنها لدنيا يريدها أتطلب ما يفنى و تترك ما يبقى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۹؛ ص۱۵۴

أ تخرج عن حرز النبىّ و حوزه إلى غيره؟ تسفيه مثلك قد حقّا

لئن سرت تبغى من كريم إعانة فأكرم من خير البريّة ما تلقى

هو الرزق مقسوم فليس بزائل و لو سرت حتى كدت تخترق الأفقا

فكم قاعد قد وسّع اللّه رزقه و مرتحل قد ضاق بين الورى رزقا

فعش فى حمى خير الأنام و مت به إذا كنت فى الدارين تطلب أن ترقى

إذا قمت فيما بين قبر و منبر بطيبة فاعرف أين منزلك الأرقى

لقد أسعد الرحمن جار محمد و من جار فى ترحاله فهو الأشقى

[مقصورة عجيبة من شعر ابن جابر رتبها على حروف المعجم فيما قبل الألف المقصورة، و أتى من كل حرف بعشرة أبيات]

و من محاسنه رحمه اللّه تعالى المقصورة الفريدة، و هى قوله: [الرجز]

بادر قلبى للهوى و ما ارتأى لمّا رأى من حسنها ما قد رأى

فقرّب الوجد لقلبى حبّها و كان قلبى قبل هذا قد نأى

يا أيها العاذل فى حبى لها أقصر فلى سمع عن العذل بأى

لو أبصر العاذل منها لمحة ما فضّ باب عذله و لا فأى

سرّحت طرفی طالبا شأو العلا و تابعا فی حبّها ما قد شأی

إنی لأرعاها علی تتبیعها عهدی، و مثلی من وفی إذا وأی

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۹، ص: ۱۵۵

من منصفی من شادن لم أرجه لحاجة من وصله إلّا زأی

و إن قبضت النفس عن سلوانه مدّ أدیم هجره لی و سأی

لأقطعنّ البید أفری حاذها بضامر یفری الحصا إذا جأی

حتی أزور ربّة الخدر و قد ذاد الکری عنی الوشاة و ذأی

یا ربّ لیل قد تعاطینا به حدیث أنس مثل أزهار الرّبا

فی روضة تعانقت أغصانها إذ واصلت ما بینها ریح الصّبا

نادمت فیها من بنی الحسن رشا یصبو له من لم یکن قطّ صبا

حلو رخیم الدلّ فی أعطافه لین و فی ألحاظه بیض الظّبا

أیام کان العیش غضّا حسنه عذب الجنی ریّان من ماء الصّبا

أیّ زمان و محلّ للمنی ما ضاق مغناه بنا و لا نبا

یا مربعا ما بین نجد و الحمی و یا زمانا قد حبانی ما حبا

اللّه یرعاه زمانا لم یحل عن بذل ما نأمله و لا أبی

فأیّ مغنی آهل یمّمته لمقصد حلّت لنا فیه الحبا

هل ترجع الأیام عیشا باللّوی فراقه کان اللّهیم الأربی

تاللّه لا أعبا بعیش قد مضی و لا زمان قد تعدّی و عتا

مذ علقت کفّی بالهادی الذی ساد الوری طفلا و کهلا و فتی

کالبحر لا یغیض یوما ورده لوارد إذا أصاف أو شتا

متّصل البرّ لمن قد أمّه لا یکره العودة ممّن قد أتی

و لا یناجی نفسه فی ضیقة أیّ نهار سرّ هذا و متی

إنّ رسول اللّه مصباح هدی یهدی به من فی دجی اللیل متا

کفّ بنی الجور بعدل واضح کما تکفّ الید کفا من فتی

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۹، ص: ۱۵۶

کم ذو هوی قد راضه بهدیه فانقاد کالعبد إذا العبد قتا

قد خالط الحلم سجایا طبعه کمثل ما قد خالط الثوب السّتا

أقسمت لا زلت أوالی مدحه ما اشتدّ بالناس زمان ورتا

لو لا اشتیاقی لدیار کرمت لبعدها یرثی لنا من قد رثی

و مدح من أرجو بأمداحی له إصلاح ما قد عاث منی و عثا

لم أجعل الشعر لنفسی خلّة و لم یجش فکری به و لا غثا

فما أری الأیام تبدی منصفا و لو حکیت الدر من حسن النّثا

یا ضیعة الألباب فی دهر غدا فیه فتیت المسک یعلوه الخثی

يا ويل أمّ ليس تزجى ضيمها مثلى بما تبديه من منع الحثا

هل مارست إلّا أخا عزم إذا ما قعد الناس عن الخطب جثا

تسيل من جهد السّرى أعطافه كمثل ما سال من الدوح اللثى

له اعتصام بالرسول المجتبى أجود من أضفى العطايا و حثا

من ليس للدنيا محلّ عنده و لا ينيل المال إلّا بالحثا

أنا الفتى لا يطّبينى طمع فأبذل الوجه لنيل يرتجى

لكن إذا اضطرّ زمان جائر أمّلت من ليس يردّ من رجا

لا أسأل النذل و لو أنّى به أملك ما حاز النهار و الدّجا

حسبى بنو عبد مناف بهم يغنى من استغنى و ينجو من نجا

أولئك القوم الألى من أمّهم أمّن ممّن لام يوما و هجا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۵۷

يلقاك منهم كلّ وجه مشرق كأنه البدر إذا الليل سجا

إنّى مذ أمّلتهم لم يثننى عن طلب المجد زمان قد شجا

إن أنا قد نكّرنى دهر عدا فطالما عرّفنى فضل الحجا

يطوى العدا ذكرى و مجدى ناشرا آليت لا زال لهم منى شجا

أنا الذى أعملت للمجد السّرى لا أسأم الأين و لا أشكو الوجى

كم سرت فى البيداء لا يقلقنى حرّ الهجير لا و لا برد الضّحا

أرسلها غرّ الذرا تسرى بنا كلّ عويص السير صعب المنتحى

يطيح مفتوت الحصا من دونها كأنه سهم عن القوس طحا

فكم بذلت الجهد فى كسب العلا و جدت بالنفس لحانى من لحا

أرغم أعدائى بحزم نافذ يعركهم عرك الثّفال بالرحى

أذود عن عرضى و أحمى حسبى بكرم جزل و مجد قد ضحا

أقسم بالبيت و من طاف به و من نحا وجهته فيمن نحا

و كلّ من أعمل للّه الخطا محا بها من الخطايا ما محا

و معشر ثجّوا و عجّوا فلهم بمرتقى المروة ذكر و وحى

لا زلت أزجيها لإدراك العلا حتى ترى من جهدها مثل اللّحا

يا عجبا من حاسد لى قد زها بعيشه الغضّ علىّ و انتخى

كأننى لم أعرف العزّ و لا صاحبت دهرى فى سرور و رخا

و إنّما الدهر له تقلّب إن ارتخى شدّ و إن شدّ ارتخى

إنّ الذى لا ينثنى عن جوده إن بخل الدهر لنا و إن سخا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۵۸

خير الورى طرّا من اللّه به أذهب عنّا كلّ غىّ فامتخى

شرفه اللّه و حلى جيده بجوهر من كل مجد موتخى

زيّنه تواضع على علا فما ازدهى بعزّة و لا نخا

فكم حمى بهديه و كم وقى و كم أفاد آملا و كم نخا

خلّص من أسر الخطايا جاهه فما على قلب امرئ منها طخا

خفّف عنّا ثقل ما نحمله فلم نبت من ثقله نشكو السّخا

إن تحسب الرّسل سماء قد بدت فإنه فى أفقها نجم هدى

و إن يكن كلّ كريم قد مضى طلّا فقد أضحى لنا غيث جدا

و إن يكونوا أنجما فى فلك فإنه من بينهم بدر بدا

واسطة السّلك إذا ما نظموا و ملجأ القوم إذا الخطب عدا

كالبحر بل كالبدر جودا و سنى فحبّذا من اجتدى أو اقتدى

أحسن أخلاقا من الروض إذا ما اختال فى برد الصّبا أو ارتدى

و ساقط القطر عليه دمعه فابتلّ برد الزهر منه و انتدى

تفديه نفسى من شفيع للورى و قلّت النفس له منى فدا

هو الذى أنعشنا من بعد ما قد يبس الغصن و أذواه الصّدى

و كنت فى ليل الهوى ذا حيرة فجاء بالحقّ و أنجى و هدى

فكم كسا من ثوب نعمى قد ضفا و كم هدى بعلمه و كم غدا

من اقتدا بغيره فإنه لم يتبع سبل الهدى و لا حذا

هل هى إلّا سنّة الحقّ التى أرشد من لاذ بها أو احتذى

كفّ اللسان و انبساط الكف بال خير و طيب الذكر عرف قد شذا

أحسن ما نال الفتى من كرم أن لا يرى من أجله من ائتذى

و الصمت عمّا لا يفيد قوله من كلم يهذى به فيمن هذى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۵۹

لا شىء كالصمت وقارا للفتى يوما و لا أنجى له من الأذى

من عيبه يشغله عن غيره بات سليم العرض نفّاح الشذا

و من يعب عيب و من يحسن إذن لان له كلّ عصىّ و خذا

و من تكن دنياه أقصى همّه لم يرو من ثدى الحجا و لا اغتذى

لا تنفق العمر سوى فى حبّ من هو الذى فى سنن الحقّ جرى

يهديك من رشد و مجد واضح روضين من علم و ذكر قد سرى

أجاد هديا و أفاد نائلا و جاد حتى عمّم الجود الورى

ترى بنى الحاجات نحو بابه قد أعملوا العيس بحزن فى البرى

لهم إلى رؤيته تشوّق تشوّق السارى إلى نار القرى

ذا يبتغى علما و هذا نائلا و خائب من قصده ليس يرى

كأنهم إذا رأوا غرّته وفد حجيج عاينوا أمّ القرى

وجه لديه يحمد السير، كذا عند الصباح يحمد القوم السّرى

هذا إذا ما أخلف الناس وفى نائى المدى فى مجده سامى الذرا

إذا شددت الكفّ فى أمر به فليس بالوانى و لا الواهى العرا

أنهضنى بهديه إلى التّقى بعد قصور العزم و الباع الوزى

هو الشفيع المجتزى بجاهه بمثل ذاك الجاه حقّا يجتزى

مذ زرته لم أشكك من شحط النوى إذ كان لى فيه غنى و مجتزى

و ما وجدت غربة و لم يجد مسّ اغتراب من إلى الجود اعتزى

متّصل البشر غضوب للهدى إذا رأى من زاغ عنه أو نزا

أصبح من أيامه فى مأمن من قد لجا يوما إليه أو رزى

تخذته كهفا فبتّ آمنا جزاه ربّ العرش خير ما جزى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۶۰

أدّبنا بسنّة أفلح من نمىإليها النفس يوما أو عزا

يجزى أخا الحسنى على إحسانه شكر امرئ راض الأمور و حزا

لست أجازى الشّرّ بالشرّ، و لا أغزو لناوى السوء مثل ما غزا

لم تر عين كرسول اللّه ذا حزم، و لا أحلم إن دهر غزا

إذا ملمّات الأمور أقلقت ألفيته كأنه طود رسا

بخلقه فليقتد المرء فما أكرمها من مقتدى و مؤتسى

كن حذرا و إن رأيت تمرة فمثلها توقد جمرة الأسا

لا تياسنّ إن تناءى أمل و كلّما عثا زمان قد عسا

و إن بدا صبح المشيب فاطّرح ما كان إذ ليل الشباب قد غسا

و لا تظنّ الشيب يرجى طبّه بزور صبغ أو مدام يحتسى

إذا الفتى قوّس و اعتدّ العصا لقوسه عن وتر أعيا الأسا

فاذكر زمان الشيب فى حال الصّبا عسى يلين للتّقى قلب قسا

ما أقبح اللهو على المرء إذا ما اشتعل الرأس مشيبا و اكتسى

لا تحسب الراحة راحا قرقفا للشّرب منها قبس و منتشى

إذا أداروها و قد جنّ الدّجى و شى بهم نيّرها فيمن و شى

قد حجبت فى دنّها دهرا إلى أن برزت كأنها صبح فشا

لم يبق من جوهرها إلّا سنى ينشئ أفراح الفتى إذا انتشى

كأنها و الكأس قد حفّت بها متيّم أصبح مضروم الحشى

يديرها مختلف الحسن إذا أقبل بدر و إذا تاه رشا

يحكى القطا و الظبى و الغصن إذا ما قد تثنّى أو تجنّى أو مشى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۶۱

و إنما الراحة زهد المرء فى أعراض دنيا تورث العين غشا

و المجد إيقادك نيران القرى يعشو لها فى الأزمات من عشا

و الجود أن تعطى قباء للندى لا لافتخار أو لجاه يختشى

خاب امرؤ لم ير أرضا حلّها من اصطفى ربّ السماء و افتصى

أرسله اللّه هدى و رحمة أوصى و والى الخير فينا و وصى

و خلّص الأنفس من أسر الهوى فى يوم هول فاز فيه من فصى

ذو رأفة تلقاه يوم العرض قد مال بنا عن الجحيم و مصى

صلّى عليك اللّه يا من جاهه يوم الحساب ملجأ لمن عصى

يا من جرى من كفّه الماء و من حنّ له الجذع و سبّح الحصى

بك اعتصامى يوم يدنو من دنا من رحمة اللّه و يقصى من قصا

هل غير إحسانك يرجو مذنب طال به خوف الخطايا و انتصى

يا من سما فى يوم بدر بدره عزّا ليشقى كلّ من شقّ العصا

أحصاهم ربّ السماء عددا و إنهم أدنى الفريقين حصا

يا مجتبى من خير قوم حسبا فيما أتى من زمن و ما مضى

يا من تدانى قاب قوسين و من قيل له سل تعط قد نلت المضا

و من أتى و الناس من ظلمهم فى ظلمة ليس لها من مرتضى

فكان كالصبح جلا جنح الدّجى فأذهب الإظلام عنّا و انتضى

رضيت للإرسال إذ آدم بى ن الماء و الطين فكنت المرتضى

اختارك اللّه رسولا هاديا أكرم بما اختار لنا و ما ارتضى

يا أحلم الناس على من قد جنى و أعدل الخلق إذا ما قد قضى

يا مصغر الألف إذا ما جاد أو جرّد فى الهيجاء سيفا أو نضا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۶۲

يا ناصحا أحكم تشييد الهدى عزما فلمّا ينتقض و لا انقضى

يا مضفيا للناس ظلّ رحمة بات العدا منها على جمر الغضى

ادفع الشّرّ بحسنى فإذا به أخو صدق و إن كان سطا

و أنف لنفس كرهت أعمالها كمن يريك قدرها حث الخطا

إن يدرك الهوى الفتى فى بيته ليس كمن سعى إليه و خطا

و إنّ خيرا من صديق سيىء أن يصحب الإنسان فى البيد القطا

و لا ترم ما لا تطيق نيله فخجلة الخيبة شرّ ممتطى

و بت من الدنيا مبات خائف فلليالى عدوات وسطا

و خلّها عنك و لا تعبأ بما تبوّأ المكثر منها و عطا

و جنّب الحرص تعش ذا عزّة أفلح من إن شدّه الحرص نطا

و لا تجد للنفس حظّا و اطّرح من امتطى الكبر فبئس ما امتطى

لا تطرينّ صاحبا بغير ما فيه فإطراء الفتى كسر المطا

لا يحسن المدح سوى لمن يرى مادحه بمدحه قد احتظى

خير عباد اللّه ذو العزّ الذى لظلّه يأوى الشريف و الشظى

كم آمن ببابه و قبل أن يلقاه لاقى ما عجا و ما عظا

أصبح من حرمته فى حرم يرفل فى ظل هبات و حظا

فى منزل سيّان فيه ربّه و ضيفه فيما اقتنى و ما حظا

إنّ رسول اللّه غيث و اكف إذا لهيب الضيف داج و التظى

إذا أعدّ للملمّين القرى لم يدّخر عن ضيفه و لا حظا

لمّا علمت جوده الجزل و ما هناك من علم و حلم و بظا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۶۳

يمّمته فوق طمرّ ضامر منتظم الأعضاء ملموم الشظا

ليس يمسّ الأرض من سرعته كأنما يخشى بها مسّ اللظى

يا موسع الألف بصاع شبعا و من مشى الدّوح إليه و سعى

و أخصب الضرع بلمس كفّه و بادر المزن له لمّا دعا

و سلّم الظبى عليه كرما و كلّم الميت فقام و رعى

و استشهد الضبّ فحيّا معلنا بصدقه

و مثبتا لما ادّعى

إليك أعملت المطايا فى الفلا تنساب ما بين أراك و لعا

مسرّعا جاهك علّى فى غد أكون ممّن قد أجاد و رعى

أزكى صلاة و سلام أبدا عليك ما ارتاح الظليم و ارتعى

و سبّح الرعد بحمد من سقى صوب الحيا فقال للأرض لعا

فاشتملت بالنّور كلّ فدفد لم يك للسارح فيه مرتعى

و باكر البيداء غيث مسبل فأخلف النبت الهشيم و رعى

و دق سحاب تحسب البرق به أسنّة قد أشرعت يوم وغى

و اخضرّت الدوح و مدّت قضبها فبينها حسن التئام و صغا

و ساقطت لها السحاب حملها إذ خوّف الرعد تساقط الفغا

ترى خرير الماء فى قضيبه كأنه ميّت ذود قد رغا

فسكّن القيظ لهيب حرّه و فرّ لمّا أن رأى الماء طغى

غيث حمى الرمضاء عنّا مثل ما حمى رسول اللّه جور من بغى

ناه عن الفحشاء داع للهدى و لم يفه بباطل و لا لغا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۶۴

هذا إذا استكفيت فى أمر به أجداك فيما تنتحيه و كفى

تهفو به ريح العلا إلى الندى كأنه ناعم غصن قد هفا

محيى الهدى و العدل فى زمانه من بعد ما ألفاهما على شفا

أخفى الهدى قوم فأضحى و هو قد أظهره بعدله فما اختفى

إن يقض يعدل أو متى يسأل يهب و إن يقل يصدق و إن يعد وفى

و إن يجد يجزل و إن جاد يعد و إن تسىء يحسن و إن تجن عفا

بحر طما، بدر سما، عضب حمى، روض نما، طبّ أفاد و شفى

لمجتد أو مقتد أو معتد أو مجدب أو مشتك خطبا جفا

ما لى لا أضفى له المدح و قد أضحى به الحقّ علينا قد ضفا

أسس خلق الجود فينا فاغتدى به لنا ورد المعالى قد صفا

الجود يعلى المرء و البخل لقد يحطّ عن رتبته من ارتقى

و العزّ ما أحسنه لكنّه إن كان هذا مع علم و تقا

و الجهل للإنسان عيب قادح و لو حوى مالا ككثبان نقا

و العلم فى حال الغنى و الفقر لا يزال يرقى بك كلّ مرتقى

و لا ألوم المال فالمال حمى من جاهل يلقاك شرّ ملتقى

قد جبل الناس على حبّ الغنى فربّه فيهم مهاب متّقى

و ما لذى الفقر لديهم رتبة و لو أفاد و أجاد و اتّقى

إنّ الغنى طبّ لعلّات الفتى و الفقر داء لا تداويه الرّقى

و الحزم أحرى ما به المرء اقتدى فى أمره و ما به النفس وقى

من لم يبت مع الليالى حازما لغدرها غادرنه فيها لقى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۶۵

أمضيت طرفى كى يرى طرفى ما أخبرته من طيب مجد قد زكا

فصدّق الحاكى ما أبصرته وفاق ما عاينته ما قد حكى

فسهّلت رؤيته جهد السرى و أسكت الإنعام من كان شكى

عجبت للأيام من عزّ بها ذلّ، و من يضحك بها يوما بكى

فكم لها من كرّة على فتى جلد إذا ما لهب الحرب ذكا

تجتنب الأسد سطاه فى الوغى فذلّ حتى صار قصواه بكى

و كم صريع غادرت ليس له من ملجإ يوما و لا من مشتكى

عدت على نفس عدىّ و سقت منها ابن حجر كأس سمّ كالذكا

و استلبت ملك بنى ساسان لم تترك له على الليالى مرتكى

لم يأمن المأمون من صولتها و لا ابن هند من عواديها خلا

و أتبعت جعفرا الفضل و كم بات الطّلا يسقيهما صرف الطّلا

و غالت الزّباء فى منعتها فأظفرت عمرا بها فما ألا

و أنفذت فى آل بكر حكمها و جرّعت مهلهلا كأس البلى

و كم سبت من سبإ من نعمة فمزّقوا فى كلّ قفر وفلا

و أهلكت عادا و أفنت جرهما و زوّدت منها تميما بالصّلى

فرعون موسى أولجت فى لجّة فمات قهرا بعد عزّ و علا

و أظفرت بابن زياد مثل ما أفنت يزيد حسرة لمّا اعتلى

و سيف استلّته من غمدانه من بعد ما قد خضعت له الطّلى

ثم أعادته فخرّ الجيش عن حوزته حزّ النبات المختلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۶۶

هى الليالى ليس يرعى صرفها لا خاملا فيها و لا من قد سما

و لا رسول اللّه فينا لم يزل كهف حمى، فهو لنا نعم الحمى

للّه ما أكرمه من سيّد ينمى من المجد لأعلى منتمى

سليم صدر ذو وفاء لم يجش فى صدره غشّ امرئ و لا غمى

أوسعنا فضلا فما خاب امرؤ أوى إلى ذاك الجناب و انتمى

يا من غدا للخلق كهفا و حمى فيكرم المثوى و آوى و حمى

إنّا أتينا من ديار دونها موحشة بيداء أو بحر طما

و إننى من قبح ما أسلفته ذو كبد رضّت و دمع قد همى

فلا تخيبنى ممّا لك من شفاعة ترجى و فضل قد نما

إنك من قوم بهم يشفى العنا و يدرك الشأو البعيد المرتمى

أعرض عن الجاهل مهما قد أسا و حسبه من جهله ما قد حوى

و لا تلم ذا سفه فإنه إن لمته لم يتّئد و لا أرعوى

و إن رأيت من كريم عثرة فقل لعا و لا تعب بما احتوى

و إن ترعك من زمان فرقة فاصبر لها فالصبر أشفى للجوى

لم أشكر البعد على خير حمى قد صدّنى عن أنسه شحط النوى

يا منزلا ما بين نجد و الحمى و يا ديارا بين كثبان اللّوى

هل لى إلى تلك المعالى عودة أو جرعة من ذلك الماء الرّوى

لا تعجبوا من لعب الدهر بنا فأىّ إنسان على حال سوى

إن عشت لاقيتهم و إن أمت فإنما الدنيا فناء و توى

إنّ رسول اللّه قد أمّلته فالدهر قد أضمر نصحى و نوى

إى و الذى ما زال يسرى جاهدا حتى أتى ميقاته و ما ونى

فقدّم الغسل و صلّى و نضا أثوابه مستغفرا ممّا جنى

ثم نوى ملبّيا ثم مضى حتى رأى ذات السناء و السنى

ثم أتى باب بنى شيبة قد أبصر ما أمّل قدما مذ دنا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۶۷

فقبّل الركن و طاف و سعى ثم مضى مرتحلا نحو منى

ثم أتى الموقف يدعو راغبا حتى إذا ما نفر القوم انثنى

ثم رمى ثم أفاض و انبرى معتمرا قد نال غايات المنى

ثم مضى مرتحلا فيمن مضى ميمّما طيبة لا يشكو العنا

يبغى التى شرّفها اللّه بمن شاد به الدين القويم و ابتنى

فلم يكن ممّن إذا حجّ جفا بل يمّم القبر و زار و اعتنى

خلق علا لم يحوها إلّا امرؤ نهاه عن نبذ العلا رعى النّهى

فإن يقل: من حازها؟ قل: الذى له تسامى كلّ مجد و انتهى

معتصم الراجين إن خطب دنا و كهفهم إن راع أمر و دهى

المرشد الناصح للّه فما قصّر فى نصر الهدى و لا لها

من جدّ فى إدراك ما رام يجد و لم يصب من قد توانى و سها

فلا يقصر بك خوف خيبة من خيّل الخيبة فى البدء و هى

و اكتسب الحمد بما تبديه من فتح اللّها بمستدامات اللّها

و احرص على المجد و دنياك اطّرح فأمرها أمر زهيد المشتهى

و المرء من إن فاته لم يكتئب و إن ينل لم يفتخر و لا ازدهى

من لازم الكبر على الناس اغتدى متّضع القدر و لو نال السّها

أنّى تخيب اليوم آمالى ولى من كفّه أكرم من صوب الحيا

يدنى الفتى إلى مدى آماله و لو غدا من دونها الأرض اللّيا

إن أهزل القوم زمان معوز أنعشهم حتى يرى لهم حيا

و إن أمات الجدب كلّ مخصب بدا لنيران القرى منه حيا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۶۸

أرسل سحب هديه جاريهٔ بالحقّ حتى حيى الدرّ حيا

أوقع فى الأنفس من ماء لدى ظام إذا ما اشتدّ بالشمس الحيا

لم تعى من فعل جميل كفّه و لا له من المكرمات معتيا

ما لى لا أبلغ أقصى غايهٔ فى مدح من بالغ جودا و اغتيا

لكلّ شخص غايهٔ يبلغها و ما له فى المعلوات مغتيا

تعيا يد السائل من معروفه و لم يقصّر كرما و لا اعتيا

و الآن قد أكملتها فى مدحه مقصورهٔ يقصر عنها من خلا

ضمّنتها من كلّ فنّ دررا نظما فأضحت من نفيسات الحلى

حلّيتها جيد معاليه و ما أملح حلى الحمد فى جيد العلا

جعلتها منى وداعا فاعتجب لنظمها الحلو الجنى كيف حلا

من قارب الرحلهٔ عن ذاك الحمى كيف أجاد النظم يوما أو درى

أرسلتها من خاطر خامره وجد جلا عن مقلتى طيب الكرى

و كيف لا آسى على بعدى عن قوم جرى من جودهم ما قد جرى

أنصار دين اللّه و الهادى الذى لو لا وضوح هديه ضلّ الورى

فالقلب بين مشرق و مغرب مقسّم اللوعهٔ مجذوب العرى

إذا ذكرت الغرب حنّت مهجتى و بلّ دمعى من جوى الشوق الثرى

و إن ذكرت حبّ من فى مشرق أبطأ بى حبّهم عن السّرى
إن يصف من وجه لشخص مورد كدّر من أخرى فلا صفو يرى
فإن ترحّلت فقلبى عندكم لم يرتحل عن بابكم و لا سرى
و لا تزال رسل شوقى أبدا تترى على مجدكم الجزل الندى
و لن تمرّ ساعة إلّا هفا بذكركم مفصح نظمى و شدا
فليس عندى للنجاة مخلص إن لم يكن منكم نوال وجدا
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۶۹
بكم ملاذى و حماكم ملجئى ليس سوى ذاك السماح المجتدى
و ما ذخرنا عدّة سواكم مثلكم من يرتجى و يجتدى
لا أوحش اللّه ديارا أنتم فيها و لا أزرى بمرعاها الصّدى
و لا نأت داركم و لا خلا ربعكم ما راح يوم و اغتدى

[قصيدة لابن جابر تتضمن التورية بأسماء سورة القرآن الكريم]

و من محاسنه أيضا البديعية المشهورة، و هى المعروفة ببديعية العميان، و لو لم يكن من محاسنه إلّا قصيدته التى فى التورية بسور القرآن و مدح النبى، صلى اللّه عليه و سلم، لكفى، و هى من غرر القصائد، و كثر من الناس ينسبها للقاضى الشهير عالم المغرب أبى الفضل عياض، و كنت أنا فى أوّل الاشتغال ممّن يعتقد صحّة تلك النسبة، حتى وقفت على شرح البديعية الموصوفة لرفيقه أبى جعفر، فإذا هى منسوبة للناظم ابن جابر، و هى: [البسيط]
فى كل فاتحة للقول معتبره حقّ الثناء على المبعوث بالبقرة
فى آل عمران قدما شاع مبعثه رجالهم و النساء استوضحوا خبره
من مدّ للناس من نعماه مائدة عمّت فليس على الأنعام مقتصره
أعراف نعماه ما حلّ الرجاء بها إلّا و أنفال ذاك الجود مبتدره
به توسّل إذ نادى بتوبته فى البحر يونس و الظلماء معتكره
هود و يوسف كم خوف به أمنا و لن يروّع صوت الرعد من ذكره
مضمون دعوة إبراهيم كان، و فى بيت الإله و فى الحجر التمس أثره
ذو أمّة كدوىّ النحل ذكرهم فى كلّ قطر، فسبحان الذى فطره
بكهف رحماه قد لاذ الورى، و به بشرى ابن مريم فى الإنجيل مشتهره
سمّاه طه، و حضّ الأنبياء على حجّ المكان الذى من أجله عمره
قد أفلح الناس بالنور الذى غمروا من نور فرقانه لمّا جلا غرره
أكابر الشعراء اللّسن قد عجزوا كالنمل إذ سمعت آذانهم سوره
و حسبه قصص للعنكبوت أتى إذ حاك نسجا بباب الغار قد ستره
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۷۰
فى الروم قد شاع قدما أمره و به لقمان وفّق للدّرّ الذى نثره
كم سجدة فى طلى الأحزاب قد سجدت سيوفه فأراهم ربّه عبره

سباهم فاطر السبع العلا كرما لمن بياسين بين الرّسل قد شهره

فى الحرب قد صفّت الأملاك تنصره فصاد جمع الأعادى هازما زمره

لغافر الذنب فى تفضيله سور قد فصّلت لمعان غير منحصره

شوراه أن تهجر الدنيا فزخرفها مثل الدخان فيعشى عين من نظره

عزّت شريعته البيضاء حين أتى أحقاف بدر و جند اللّه قد نصره

فجاء بعد القتال الفتح متّصلا و أصبحت حجرات الدين منتصره

بقاف و الذاريات اللّه أقسم فى أنّ الذى قاله حقّ كما ذكره

فى الطّور أبصر موسى نجم سؤدده و الأفق قد شقّ إجلالا له قمره

أسرى فنال من الرحمن واقعة فى القرب ثبّت فيه ربّه بصره

أراه أشياء لا يقوى الحديد لها و فى مجادلة الكفّار قد أزره

فى الحشر يوم امتحان الخلق يقبل فى صفّ من الرّسل كلّ تابع أثره

كفّ يسبّح للّه الحصاة بها فأقبل إذ جاءك الحقّ الذى قدره

قد أبصرت عنده الدنيا تغابنها نالت طلاقا و لم يصرف لها نظره

تحريمه الحبّ للدنيا، و رغبته عن زهرة الملك حقّا عند ما نظره

فى نون قد حقّت الأمداح فيه بما أثنى به اللّه إذ أبدى لنا سيره

بجاهه سال نوح فى سفينته سفن النجاة و موج البحر قد غمره

و قالت الجنّ جاء الحقّ فاتبعوا مزمّلا تابعا للحقّ لن يذره

مدّثّرا شافعا يوم القيامة هل أتى نبىّ له هذا العلا ذخره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۷۱

فى المرسلات من الكتب انجلى نبأ عن بعثه سائر الأخبار قد سطره

ألطافه النازعات الضيم فى زمن يوم به عبس العاصى لما ذعره

إذ كوّرت شمس ذاك اليوم و انفطرت سماؤه و دعت ويل به الفجره

و للسماء انشقاق و البروج خلت من طارق الشهب و الأفلاك منتثره

فسبّح اسم الذى فى الخلق شفّعه و هل أتاك حديث الحوض إذ نهره

كالفجر فى البلد المحروس غرّته و الشمس من نوره الوضاح مستتره

و الليل مثل الضحى إذ لاح فيه، أ لم نشرح لك القول فى أخباره العطره

و لو دعا التين و الزيتون لابتدرا إليه فى الحين و اقرأ تستبن خبره

فى ليلة القدر كم قد حاز من شرف فى الفخر لم يكن الإنسان قد قدره

كم زلزلت بالجياد العاديات له أرض بقارعة التخويف منتشره

له تكاثر آيات قد اشتهرت فى كلّ عصر فويل للذى كفره

أ لم تر الشمس تصديقا له حبست على قريش، و جاء الروح إذ أمره

أريت أنّ إله العرش كرّمه بكوثر مرسل فى حوضه نهره

و الكافرون إذا جاء الورى طردوا عن حوضه فلقد تبّت يدا الكفره

إخلاص أمداحه شغلى، فكم فلق للصبح أسمعت فيه الناس مفتخره

أزكى صلاتى على الهادى و عترته و صحبه، و خصوصا منهم عشرة

صدّيقهم عمر الفاروق أحزمهم عثمان ثم علىّ مهلك الكفره

سعد سعيد عبيد طلحة و أبو عبيدة و ابن عوف عاشر العشره

و حمزة ثم عباس و آلهما و جعفر و عقيل سادة خيره

أولئك الناس آل المصطفى و كفى و صحبه المقتدون السادة البرره

و فى خديجة و الزهرا و ما ولدت أزكى مديحى سأهدى دائما درره

عن كلّ أزواجه أرضى، و أوثر من أضحت براءتها فى الذكر منتشره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۷۲

أقسمت لا زلت أهديهم شذا مدحى كالروض ينثر من أكمامه زهره

انتهت القصيدة.

[معارضة لقصيدة ابن جابر، على وزنها و رويها]

و قد عارض منحاها جماعة فما شقّوا لها غبارا، و من معارضاتها قول بعضهم: [البسيط]

بسم الإله افتتاح الحمد و البقره مصلّيا بصلاة لم تزل عطره

على نبىّ له الرحمن ممتدح فى آل عمران أيضا و النسا ذكره

كذا بمائدة الأنعام فضّله و وصفه التم فى الأعراف قد نشره

أنفاله نزلت أيضا براءة من يحبّه و هو مشغول بما أمره

به نجا يونس من حوته و نجا هود و يوسف من سجن به عبره

أقسم برعد بإبراهيم أنّ له فى حجر نحل ترى الآيات مشتهره

سبحان جاعله كهفا لأمّته و مريم زوجة فى جنّة نضره

طه به الأنبيا للحجّ قد وفدوا و المؤمنون على النور اقتفوا أثره

آيات فرقانه ذلّت لها الشّعرا و سورة النمل قد قصّت لنا سيره

و العنكبوت على غار له نسجت و الروم ولّت برعب منه منكسره

لقمان حكمته من بعض حكمته فاسجد لربّ على الأحزاب قد نصره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۹؛ ص۱۷۲

كم فى سبا عبرة للقلب قد فطرت فلذ بياسين تنجو يا أخا البرره

قد صفّت الأنبيا و الرّسل قاطبة خلف النبى بأمر اللّه مؤتمره

إن صاد قلبى الهوى تنزيل منقذه و غافر الذنب كم ذنب له غفره

كم خلعة فصّلت للطائعين له و أمرهم بينهم شورى بلا نكره

لم تلههم زينة الدنيا و زخرفها كانوا يروها كدخان له قتره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۷۳

إذا جثا الخلق و الأحقاف قد شرفت فذاك يوم على الكفّار قد نصره

محمد خصّ بالفتح المبين و قد أتاه فى الحجرات الوحى بالخيره

قاف الوفاق و ذر الطور نجم هدى و شقّ ربّ السما للمصطفى قمره

رحمن واقعة كلّ الحديد بها كم من مجادلة فى الحشر محتذره

من يمتحن صفّنا فى يوم جمعتنا فليس يلفى به غشّ و لا كدره

مطهّر من نفاق ليس بينهم تغابن طلّقوا دنياهم القذره

و حرموها و فى ملك لها زهدوا كزهد صاحب نون حقّقن خبره

إن تسألونى عن نوح نبىّ هدى و المصطفى سامع الجنّ الذى جهره

مزّمّل اسمه مدّثّر، و له يوم القيامة للإنسان ما ضمره

للمرسلات نبا فى يوم نازعة عبوس تكوير شمس فيه منفطره

مطفف الكيل قد بانت خسارته يوم تشقّ السما أبراجها النضره

كم طارق سبّح الأعلى بغاشية و الفجر بلدته بالشمس مستتره

و الليل قمه و لا تترك صلاة ضحى يشرح لك الصدر و الخيرات مدّخره

بسورة التين اقرأ أنها نزلت فى ليلة القدر، و الأنوار منتشره

و لم يكن مثل خير الرّسل أحمدنا منه تزلزلت الكفّار و الفجره

بعاديات لها قرع بهامته أعمى التكاثر من قلب له بصره

من كان فى عصره همّازة لمزا يلقاه قبل قريش قاهر قهره

ويل لمانع ماعون تراه غدا مباعدا كوثر الهادى الذى أثره

الكافرون إذا جا نصر خالقنا تبّا لهم لعنوا هم أمّة كفره

أخلص لربّ فلق الناس تنج إذا يوم المعاد غدا من شرّة عسره

و صلّ ربّ على الهادى و عترته و آله و على أصحابه العشره

[قصيدة للشيخ القلقشندى جرى فيها مجرى ابن جابر]

و ممّن سلك هذا المنهج الشيخ القلقشندى إذ قال: [البسيط]

عوّذت حبّى بربّ الناس و الفلق المصطفى المجتبى الممدوح بالخلق

إخلاص وجدى له و العذر يقلقنى تبّت يدا عاذل قد جاء بالملق

يهدى لأمّته و النصر يعضده و الكافرون و عذّالى على نسق

هذا له كوثر و الدين شرعته و المصطفى من قريش ديّن و تقى

أ لم تر الماء قد سحّت أصابعه ويل لكلّ جهول بالنبى و شقى

فى كلّ عصر ترى آياته كثرت أضحى تكاثرها فى سائر الأفق

و عند قارعة فهو الشفيع لنا و العاديات من الأجفان فى طلق

و زلزلت من غرامى كلّ جارحة و كلّ بيّنة تحكى لكم علقى

يا عالى القدر رفقا مسّنى ضرر فاللّه قد خلق الإنسان من علق

و لو دعا التين و الزيتون جاء له و الشرح عنه طويل غير مختلق

يبدو كشمس الضّحى و الليل طرّته كالشمس فى بلد و الفجر فى أفق

إنى بغاشية لولاك يا أملى أنت الشفيع إلى الأعلى و خير تقى

كم طارق منك بالإحسان يطرقنى مثل البروج أتى فى أحسن الطرق

و فى انشقاق فؤادى عبرة، و به ويل من الصّدّ، و الأجفان فى أرق

و الانفطار به ممّا يكابده و الشمس قد كورت فى القلب ذى الحرق

و الصّبّ فى عبس و النازعات به و قد أتى نبأ من دمعه الغدق

و مرسلات دم الإنسان جارية إلى القيامة من دمعى و من حرقى

و بالمدّثّر إنى ماسك أبدا و بالمزّمّل إن ألجمت بالعرق

فالجنّ و الإنس فى خير ببعثته هذا و نوح به أنجى من الغرق

و فى المعارج معراج الرسول علا حقّا، و فى حاقّة كنز لمخترق

و اللّه مرسله فى نون بشّره و الملك خيّره حتى رأى و لقى

و جاء بالحلّ و التحريم أمّته و بالطلاق من الدنيا لمنطلق

و فى التغابن تجّار به ربحوا إذ المنافق فى خسر و فى نفق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۷۵

يا صاحب الجمعة الغرّاء يا أملى فى الصف عند امتحانى أنج من زلقى

و أنت فى الحشر عونى فى مجادلتى عسى تزيل حديد النار من عنقى

و عند واقعة إن كان لى رمق فاشفع إلى ربّك الرحمن من رمقى

لم أرع يا قمرى للنجم فى سهر إلّا لعلّك من نار الجحيم تقى

قلبى الكليم غدا للطّور مرتقيا و درّ دمعى غدا بالذاريات سقى

وقاف يعجز عن حمل الغرام بكم و ليس فى حجرات الدمع من رمق

إنّا فتحنا قتالا للعذول ففى أحقاف جاثية فى الغيظ و الحنق

دخان زخرف ما العذّال فيه هبا شورای تتركه فى أنف محترق

و عزّ من فصّلت فى مدحه سور نبيّنا المصطفى الهادى إلى الطرق

فغافر الذنب كم أهدى به زمرا و كم سقى كفّه صاد بمندفق

و ليس غيرك فى الصافات أقصده و أنت ياسين لى من سائر الفرق

يا فاطرا قد سبا الأحزاب طلعته كم سجدة لك فى الأسحار و الغسق

لقمان يشهد أنّ الروم تعرفه و العنكبوت فقد سدّت عن الغلق

هذا ولى قصص بالنمل قد كتبت هامت بها الشعراء فى خدّه اليقق

تبارك اللّه من بالنور جمّله قد أفلح الحج لمّا زاره فوقى

يا أيها الأنبيا طه ختامكم و يا ابن مريم خذ من مسكه العبق

لاذوا بكهف لهم سبحان خالقه حتى أتى الأمر بعد الخوف و الفرق

فالركن و الحجر حقّا قد أضاء له و ذاك دعوة إبراهيم ذى الخلق

و اللّه ربى بربّ الرعد ينصره مسير شهر بلا سيف و لا درق

فيوسف مع هود و الخليل إذا و يونس شربوا من كأسه الدهق

لتوبتى أرتجى الأنفال منه غدا فإننى رجل أضحيت فى قلق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۷۶

أعراف أنعام إنعام له اشتهرت و كم لمائدة أسدى لمرتزق

كلّ النسا لم تلد مثل الرسول إذا فينا و فى آل عمران و لم تطق

أعطيت خاتمة من سورة البقرة لم يعطها أحد فيما مضى و بقى

فأنت فاتحة الأنباء و خاتمهم و كلّهم قد أتوا بالودّ و الملق

و القلقشندى محبّ قال سيرته فى مدح خير الورى الممدوح بالخلق

فاقبل هدية عبد أنت مالكه و انظر إليه فإنّ العبد فى قلق

صلّى عليك إله العرش ما طلعت ورقا على فتن و الورق فى الورق

و هذه القصيدة و إن لم تلحق بلاغة قصيدة ابن جابر فهى ممّا يتبرّك به، و الأعمال بالنيّات.

[معارضة أخرى لقصيدة ابن جابر]

و وقفت على أخرى من هذا النمط هى بالنسبة إلى هذه كنسبة هذه إلى قصيدة ابن جابر، و هى: [الطويل]

بحمد إله العرش أستفتح القولا و فى آية الكرسىّ أستمنح الطّولا

و فى آل عمران بدا ذكر أحمد نساؤهمو بالعقد قد أنعموا القولا

بأعراف رحماه بأنفال جوده شرفنا و فضّلنا و تبنا إلى المولى

له يونس نادى و هود و يوسف و ذاكره فى الرعد لا يسمع الهولا

و دعوة إبراهيم كان محمد و فى الحجر خير الخلق قد فضل الرسلا

له أمّة كالنحل قد صحّ فضلهم فسبحان من أسرى بأحمدنا ليلا

علا فضله و الناس فى كهف نيله و مريم فى الأخرى يكون لها بعلا

و طه له فضل على الخلق كلّهم و لكن جميع الأنبياء علا فضلا

و لولاه ما حجّ المقام و كعبة فأفلح من قد طاف فيها و من حلا

و من نوره الوهّاج كلّ منوّر و فرقانه قد أخمد الكفر و البطلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۷۷

ترى الشعرا كالنمل حول محمد إذا قصص فى العنكبوت لهم تتلى

علا ديننا روما و لقمان عالم بأنّ السيوف أسجدت كلّ من ضلّا

و الأحزاب يسبيهم بحكمة فاطر و ياسين قد صفّت له الملأ الأعلى

و صاد جميع الكافرين بزمرة له غافر فى الحرب قد فصّلت فصلا

و شوراه فى الدنيا بها كلّ زلفة و قد زخرف الكفّار فى دينهم جهلا

لقد رأوا الدخان حول بيوتهم بجاثية الأحقاف قد قتلوا قتلا

محمدنا لم يخلق اللّه مثله و فى الحجرات فضله أبدا يتلى

و قد أنزل الجبّار قافا بذكره كما تذر الكفّار ريح بها تبلى
بطور سما و النجم ما ضوء أحمد كما قمر بل نور خير الورى أجلى
به اللّه رحمن و فى وقعة جرى حديد به الكفّار يجدلهم جدلا
و قد سمع الغفّار دعوة أحمد بحشر، و لكن بامتحان به تبلى
صففنا بجمع للأعادى فمنهم منافق إنّ الكفر فى درك سفلى
يرى غبنه فى الخير منهم مطلّق و لكنّ من يحرم نعيما فقد ضلّا
لأحمد ملك لا يوازيه سيّد و نون لقد قلنا مقالا به استعلى
بحقّ لقد سالت أباطح مكّة بفضل الذى قد كان نوح به استعلى
صحيح بأنّ الجنّ جاءت لأحمد و مزّمّل كان الغمام له ظلّا
لمدّثّر فضل القيامة واضح أتاه، و جمع المرسلات أتت سبلا
و عمّ بجدواه فلا من منازع فحيث تراه لا عبوسا و لا بخلا
لقد كوّرت شمس بها انفطر السما لويل أتى الكفّار و انشقّ و استولى
و لكن بروج الجوّ تزهو بأحمد و فى طارق الأفلاك فضّله الأعلى
و غاشية كالفجر حلّت ببلدة بها حرم أمن كشمس جلت ليلا
و فاق الضّحى حقّا جبين محمد كما بانشراح الصدر قد خصّه المولى
فأقسم بالتين الذى عمّ نفعه و بالقلم الأعلى لقدر له أعلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۷۸

أ لم يكن الكفّار قد ضلّ سعيهم و قد زلزلوا بالعاديات كما يتلى
و قارعة جلّت و ألهاهم الهوى و و العصر إنّ الويل يقريهم نزلا
أ لم تر أنّ اللّه فضّل أحمدا لأمن قريش حيثما سلكوا السبلا
أريت بأنّ الكوثر العذب خصّه به، و جميع الكفر لن يردوا أصلا
لقد نصر الرحمن ربى محمدا فأردى أبا لهب و لم يكتسب نيلا
فيا أحد إنى بفضلك عائذ إذا غسق الديجور ناديت يا مولى

و لم أقف على غير هذه الأبيات من هذه القصيدة، و قد سقط منها كما رأيت سورة الناس، فقلت مكملا على نمطه: [الطويل]

و يا مالكا للناس إنى لائذ بعفوك فاغفر عمد عبدك و الجهلا
و يا ربّ عاملنا بما أنت أهله من الجود و الرحمى و إن لم نكن أهلا
و صلّ على مسك الختام محمد أتمّ صلاة تملأ الحزن و السّهلا

[خطبة نثرية للقاضى عياض تتضمن التورية بأسماء السور]

و تذكّرت بهذا الموضع خطبة القاضى أبى الفضل عياض التى ضمّنها سور القرآن على المهيع الماضى آنفا، و هى: الحمد للّه الذى افتتح بالحمد كلامه، و بين فى سورة البقرة أحكامه، و مدّ فى آل عمران و النساء مائدة الأنعام ليتمّ إنعامه، و جعل فى الأعراف أنفال توبة يونس و ألر كتاب أحكمت آياته بمجاورة يوسف الصدّيق فى دار الكرامة، و سبّح الرعد بحمده، و جعل النار بردا و سلاما على إبراهيم، ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر اللّه سبحانه فلا كهف و لا ملجأ إلّا إليه و لا يظلمون قلامة، و جعل فى حروف كهيعص سرّا

مكنونا قدم بسببه طه صلى اللّه عليه و سلم على سائر الأنبياء ليظهر إجلاله و إعظامه، و أوضح الأمر حتى حجّ المؤمنون بنور الفرقان و الشعراء صاروا كالنمل ذلّا و صغارا لعظمته، و ظهرت قصص العنكبوت فآمن به الروم، و أيقنوا أنه كلام الحى القيّوم، نزل به الروح الأمين على زين من وافى القيامة، و أوضح لقمان الحكمة بالأمر بالسجود لربّ الأحزاب فسبا فاطر السماوات أهل الطاغوت، و أكسبهم ذلّا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۷۹

و خزيا و حسرة و ندامة، و أمدّ ياسين صلى اللّه عليه و سلم بتأييد الصافّات فصاد الزمر يوم بدره و أوقع بهم ما أوقع صناديدهم فى القليب مكدوس و مكبوب حين شالت بهم النّعامة، و غفر غافر الذنب و قابل التوب للبدريين رضى اللّه عنهم ما تقدّم و ما تأخّر حين فصّلت كلمات اللّه فذلّ من حقّت عليه كلمة العذاب و أيس من السلامة، ذلك بأن أمرهم شورى بينهم و شغلهم زخرف الآخرة عن دخان الدنيا فجثوا أمام الأحقاف لقتال أعداء محمد صلى اللّه عليه و سلم يمينه و شماله و خلفه و أمامه، فأعطوا الفتح و بوّئوا حجرات الجنان و حين تلوا ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ [سورة ق: ۱] و تدبّروا جواب قسم الذاريات و الطّور لاح لهم نجم الحقيقة و انشقّ لهم قمر اليقين فنافروا السآمة، ذلك بأنهم أمنهم الرحمن إذا وقعت الواقعة و اعترف بالضعف لهم الحديد و هزم المجادلون و أخرجوا من ديارهم لأوّل الحشر يخرّبون بيوتهم بأيديهم و أيدى المؤمنين حين نافروا السلامة.

أحمده حمد من امتحنته صفوف الجموع فى نفق التغابن فطلق الحرمات حين اعتبر الملك و عامه، و قد سمع صريف القلم و كأنه بالحاقة و المعارج يمينه و شماله و خلفه و أمامه، و قد ناح نوح الجنّ فتزمّل و تدثّر فرقا من يوم القيامة، و أنس بمرسلات النبإ فنزع العبوس من تحت كور العمامة، و ظهر له بالانفطار التطفيف فانشقّت بروج الطارق بتسبيح الملك الأعلى و غشيته الشهامة، فو ربّ الفجر و البلد و الشمس و الليل و الضحى لقد انشرحت صدور المتقين، حين تلوا سورة التين، و علق الإيمان بقلوبهم فكلّ على قدر مقامه يبين، و لم يكونوا بمنفكين دهرهم ليله و نهاره و صيامه و قيامه، إذا ذكروا الزلزلة ركبوا العاديات ليطفئوا نور القارعة، و لم يلههم التكاثر حتى تلوا سورة العصر و الهمزة و تمثّلوا بأصحاب الفيل فليعبدوا ربّ هذا البيت الذى أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف أ رأيتهم كيف جعلوا على رؤوسهم من الكور عمامة، فالكوثر مكتوب لهم و الكافرون خذلوا و هم نصروا و عدل بهم عن لهب الطامّة، و بسورة الإخلاص قرّوا و سعدوا و بربّ الفلق و الناس استعاذوا فأعيذوا من كلّ حزن و همّ و غمّ و ندامة.

و أشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له، و أشهد أنّ محمدا عبده و رسوله شهادة ننال بها منازل الكرامة، صلّى اللّه تعالى عليه و على آله و أصحابه ما غرّدت فى الأيك حمامة؛ انتهت.

و ممّن نسبها للقاضى عياض الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن الشيخ أبى العباس أحمد بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۸۰

أبى جمعة الوهرانى، و فى نفسى من نسبتها له شىء لأنّ نفس القاضى فى البلاغة أعلى من هذه الخطبة، و اللّه تعالى أعلم.

[خطبة لسعيد بن أحمد المقرى عم المؤلف عارض بها خطبة القاضى عياض]

و كنت رأيت بتلمسان المحروسة بخطّ عمى و مفيدى ولىّ اللّه تعالى العارف المعروف بشيخ الشيوخ الإمام المفتى الخطيب سيدى سعيد بن أحمد المقرى- صبّ اللّه عليه سجال الرضوان!- خطبة من هذا النمط نصّها:

الحمد للّه الذى افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ليصطفى من آل عمران رجالا و نساء و فضّلهم تفضيلا، و مدّ مائدة أنعامه و رزقه ليعرف أعراف أنفال كرمه و حقّه على أهل التوبة و جعل ليونس فى بطن الحوت سبيلا، و نجّى هودا من كربه و حزنه، كما خلّص يوسف من سجنه و جبّه، و سبّح الرعد بحمده و يمنه، و اتّخذ اللّه إبراهيم خليلا، الذى جعل فى حجر الحجر من النحل شرابا نوّع باختلاف ألوانه، و أوحى إليه بخفّى لطفه سبحانه، و اتّخذ منه كهفا قد شيد بنيانه، و أرسل روحه إلى مريم فتمثّل لها تمثيلا، و فضّل

طه على جميع الأنبياء فأتى بالحج و الكتاب المكنون، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون، إذ جعل نور الفرقان دليلا، و صدّق محمدا صلى اللّه عليه و سلم الذى عجزت الشعراء فى صدق نعته، و شهدت النمل بصدق بعثه، و بين قصص الأنبياء فى مدة مكثه، و نسج العنكبوت عليه فى الغار سترا مسدولا، و ملئت قلوب الروم رعبا من هيبته، و تعلّم لقمان الحكمة من حكمته، و هدى أهل السجدة للإيمان بدعوته، و هزم الأحزاب و سباهم و أخذهم أخذا و بيلا، فلقّبه فاطر السماوات و الأرض بياسين كما نفذ حكمه فى الصافّات، و بين صاد صدقه بإظهار المعجزات، و فرق زمر المشركين و صبر على أقوالهم و هجرهم هجرا جميلا، فغفر له غافر الذنب ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر، و فصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم شورى بينهم و زخرف منار الإسلام و خفى دخان الشرك و خرّت المشركون جاثية كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلا، و أذلّ الذين كفروا بشدّة القتال و جاء الفتح للمؤمنين و النصر العزيز، و حجر الحجرات الحريز، و بقاف القدرة قتل الخرّاصون تقتيلا، كلّم موسى على جبل الطور، فارتقى نجم محمد صلى اللّه عليه و سلم فاقتربت بطاعته مبادى السرور، و أوقع الرحمن واقعة الصبح على بساط النور، فتعجّب الحديد من قوته، و كثرة المجادلة فى أمّته، إلى أن أعيد فى الحشر بأحسن مقيلا، امتحنه فى صفّ الأنبياء و صلّى بهم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۸۱

إماما، و فى تلك الجمعة ملئت قلوب المنافقين من التغابن خسرا و إرغاما، فطلق و حرم تبارك الذى أعطاه الملك و علّم بالقلم و رتّل القرآن ترتيلا، و عن علم الحاقة كم سأل سائل فسال الإيمان، و دعا به نوح فنجّاه اللّه تعالى من الطوفان، و أتت إليه طائفة الجنّ يستمعون القرآن فأنزل عليه: يا أيها المزّمّل، قم الليل إلّا قليلا، فكم من مدّثّر يوم القيامة شفقة على الإنسان إذا أرسل مرسلات الدمع فعم يتساءلون أهل الكتاب، و ما تقبل من نازعات المشركين إذا عبس عليهم مالك و تولّاهم بالعذاب، و كوّرت الشمس و انفطرت السماء و كانت الجبال كثيبا مهيلا، فويل للمطففين إذا انشقت السماء بالغمام، و طويت ذات البروج و طرق طارق الصور بالنفخ للقيام، و عزّ اسم ربّك الأعلى لغاشية الفجر فيومئذ لا بلد و لا شمس و لا ليل طويلا، فطوبى للمصلّين الضحى عند انشراح صدورهم إذا عاينوا التين و الزيتون و أشجار الجنّة فسجدوا باقرأ باسم ربّك الذى خلق هذا النعيم الأكبر لأهل هذه الدار ما أحيوا ليلة القدر و تبتّلوا تبتيلا، و لم يكن للذين كفروا من أهل الكتاب من صديق و لا حميم، و تسوقهم كالعاديات إلى سواء الجحيم، و زلزلت بهم قارعة العقاب و قيل لهم: ألهاكم التكاثر، هذا عصر العقاب الأليم، و حشر الهمزة و أصحاب الفيل إلى النار فلا يظلمون فتيلا، و قالت قريش:

ما أمنتم من هول المحشر، أ رأيت الذى يكذّب بالدين كيف طرد عن الكوثر، و سيق الكافرون إلى النار و جاء نصر اللّه و الفتح فتبّت يدا أبى لهب إذ لا يجد إلى سورة الإخلاص سبيلا، فنعوذ بربّ الفلق من شرّ ما خلق، و نعوذ بربّ الناس ملك الناس إله الناس من شرّ الوسواس الخنّاس الذى فسق، و نتوب إليه، و نتوكّل عليه، و كفى بالله وكيلا؛ انتهى.

و من إنشاء الفقيه الجليل الشريف الكامل أبى المجد عبد المنعم ابن الشيخ الفقيه العدل أبى جعفر أحمد بن عبد اللّه بن عبد المنعم الهاشمى الطنجالى رحمه اللّه تعالى و نفعنا به و بسلفه الطاهر:

[من نظم ابن جابر و فى معناه لشمس الدين الدمشقى]

و من نظم ابن جابر المذكور قوله: [الكامل]

جعلوا لأبناء الرسول علامة إنّ العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوّة فى كريم وجوههم يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۸۲

و فى هذا المعنى يقول شمس الدين الدمشقى: [الكامل]

أطراف تيجان أتت من سندس خضر بأعلام على الأشراف

و الأشرف السلطان خصّهم بها شرفا لتفرقهم من الأطراف

و الأشرف المذكور هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحى الألفى، رحمهم اللّه تعالى!

و قال الرحالة ابن بطوطة فى رحلته عند ذكر سلطان ماردين ابن الملك الصالح ابن الملك المنصور ما نصّه: و له المكارم الشهيرة، و ليس بأرض الشام و العراق و مصر أكرم منه، يقصده الشعراء و الفقراء فيجزل عطاياهم جريا على سنن أبيه. قصده أبو عبد اللّه محمد بن جابر الأندلسى الهوّارى الكفيف مادحا فأعطاه عشرين ألف درهم؛ انتهى.

[من شعر ابن جابر أيضا]

و من شعر ابن جابر رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

و فى الخيام و من لى بالخيام رشا لا أحسب البدر فى حسن يقاومه

مثل الغزالة إن تاهت و إن طلعت فكيف يصرف عنه الصّبّ لائمه

و قوله رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

فى القلب من حبّكم بدر أقام به فالطرف يبصر نورا حين يبصره

تشابه العقد حسنا فوق لبّته و الثغر نظما إذا ما لاح جوهره

و قوله: [الكامل]

ردف أقام لنا بها فتن الهوى و إذا أتت لتقوم قال لها اقعدى

أبصرتها ما بين ذاك و بين ذا فوقعت منها فى المقيم المقعد

و قوله: [السريع]

سامح بالوصل على بخله و قال لى أنت بوصلى حقيق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۸۳

فقلت ما رأيك فى نزهة ما بين كاسات و روض أنيق

فقال يعنى خدّه و اللّمى: هذا هو الروض و هذا الرحيق

فبتّ من دمعى و من خدّه ما بين نعمان و بين العقيق

و إذ تذلّلت على حبّه قال: أما تخشى؟ أما تستفيق؟

قدّى و خدّى خفهما يا فتى هذا هو الرمح و هذا شقيق

و قوله: [الخفيف]

وقفت للوداع زينب لمّا رحل الركب و المدامع تسكب

مسحت بالبنان دمعى، و حلو سكب دمعى على أصابع زينب

[رجع لأولاد لسان الدين، من ترجمة على بن لسان الدين]

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمه اللّه تعالى.

و من قصيدة موشحة لابن زمرك يخاطب بها شيخه و مخدومه الوزير لسان الدين بن الخطيب قبل أن يظلم الجوّ بينه و بينه، جوابا عن رسالة خاطب بها لسان الدين بن الخطيب أولاده صدر نظم له لم يحضرنى ذلك الآن قوله: [مخلع البسيط]

ما لى بحمل الهوى يدان من بعد ما أعوز التدانى

أصبحت أشكوه من زمان ما بتّ منه على أمان

ما بال عينيك تسجمان و الدمع يرفضّ كالجمان

ناداك و الإلف عنك و ان و البعد من بعده كوانى

يا شقّة النفس من هوان لجّج فى أبحر الهوان

لم يثنه عن هواك ثان يا بغية القلب قد كفانى

و قال بعض الحفّاظ فى ترجمة أبى الحسن على بن لسان الدين بعد أن ذكر روايته عن أبيه و ابن الجياب و ابن مرزوق: إنه أخذ عن جماعة غيرهم، كالشريف القاضى الفقيه أبى على الحسن بن يوسف بن يحيى بن أحمد الحسنى السبتى نزيل تلمسان، و الفقيه الإمام العلّامة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۸۴

قاضى الجماعة بفاس و كبير العلماء بالمغرب أبى عبد اللّه محمد المقرى التلمسانى القرشى، و الشريف العالم أبى القاسم محمد بن الفقيه العالم المعلم لكتاب اللّه تعالى أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن محمد بن على بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن إدريس بن الحسن بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنهم، و ليس إدريس المذكور هنا بملك المغرب و جدّ الأدارسة.

قال: و روى أيضا عن القاضى ابن شبرين الإشبيلى ثمّ السبتى نزيل غرناطة، و القاضى أبى البركات البلفيقى، و الكاتب صاحب القلم الأعلى أبى جعفر بن صفوان القيسى المالكى، و ابن خاتمة، و الفقيه الحاج أبى القاسم محمد ابن الفقيه الصالح العالم أبى عمرو يحيى ابن الفقيه الصالح أبى القاسم محمد الغسانى الرحبى نزيل فاس، و غيرهم ممّن يطول تعدادهم من الأئمّة الأعلام، نجوم الإسلام؛ انتهى.

[خطبة الكفعمى فى التورية بسور القرآن الكريم]

و قد وقفت للكفعمى رحمه اللّه تعالى فى شرح بديعيته على خطبة و قصيدة من هذا النمط. قال رحمه اللّه تعالى ما نصّه:

و لنختم الخاتمة بخطبة و جيزة، فى فنّها عزيزة، و جعلناها فى مدح سيد البرية، و توارياتها فى السور القرآنية، فكن لسورها قاريا، و لمعارجها راقيا، و علّ و انهل من شرابها السكرى، و فكه نفسك بتسجيعها العبقرى، و هى هذه:

الحمد للّه الذى شرّف النبىّ العربىّ بالسبع المثانى و خواتيم البقرة من بين الأنام، و فضل آل عمران على الرجال و النساء بما وهب لهم من مائدة الأنعام، و منحهم بأعراف الأنفال و كتب لهم براءة من الآثام، و أشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له الذى نجّى يونس و هودا و يوسف من قومهم برعد الانتقام، و غذى إبراهيم فى الحجر بلعاب النحل ذات الإسراء فضاهى كهف مريم عليها السلام، و أشهد أنّ محمدا عبده و رسوله الذى هو طه الأنبياء و حج المؤمنين و نور فرقان الملك العلام، فالشعراء و النمل بفضله تخبر، و لقصص العنكبوت الروم تذكر، و لقمان فى سجدته يشكر، و الأحزاب كأيادى سبا تقهر، و فاطر يس لصافّاته ينصر، و صاد مقلة زمره تنظر الأعلام، فآل حم بقتال فتحه فى حجرات قافه قد ظهرت، و ذاريات طوره و نجمه و قمره قد عطرت، و بالرحمن واقعة حديده يوم المجادلة قد نصرت، و أبصار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۸۵

معانديه فى الحشر يوم الامتحان حسرت، و صفّ جمعته فائز إذ أجساد المنافقين بالتغابن استعرت، و له الطلاق و التحريم و مقام الملك و القلم فناهيك به من مقام، و فى الحاقة أعلى اللّه له المعارج على نوح المتطهّر، و خصّه من بين الإنس و الجنّ بيا أيها

المزّمّل و يا أيها المدّثر، و شفّعه فى القيامة إذا دموع الإنسان مرسلات كالماء المتفجّر، و وجهه عند نبإ النازعات و قد عبس الوجه كالهلال المتنور، و يوم التكوير و الانفطار و هلاك المطففين و انشقاق ذات البروج بشفاعته غير متضجر، و قد حرست لمولده السماء بالطارق الأعلى و تمّت غاشية العذاب إلى الفجر على المردة اللئام، فهو البلد الأمين و شمس الليل و الضحى المخصوص بانشراح الصدر، و المفضل بالتين و الزيتون المستخرج من أمشاج العلق الطاهر العلى القدر، شجاع البرية يوم الزلزال إذ عاديات القارعة تدوس أهل التكاثر و مشركى العصر، أهلك اللّه به الهمزة و أصحاب الفيل إذ مكروا بقريش و لم يتواصوا بالحقّ و لم يتواصوا بالصبر، المخصوص بالدين الحنيفى و الكوثر السلسال و المؤيّد على أهل الجحد بالنصر، صلّى اللّه عليه و على آله و أصحابه ما تبت يدا معاديه، و نعم بالتوحيد مواليه، و ما أفصح فلق الصبح بين الناس و امتدّ الظلام.

[قصيدة فى نسق سور القرآن للكفعمى أيضا]

و لنشفع هذه الخطبة بقصيدة على سور القرآن، فى مدح سيد ولد عدنان، يحسن هنا أن ننضى عن فرائد نفائسها لطلابها، ما أغدف من خمرها و ستورها، و نجلّى عن خرائد عرائسها لخطابها، ما أسدف من غررها فى خدورها، فانظر إلى سور أبياتها و صور توریاتها، ثم ادعهنّ يأتينك سعيا، فحفظا لها و وعيا، و هى هذه: [الكامل]

يا من له السبع المثانى تنزل و خواتم البقره عليه أنزل

فى آل عمران النساء لم يلد ن نظيره أعياد ذلك تفعل

مولى له الأنعام و الأعراف و ال أنفال و الحكم التى لا تجهل

بعلاه توبة يونس قبلت كذا هود و يوسف رعدهم يتجلجل

و كذاك إبراهيم فى حجر له و النحل فى الإسرا عليه تعوّل

يا كهف مريم أنت طه الأنبيا و الحج ثم المؤمنون الأفضل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۸۶

يا نور يا فرقان يا من مدحه نطقت به الشعراء و هو المرسل

و النمل فى قصص الحديث به دعت و عليه نسج العنكبوت يهدّل

و الروم تتلو اسمه و لكم به لقمان حقّا فى المضاجع يسأل

و بعزمه الأحزاب جمعهم سبا و به الملائكة الكرام تفضل

يس سمّاه الإله بذكره و كواكب بسعوده لا تأفل

يا ليتنى صاد شربت بكأسه و عليه فى زمر وردت فأنهل

كم مؤمن قد فصّلت أعلامه من زخرف بجداه يا من يعقل

و دخان جاثية على أحقافها بقتاله أطفى و فتح أدخل

حجرات قاف ذاريات سمائه فى طورها نجم منير يكمل

و دنا له القمر المنير و شقّه الر حمن واقعة له لا تجهل

زغف الحديد بحربه أصواتها رعد مجادلة لقوم أبسلوا

و له لدى الحشر العظيم شفاعة فى أمّة بالامتحان تسربلوا

عن صفّ جمعته المنافق نائيا يوم التغابن من حديد ينعل

يا من به شرع الطلاق و من له ال تحريم و الملك العظيم الأجمل

يا من به ذو النون لاذ بيمنه لمّا أصيب بحاقة لا تعدل

يا من سأل نوح بطاهر اسمه يا من أتته الجنّ يا مزّمّل

مدّثّر يوم القيامة شافع و مخلّص الإنسان و هو الموئل

يا من نزول المرسلات ببعثه يا أيها النبأ العظيم الأكمل

و النازعات نزعن نفس عدوّه هذا، و قد عبس الجبين و أذهلوا

و هو الشفيع إذا المنيرة كوّرت و الانفطار من السماء يعجل

ولدى ذوى التطفيف ويل و السما فى الانشقاق إذا البروج تبدل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۸۷

و اللّه قد حرس السماء بطارق لولادة الأعلى به يتفضل

و أزال غاشية العذاب و نوره كالفجر إذ أنواره تتهلّل

بلد أمين ثم شمس أشرقت و الشعر ضاهى الليل بل هو أليل

شمس الضحى من وجهه و لصدره الانشراح، و قلبه لا يغفل

يا من أتى فى التين حقّا ذكره فاقرأ و لا يرتاب فيه، و اسألوا

يا من ليالى القدر بيّنة له و عداه بالزلزال منه تزلزلوا

بالعاديات أزال قارعة العدا و بقوله ألهاكم ما تجهل

و لقد أتى من قبل عصر نبيّنا ويل لأهل الفيل منه و قتّلوا

هو صاحب الإيلاف و الدين الذى يسقى غدا من كوثر يتسلسل

و الكافرون لنصره فى جيدهم مسد إذا التوحيد عنه تعدل

يا خاتما فلق الصباح كوجهه و الناس منه مكبر و مهلّل

أبياتها ميقات موسى عدّة و الكفعمىّ بمدحه يتجمّل

صلّى عليه اللّه مع أصحابه ما زال طير العندليب يعندل

[ترجمة إبراهيم بن على الكفعمى]

و الكفعمى هو إبراهيم بن على بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كفر عيما قرية من قرى أعمال صفد، كما تقول فى النسبة إلى بنى عبد الدار: عبدرى، و إلى حصن كيفا:

حصكفى، و شرحه لبديعيته سمّاه «نور حدقة البديع، و نور حديقة الربيع» و ما رأيت مثله فى سعة الحفظ و الجمع.

و من نظمه فى أسماء الكتب: [الخفيف]

يا طريق النجاة بحر فلاح أنت دفع الهموم و الأحزان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۸۸

أنت أنس التوحيد عدّة داع ثم روح الإحيا و فلك المعانى

نهج حىّ و نثر درّ نبيّه و رياض الآداب ذكرى البيان

فائق رائع مسرّة راض منتهى السؤل جامع للأمانى

نزهة عدّة ظرائف لطف روضة منهج جنان الجنان

فصحاح الألفاظ فيه تلقّى و شذور العقود و المرجان

و هو قوت القلوب نهج جنان و كنوز النجاح و البرهان

فناسب بين أسماء الكتب، و قصده غير ذلك، و أكثر هذه الكتب التى ورّى بها غير موجودة بأيدى الناس، بل و لا معروفة لديهم، و هذا دليل على صحّة اطّلاعه.

و من بدائع الكفعمى المذكور رسالة كتب بها إلى قاضى القضاة العالم العلامة أبى العباس ابن الفرفورى فى شأن أستادار قاضى القضاة المذكور الأمير علاء الدين، و يخرج من أثنائها قصيدة منها: يقبل الأرض و ينهى (سلام) عبد لكم (محب) و على المقة مكب (لوبدا) للناظرين (عشر) معشار (شوقه) و غرامه (لطبّق) ذلك (ما بين) آفاق (السماوات) السبع (و الأرض) لشدّة هيامه (تراه) حقّا (لكم) حافيا (بالأمن) و السرور (و السعد) و الحبور (داعيا) لا جرم (و هذا) الثناء المتوالى و (الدعا) للمقام العالى (لا شكّ من لازم الفرض) ملّكه اللّه تعالى أزمّة البسط و القبض (و أنجاك) ربّى من المصاعب (فى) دينك و (دنياك) و أنقذك (من) شرّ (كل) صغير (شدّة) و كبيرها (و أرضاك) و جعلك أمينا (فى) الأرض، إلى (يوم القيامة) و النشور (و العرض، كما أنت) أمن (لى) من المخاوف و (عون) فى كلّ شدّة (و غوث) و ملجأ (و عدة) و أنجحت آمالى (و وفرت) بإخدامك (لى مالى) و أحسنت قرضى (و وفرت) بإجلالك (لى عرضى، و ينهى) المملوك (إلى) سيده (قاضى القضاة) و كافى الكفاة (بأن) المتولى الأمين (ذا) الفخر المبين (على ابن) المرحوم (فخر الدين) قوله (فى أمركم) العالى (مرضىّ) و فعله مقضى (و مدحكم) عليه (فرض) واجب (يراه) أبدا (لسانه) و يذكر المناقب (و حبّكم) له و اختياركم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۸۹

(إياه) دالّ بأنه أمير حكيم (شاهده) حقّا (يقضى) يجعله على خزائن الأرض إنه حفيظ عليم (حديث) مدح (سواكم) ليس من مدائحه، و (لا- يمرّ) أبدا (بقلبه*) و جوارحه (و إن مرّ) فى خاطره (لا- يحلو) قطعا (و حكمكم) عليه شرعا، و مرسومكم (يمضى) و أمركم يقضى (يتيه) سرورا (به) رؤساء الشام، و (من فى القبيبات) من الأنام، (عزّة) و علوا (لخدمته) الشريفة (إياك) و لأنه (يا قاضى) قضاة الدين و (الأرض) لا يريد سواك، (فإن يك) الخادم المذكور (فى) بعض (أفعاله) غافلا (أو) فى (مقاله) غير كامل و (عصاكم) فى بعض الأمر (فعين العفو) و الستر (عن ذنبه) لا جرم (تغضى)، و هو بتوبته إليه يفضى، و (سلام) اللّه (عليكم) و رحمته لديكم (كلّما) نطق ناطق أو (ذرّ) فى المشارق (شارق) و ما دارت الأفلاك، (و سبحت) بلغاتها (الأملاك، فى) فسيح (الطول و) رحب (العرض)، دوما ما بين السماء و الأرض.

و هذه أبيات القصيدة المتولّدة من هذه الرسالة: [الطويل]

سلام محبّ لو بدا عشر شوقه لطبّق ما بين السّماوات و الأرض

تراه لكم بالأمن و السعد داعيا و هذا الدعا لا شكّ من لازم الفرض

و أنجاك فى دنياك من كلّ شدّة و أرضاك فى يوم القيامة و العرض

كما أنت لى عون و غوث و عدّة و وفرت لى مالى و وفرت لى عرضى

هذا، و يصحّ أن يقرأ «عونا» بالنصب على الحاليّة، و هو الذى رأيته بخطّه، أعنى الكفعمى، ثم قال: [الطويل]

و ينهى إلى قاضى القضاة بأنّ ذا علىّ بن فخر الدين فى أمركم مرضى

و مدحكم فرض قراه لسانه و حبّكم إياه شاهده يقضى

حديث سواكم لا يمرّ بقلبه و إن مرّ لا يحلو و حكمكم يمضى

يتيه به من فى القبيبات عزّة لخدمته إياك يا قاضى الأرض

فإن يك فى أفعاله أو مقاله عصاكم فعين العفو عن ذنبه تغضى

سلام عليكم كلّما ذرّ شارق و سبّحت الأملاك فى الطول و العرض

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۹۰

قلت: و هـذه طريقة بديعة، و قد تبارى فيها السلف، فبعضهم يعمد إلى أحاديث أو آيات و ينسج على منواله مثلها، و يفرقها فى أبياته أو سجعاته، و يكتبها بلون مخالف للأصل، و قد ذكرت فى روضة الورد من «أزهار الرياض» من كلام ابن عاصم ما لا مزيد وراءه، فليراجعه من أراده، و ذكرت فى غيره أيضا نبذة.

[رجع إلى نظم ابن جابر]

رجع إلى نظم ابن جابر- فمن ذلك قوله: [مجزوء الكامل]

ناديت من أسرى به بحياة من أسرى به

سل مدمعا تجرى به بلواه فى تجريبه

و قوله: [الرمل]

أيها العاذل فى حبى له خلّ نفسى فى جواها تحترق

ما الذى ضرّك منه بعد ما صار قلبى فى هواه تحت رقّ

و له: [البسيط]

برد الصباح على برد الصّبا سحرا ما زال يذكرنى أوقات نعمان

لهفى لعيش قضينا فى معاهدها ما بين حسن من الدنيا و إحسان

و له رحمه اللّه تعالى من حسناته المقبولة المضاعفة أيضا: [الطويل]

جعلت ملاك العين و القلب فى الهوى بناطقة القرطين صامتة القلب

تصحّف لى ألحاظها لين قدّها و تقلبه كيما تصيد به قلبى

قال بعض علماء المشرق: أجاد و اللّه هـذا العالم المغربى المقال، و أراد أنّ لفظ لين إذا قلب صار نيلا، و إذا صحّف صار نبلا، و هذا زيادة على ما فيه من التحريف؛ انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۹۱

[من شعر أبى جعفر، رفيق ابن جابر]

و قريب منه لرفيق المذكور قوله: [الكامل]

يفترّ عن برد يثير ببرده حرّ الغرام و لا سبيل لرشفه

أخذ الرشا من حسنه طرفا لذا نسب الورى طرف الجمال لطرفه

و له: [السريع]

تجرّ فرعيها على إثرها رافلة فى حلل الحسن

فتطلع البدر لنا فى الدّجى و ترسل البدر على الغصن

و له: [الخفيف]

قد نعمنا بجزع نعمان لكن عقّنا البعد، و العقوق قبيح

قل لأهل الخيام أمّا فؤادى فجريح لكنّ ودّى صحيح

و قوله: [المنسرح]

مقدّمات الرقيب كيف غدت عند لقاء الحبيب متّصله

تمنعنا الجمع و الخلوّ معا و إنما ذاك حكم منفصله

و له يمدح سيد الخلق و خاتم المرسلين، صلّى اللّه عليه و عليهم أجمعين: [الرمل]

رحمة أرسله اللّه لنا و شفيعا قد غدا فينا غدا

وهب المال لمن مال له و فدى من ذنبه من وفدا

ليس يحصى فضله إلّا الذى هو أحصى كلّ شيء عددا

و له: [الرمل]

حسّن النيّة ما اسطعت و لا تتّبع فى الناس أسباب الهوى

إنما الأعمال بالنيّات، من ينو شيئا فله ما قد نوى

و له: [الكامل]

قالت و قد حاولت نيل وصالها من غير شيء لا تجوز المسأله

باللّه قل لى أين نحوك يا فتى أ رأيت موصولا يجيء بلا صله

[بين ابن عنين و الملك المعظمو مقطعات من شعر ابن جابر أيضا]

و هذا معنى قد تلاعب الشعراء بكرته، و قضية ابن عنين فى ذلك مع المعظّم دالّة على توقّد فكرته، و ما ذاك إلّا أنه مرض فكتب إلى الملك المعظّم: [الكامل]

انظر إلىّ بعين مولى لم يزل يولى الندى، و تلاف قبل تلافى

أنا كالذى، أحتاج ما يحتاجه فاغنم دعائى و الثناء الوافى

فعاده المعظّم و أعطاه ألفا، و قيل: ثلاثمائة، و قال له: هذه الصلة، و أنا العائد.

و قال ابن جابر المذكور: [الكامل]

يا دار ليلى لا صمتك يد البلى و سقاك درّ الغيث كلّ سحاب

أصبو إلى تلك الربوع و كيف لا أصبو و هنّ منازل الأحباب

و قال من قصيدة: [الطويل]

و أطلب تشويق الأنام بحسنه فأذكر من أسمائه كلّ طيّب

و منها:

و إنى لم أمدحه إلّا تشوّقا و إن كان مشهورا بشرق و مغرب

و قال: [الخفيف]:

شاه وجه الرقيب إذ شاء وصلى قمرى، و الأنام عنّا نيام

زارنى بالنهار فى الليل لكن ليل فرع يحار فيه الظلام

و قال: [السريع]

يا أيها الجائر فى حكمه إنى فيما قد جرى حائر

قدّك من أعدل شيء يرى و أنت فى أهل الهوى جائر

و قال: [السريع]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۹۳

قد زعم العاذل لى أنه يهدى لى الرّشد بما يصنع

ما هو هاد لى و لكنّه هاذ فسمعى قال لا تسمعوا

و قال: [السريع]

شفى فؤادى من شقا هجره و بتّ من لقياه فى عيد

و زارنى يحكى غزال النقا فى الحسن لو لا الحلى فى الجيد

و قال: [الرمل]

سلب القلب غزال قدّه قد حكى البان لنا و السّلما

ساحر العين إذا أبصره كاتب ألقى لديه القلما

و قال: [الكامل]

يكفى الأنام بسيفه و بسيبه عقد المكاره و المكارم دائما

و قال: [الطويل]

تحلّت بما يحكى محاسن ثغرها و حلّت عقود الصبر منى عقودها

ثقيلة أرداف فصعب قيامها بما حملت منها و سهل قعودها

و قال: [الطويل]

أبى حسنها إلّا افتتان قلوبنا فكم قد أباد الحسن فيها من الناس

و قالت تحمّل طول هجرى إن ترد وصال ذوات الحسن قلت على الراس

و قال: [السريع]

أراد إنسان، أراد الرضا منهم رجا ما ليس بالممكن

سيّان أن يعطوا و أن يمنعوا قد ضاع فيهم كرم المحسن

و قال: [البسيط]

يا جيرة الحىّ، حيّا اللّه واديكم فكم سرور به للقلب قد عرضا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۹۴

فكم أنال حياة أستلذّ بها إذا أنا لم أنل من وصلكم غرضا

و قال: [الخفيف]

شبّ حرّ الفؤاد ماء رضاب منه قد حار فيه ماء الغمام

زان بالحلى جيده قلت: ما ذا؟ قال: شيء نظمته من كلامى

و قال: [الخفيف]

صاد قلبى و صدّ عنّى صدودا و انثنى يسحب الذوائب سودا

فرأيت الصباح فى الليل يبدو و شهدت الرّشا يصيد الأسودا

و قال: [الكامل]

إنّى سئمت من الزمان لطول ما قد صدّ عن حسن الوفاء رجاله

و من النوادر فى زمانك أن ترى خلّا به حمدت لديك خلاله

و قال: [السريع]

إن قابل الغصن بأعطافه فقلّ أن تبصر من فرق

قلت قد استعبدت كلّ الورى فقال ذاك البعض من حقّى

و قال: [الخفيف]

صحّ أنّ الصباح من وجنتيها و غصون الرياض من معطفيها

قاتل اللّه عاذلى قلّ يوم ليس يسعى بالعذل فيه إليها

و قال: [البسيط]

شدّوا محاملهم يوم الرحال و قد محا رسوم اصطبارى فقد من رحلا

هزّوا الغصون على الكثبان حين مضوا و أسبلوا فوق أقمار الدّجى كللا

و قال: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۹۵

خذ ترى الورد بعضا من محاسنه تبارك اللّه ما يحلى شمائله

لصارم اللحظ قد أرخى حمائل من عذاره فحمى عنّا خمائله

و قال: [الخفيف]

قام حادى الركاب ليلا فغنّى فاستقام السّرى و ثار الغرام

قيل نام الأنام فاهجع قليلا قلت دون الحبيب لست أنام

و قال: [الطويل]

ترامى بنا فى البيد شوق إلى الحمى ترى عنده الأجفان منهلّة الدّمع

فلمّا رأينا ربع من سكن الحشا نزلنا فقبّلنا ثرى ذلك الرّبع

و قال: [الطويل]

يراودنى الواشى على حبّ غيرها و إنّ محالا أن يرى مثل حسنها

موفّرة الأرداف، مهضومة الحشا يريك التفات الظبى فاتر جفنها

و قال: [البسيط]

سلّت علينا سيوفا من لواحظها و ما لنا من سيوف اللحظ من واقى

أضحت لسفكك دم العشّاق هادرة فما ترى دية فى قتل عشّاق

و قال: [البسيط]

فى خدّها شبه للخال أو شية بما حوى الحسن من ألطاف أسرار

وشى من الحسن لم يحتج لصنع يد تبارك اللّه هذا صنعة البارى

و قال: [الكامل]

بين الجوانح لو علمت من الجوى نار عليها سكب عينى يهمع

فدع المدامع فى مدى جريانها فالدمع بعد فراقهم لا يمنع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۹۶

و قال: [البسيط]

قالوا بدارين قد قالوا، و قد وردوا ماء العقيق، و بالزوراء قد باتوا

بانوا عن العين لكن بالقلوب ثووا و فى البعاد عن الأحباب آفات

و قال: [السريع]

مليحة الخدّ به شامة كالورد قد نقّط بالغاليه

قلت لها: ما اسمك؟ قولى لنا قالت: فما تعرفنى غاليه

و قال: [السريع]

جارية جارية فى مدى شبابها من أملح الخلق

ما بين فرق الصبح لمّا بدا و وجهها للناس من فرق

و قال: [السريع]

لصبّه منه امتداد النوى فلا يلام الدمع فى صبّه

فى قدّه لين فهلّا قضى بقلبه منه إلى قلبه

يريد بالقلب الأول التحويل و النقل: أى فهلّا قضى بنقل اللين الذى فى قدّه إلى قلبه.

و قال: [البسيط]

يا لابس اللام و الأسياف عارية قد انعطفت على الأعطاف و اللام

و يا ضجيع رماح الخطّ يرسلها فى كلّ هام لها باللحظ فى الهام

الهام الأول: جمع هامة، و الثانى اسم فاعل من همى يهمى.

قال رفيقه: لو قال «من الهام» لكان أليق بالمعنى و ألطف.

و قال: [السريع]

من مال يبغى كسب مال له من حرمه إن جاء أو حلّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۹۷

فلا تثق يوما به و احترز منه فما يبقى على خلّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۹؛ ص۱۹۷

قال يتشوّق إلى وطنه بالمرية: [الكامل]

للّه عيش بالمريّة قد ذهب أخباره بالحسن تكتب بالذّهب

وهبت لنا تلك الليالى مدة ثم استردّ الدهر منّا ما وهب

و قال: [الخفيف]

أنّ من شوقه فثار الضّرام و درى الناس أنه مستهام

لا تسل ما جرى من الدمع لمّا قيل هذى النقا و هذى الخيام

و قال: [الطويل]

صلاة إله العالمين على الذى أقلّ العطايا منه واد من النّعم

يجود على الراجى و إن كان مذنبا و ما قوله للسائلين سوى نعم

و قال: [الرمل]

قد سبا قلبى غزال فاتن سل به كيف اعتدى فى سلبه

أنا لا أعتب فيما قد جرى صفح اللّه له عن ذنبه

و قال: [المتدارك]

صبرت له فتمادى به هواه، فكانت هى الفاصله

و أنكر برّى و يا طالما أتانى يوما فألفى صله

و قال: [الرجز]

و ليل نظمنا به شملنا كما انتظم البيت بالقافيه

و فرّقنا الدهر من بعد ذا فلست من اليوم ألقى فيه

أى فئة، و لم يكمل التجنيس فيه إلّا بتسهيل الهمزة كما قال رفيقه، و لمّا أنشده قال:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۹۸

و من هذا النوع قول بعض الأندلسيين: [السريع]

و قائل قال ألا صف لنا بستاننا هذا و نارنجنا

قلت لهم بستانكم جنّة و من جنى النارنج نارا جنى

و قال ابن جابر المذكور: [الخفيف]

قل بحقّ الهوى سمحت بوصل ربّة القلب أم نهاك الرقيب

رمت نيل الوصال منها فقالت لك وصل غدا فقلت: قريب

و قال: [الخفيف]

زيّن الخدّ منه صدغ كنون قد بدا تحته عذار كلام

قلت هذى محاسن ابن هلال فانثنى و هو ضاحك من كلامى

و قال: [الوافر]

لها حسن لها عن كلّ واش به قلبى فما أنا أستفيق

على وجناتها نعمان يبدو لنا و شفاهها هنّ العقيق

و قال: [البسيط]

يمرّ بى ذكركم، و اللّه أحيانى و لو سرى طيفكم ليلا لأحيانى

لا يعذب العيش لى بعد العذيب و لا نعيم مثل لياليا بنعمان

و قال: [الطويل]

مداراة هذا الخلق أوليك بينهم صفات هى الأقمار و النظم دارات

و شارات حمد المرء أن لا ترى له على الناس ممّا لازم الحلم دارات

و قال: [الطويل]

أرانى كم أسعى إلى خامل، و لو أراك مدى فى فرقد بلغ السّها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۱۹۹

و ما الخير يوما من لئيم بممكن و إن كان منه الخير يوما فقد سها

و قال: [الطويل]

أرى حيدى عن كلّ طارىء نعمة أراح يدى من أن يقيّدها الذّلّ

فمن أخذ المعروف من غير أهله تروح الليالى و هو فى عنقه غلّ

و قال: [الطويل]

شبا لحظها الماضى و حسن شبابها هما حمّلا نفسى من الوجد ما بها

كثيب النّقا من ردفها، و قضيبه لمعطفها، و البدر تحت نقابها

و قال: [الرمل]

حلّ عقد الصبر منّى عقدها إذ سبت قلبى بما فى قلبها

تحسب الدّرّ على لبّتها أنجما قد كلّل البدر بها

و قال: [الرمل]

شعر كالليل يبدو تحته قمر قد حار شعرى فى صفاته

نقل المسواك عن مبسمه أنّ ماء الورد يجرى من لثاته

و قال: [المنسرح]

من سنّ تلك اللحاظ فاتّبعت من سنّة الحبّ كلّ متّبع

تقتل عشّاقها بلا سبب و ذاك فى الحبّ غير مبتدع

و قال: [الطويل]

و ما شجو صال لوعة الهجر قد قضى زمان وصال لم تكدّر مشاربه

كشجو محبّ لم يذق لذّة الرضا و لا بات و الغيد الحسان تلاعبه

و قال: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۰۰

سرت فى رحال العيس منه أهلّة فأيسر حال أن أزوّدها قلبى

بعيشك قل لى هل دروا كيف علّتى و فيض دموعى بعد منصرف الركب

و قال: [الخفيف]

من جنى باللحاظ زهر المعانى من جناب الحمى إذا الناس ناموا

هو قد نال كلّ ما يتمنّى و سعت فى مراده الأيام

و قال: [الوافر]

لطائف حسنها بربوع قلبى لطائف ألجأتنى للغرام

تريك تكاسلا فى اللحظ منها لتحسبه تنبّه من منام

و قال: [الطويل]

إذا زرت حيّا بالعقيق فحيّهم و ذكّرهم عهدى و حقّ ودادى

حرام فراق العيس حتى تحلّنى بواديه من تلك الوجوه بوادى

و قال: [السريع]

من فرط ما فى الطرف من فتنة قد غلب الحبّ على الناس

قالت نسيت العهد قلت اكففى عنّى فما عبدك بالناسى

و قال: [الرمل]

بين نعمان و سلع ملأ ليس منهم لمحبّ ألم

كلفى منهم ببدر حلّ فى فلك العليا فاعرف من هم

و قال: [الوافر]

أراقبها و حين أرى سبيلا أقاربها فتنفر كالغزال

و قالت أنت مرتقب لماذا فقلت لها: ارتقابى للهلال

[قصيدة لابن جابر فى فضائل الصحابة]

و له من قصيدة مطوّلة فى فضائل الصحابة العشرة و أهل البيت، فمما يختصّ منها بأبى بكر رضى اللّه تعالى عنه قوله: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۰۱

فمنهم أبو بكر خليفته الذى له الفضل و التقديم فى كلّ مشهد

و صدّيق هادى الخلق و المؤثر الذى لإنفاقه للمال فى اللّه قد هدى

و صهر رسول اللّه، و ابنته التى يبرئها آى الكتاب الممجّد

و صاحبه فى الغار إذ قال لا تخف فثالثنا ذو العرش أوثق منجد

و سدّ على المختار مخرج حيّة هناك برجل منه فازت بأسعد

و فيه و فى خير الأنام تسامعوا بمكّة صوت الهاتف المتقصد

(جزى اللّه ربّ الناس خير جزائه رفيقين حلّا خيمتى أمّ معبد)

و عتق بلال حسبه، فهو سيّد تأثّل فى الإسلام، إعتاق سيد

و قال رسول اللّه إنّ أمنّكم علىّ أبو بكر و أوفى بموعد

فصدّق إذ كذبتم، و أطاع إذ عصيتم، و وافانى موافاة مسعد

و لو أننى من أمتى كنت آخذا خليلا تولّى خلّتى و تودّدى

لكان أبو بكر، و لكن أخوّة فى الاسلام مهما تنقص الناس تزدد

فلمّا أراد اللّه قبض نبيّه و صار إلى دار النعيم المخلّد

تقدّم فى نيل الخلافة بعده بإجماعهم لا بالحسام المهنّد

و قد فارقت يوم السقيفة فرقة فلمّا رأته الحقّ لم تتردّد

و قام علىّ بعد ذاك مبايعا فأثنى ثناء المخلص المتودّد

و أظهر عذرا فى تأنّيه صادقا و بايع طوعا لا لفقدان مسند

فآب بحمد منهم غير قاصر و من يتبع الإنصاف و الحقّ يحمد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۰۲

و ما أشبه الصدّيق فى الفضل مشبه و لا أحصيت أوصافه بتعدّد

و ممّا يختصّ بعمر رضى اللّه تعالى عنه قوله من هذه القصيدة:

و يتبعه فى فضله عمر الذى رمى عن قسىّ الصدق قوس مسدّد

و ما كلّ من رام السعادة نالها و لكنه من يسعد اللّه يسعد

هو المرء لم يترك له الحقّ صاحبا و لا قعد الشيطان منه بمقعد

و لا سلك الشيطان فجّا قد اغتدى له سالكا من خوفه المتزيّد

و من ظلّه قد كان ينفر هيبة له حيثما أضحى يروح و يغتدى

و قد جاء عنهم: ما برحنا أعزّة بإسلامه فانكفّ من كان يعتدى

و من فضله رعى النبيّ بغيرة له فانثنى عن قصره المتشيّد

و قد قيل للفاروق: هذا، و من به فأنباه عن هذا النعيم المؤبّد

فأقبل يبكى قائلا كيف غيرتى عليك، و لو لا أنت ما كنت أهتدى

و رؤيا رسول اللّه للقدح الذى تناول من درّ به ريّة الصدى

و ناوله الفاروق من بعد ما ارتووا إلى أن غدا من ظفره الريّ يبتدى

فأوّله العلم الذى منه ناله و أوّل رؤيا الدلو حسن التأيّد

فصارت له غربا فأروى بها الورى فكان افتتاح الأرض فتح ممهّد

و رؤياه أيضا فى قميص يجره و للناس قمص بعضها يبلغ الثّدى

فأوّل خير الخلق طول قميصه بما حاز فى إيمانه من تشيد

و تفريقه ما بين حقّ و باطل بيوم سقى الكفّار أفظع مورد

و سمّى بالفاروق من أجل هذه و ما زال فى نصّ الهدى ذا تجلّد

و حسبك أنّ اللّه وافق رأيه لدى يوم بدر إذ رأى قتل من فدى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۰۳

كذا فى أذان و الحجاب و جعلهم مصلّى مقاما للخليل بمسجد

شديد على أهل الهوى رحمة لمن عن الحقّ لم يجنح و لم يتحيّد

و ما قد رووا إن كان فى أمّة فتى يحدّث فالفاروق من ذاك فاعدد

و ما أبغض الفاروق إلّا مفارق لدين الهدى ذو مذهب لم يسدّد

و مما يختصّ بعثمان رضى اللّه تعالى عنه قوله:

و حسبى عثمان بن عفان أنه عليه اعتمادى و هو سؤلى و مقصدى

إمام صبور للأذى و هو قادر حليم عن الجانى جميل التعوّد

هو الجامع القرآن و القانت الذى إذا جنّ ليل ليس يأوى لمرقد

و يقطع بالصوم النهار و ينثنى مدى ليله فى خشية و تهجّد

و قال رسول اللّه فى بئر رومة أما مشتر يبغى بها الأجر فى غد

له الجنّة العليا بذلك فاشترى و تجهيز جيش العسرة اذكر و عدّد

فقال رسول اللّه إذ جاءه بما قد احتاج من مال و ظهر و أعبد

هنيئا لعثمان بن عفان فعله و ما ضرّه ما بعد مع هذه اليد

و قول ألا أبدى حياء لمن له قد استحيت الأملاك أشرف محتد

و بلّغ بشرى الهاشمىّ بأنه من الجنّة العليا بأكرم مقعد

و لم يرض، صونا للدماء، بحربهم و كان متى يستنجد القوم ينجد

فمات شهيدا صابرا فهو خير من على نفسه فى غير حقّ قد اعتدى

على بنتى المختار أرخى ستوره فناهيك من مجد و عزّ مجدّد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۰۴

و لم يدع ذا النورين إلّا لأنه حوى بيته نورين من نور أحمد

و إنّ لعثمان بن عفان رتبة من المجد تسمو عن سماك و فرقد

و ممّا يختصّ بعلى رضى اللّه تعالى عنه قوله:

و إنّ عليّا كان سيف رسوله و صاحبه السامى لمجد مشيّد

و صهر النبىّ المجتبى و ابن عمّه أبو الحسنين المحتوى كلّ سؤدد

و زوّجه ربّ السما من سمائه و ناهيك تزويجا من العرش قد بدى

بخير نساء الجنّة الغرّ سؤددا و حسبك هذا سؤددا لمسوّد

فباتا و جلّ الزهد خير حلاهما و قد آثرا بالزاد من كان يجتدى

فآثرت الجنات من حلل و من حلى لها رعيا لذاك التزهّد

و ما ضرّ من قد بات و الصوف لبسه و فى السندس الغالى غدا سوف يغتدى

و قال رسول اللّه إنى مدينة من العلم و هو الباب، و الباب فاقصد

و من كنت مولاه علىّ وليّه و مولاك فاصدق حبّ مولاك ترشد

و إنك منى خاليا من نبوّة كهارون من موسى و حسبك فاحمد

و كان من الصبيان أوّل سابق إلى الدين لم يسبق بطائع مرشد

و جاء رسول اللّه مرتضيا له و كان عن الزهراء بالمتشرّد

فمسّح عنه الترب إذ مسّ جلده و قد قام منها آلفا للتفرّد

و قال له قول التلطّف «قم أبا تراب» كلام المخلص المتودّد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۰۵

و فى ابنيه قال المصطفى ذان سيدا شبابكم فى دار عزّ و سؤدد

و أرسله عنه الرسول مبلّغا و خصّ بهذا الأمر تخصيص مفرد

و قال هل التبليغ عنى ينبغى لمن ليس من بيتى؟ فبالقوم فاقتد

و قد قال عبد اللّه للسائل الذى أتى سائلا عنهم سؤال مشدّد

و أمّا علىّ فالتفت أين بيته و بيت رسول اللّه فاعرفه و تشهد

و ما زال صوّاما منيبا لربّه على الحقّ قوّاما كثير التعبّد

قنوعا من الدنيا بما نال، معرضا عن المال، مهما جاءه المال يزهد

لقد طلّق الدنيا ثلاثا، و كلّما رآها و قد جاءت يقول لها ابعدى

و أقربهم للحقّ فيها و كلّهم أولو الحقّ لكن كان أقرب مهتد

و منها فى ذكر السّبطين رضى اللّه تعالى عنهما:

و بالحسنين السيدين توسّلى بجدهما فى الحشر عند تفرّدى

هما قرّتا عين الرسول و سيدا شباب الورى فى جنّة و تخلّد

و قال: هما ريحانتاى، أحبّ من أحبّهما، فاصدقهما الحبّ تسعد

هما اقتسما شبه الرسول تعادلا و ما ذا عسى يحصيه منهم تعدّدى

فمن صدره شبه الحسين أجله و للحسن الأعلى و حسبك فاعدد

و للحسن السامى مزايا كقوله هو ابنى هذا سيد و ابن سيد

سيصلح ربّ العالمين به الورى على فرقة منهم و عظم تبدد

و إن تطلبوا ابنا للنبى فلن تروا سواى: مقال منه غير مفنّد

بدا سيدا ظهر الرسول قد ارتقى فقرّ و لم يعجله و هو بمسجد

فقالوا له طال السجود فقال لا و لكنما ابنى خفت إن قمت يشرد

و كان الحسين الصارم الحازم الذى متى يقصر الأبطال فى الحرب يشدد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۰۶

شبيه رسول اللّه فى البأس و الندى و خير شهيد ذاق طعم المهنّد

لمصرعه تبكى العيون و حقّها فللّه من جرم و عظم تمرّد

فبعدا و سحقا لليزيد و شمره و من سار مسرى ذلك المقصد الردى

و منها فى ذكر حمزة رضى اللّه تعالى عنه:

و من مثل ليث اللّه حمزة ذى الندى مبيد العدا مأوى الغريب المطرّد

فكم حزّ أعناق العداة بسيفه و ذبّ عن المختار كلّ مشدّد

فقال رسول اللّه: هذا أمرته ولى أسد ضار لدى كلّ مشهد

و قال أبو جهل: أجبت محمدا لما شاءه فاهتزّ هزّة سيّد

و أهوى له بالقوس ما بين قومه، و قال: و أخرى بالحسام المهنّد

و قال له: إنّى على دينه فإن أطقت فعرّج عن طريقى و اردد

فذلّ أبو جهل و أبدى تلطّفا مقرا بقبح السّبّ فى حقّ أحمد

فعاد و قد نال السعادة و اهتدى و أضحى لدين اللّه أكرم مسعد

و فى يوم بدر حثّ عند سؤالهم لما شهدوا من بأسه المتوقّد

لمن كان إعلام بريش نعامة يشرّدنا مثل النعام المشرّد

فذاك الذى و اللّه قد فعلت بنا أفاعيله فى الحرب ما لم نعوّد

و فى أحد نال الشهادة بعد ما أذاق سباعا للردى شرّ مورد

ففاز و أضحى سيّد الشهداء فى ملائكة الرحمن يسعى و يغتدى

و صلّى رسول اللّه سبعين مرّة عليه إلى ثنتين عند التعدّد

و قال: مصاب لن نصاب بمثله و إن كان لى يوم سأجزى بأزيد

و زاد إلى فضل العمومة أنه أخوه رضاعا هكذا المجد فاشهد

و ما زال ذا عرض مصون عن الأذى و مال مهان فى العطايا مبدّد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۰۷

كريم متى ما أوقد النار للقرى (تجد خير نار عندها خير موقد)

و منها فى ذكر العباس رضى اللّه تعالى عنه:

و قد بلغ العباس فى المجد رتبة تقول لبدر التمّ: قصّرت فابعد

ألا إنه فضل السقاية قد حوى فكان لوفد اللّه أكرم مورد

و كان طويل الباع فى البأس و الندى كريما متى يسترفد القوم يرفد

و يوم حنين ليس ينسى ثباته و دعوته مستنجدا كلّ منجد

و قال رسول اللّه فيه علىّ ما عليه و أيضا مثله فى التزيّد

ألا إنّ عمّ المرء صنو أبيه كى يزيدهم فى برّه المتأيّد

و بشّره أنّ الخلافة فى الورى لأولاده من سيّد و مسوّد

بشيبته استسقوا إذ المحل شامل فجاءهم غيث سقى كلّ فدفد

و هذا ما وقفت عليه من هذه القصيدة الفريدة، و ليس بيدى الآن ديوان شعره حتى أكتبها بكمالها فإنها مناسبة لهذا الباب الذى جعلناه ختما للكتاب كما لا يخفى.

[مقطوعات من شعر ابن جابر أيضا]

و من مقطوعات ابن جابر: [الطويل]

شغفت بها حينا من الدهر لم يكن سوى سكب دمعى فى محبّتها كسبى

و ما أصل هذا كلّه غير نظرة إلى مقلة منها أضعت لها قلبى

و قال: [السريع]

قد بان عذرى فى مليح له لحظا رشا يلحظ من ذعر

إنى على الهجر مطيع له ممتثل فى السّرّ و الجهر

و قال: [السريع]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۰۸

هذا الرشا يقنص ليث الشرى بنظرة منه فلا مخلص

لو عارض العاذل يوما له لكان من أول ما يقنص

و قال: [المديد]

ظبية فى ثغرها لعس يجتنى من رشفه عسل

سلك التيه بمقلتها مسلكا قد زانه كسل

و قال: [الخفيف]

رقم الخال خدّها فرأينا قمر الأفق فيه نقطة ليل

قلت: أين الكثيب و الغصن؟ قالت: كلّ ما قد ذكرته تحت ذيلى

و قال: [الكامل]

إن خفت من فتك المهنّد و القنا فإذا رنت و إذا مشت لا تقرب

فى قلب برقعها محاسن أنزلت قمر السماء لنا بقلب العقرب

و قال: [السريع]

رأى عذولى حسنها بعدما حقّق كونى للهوى جانحا

فقال إن كنت محبّا لها فقد حمدنا رأيك الناجحا

و قال: [الخفيف]

ذكر اللّه بالمرية عيشا لست عن ذكره الجميل أحول

طال عهدى بها و ما دمت حيّا لا يزيد الرجاء بل قد يطول

و قال: [الكامل]

مرّت ليال بالمرية طالما قضّيت من ليل بهنّ مآربا

لم أسل عن تلك الديار و إنما جعل القضاء لكلّ نفس غالبا

و قال: [الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۰۹

لا تعقنى عن العقيق فإنى بين أكنافه تركت فؤادى

و على تربه وقفت دموعى و لسكّانه وهبت ودادى

و قال: [الخفيف]

عرف المنزل الذى دار فيه زمن الأنس و الشباب النضير

فشجاه قلب التلافى فراقا و انثنى عنه ذا فؤاد كسير

و قال: [مخلع البسيط]

جمال هذا الغزال سحر يا حبّذا ذلك الجمال

هلال خدّيه لم يغيّب عنّى و إن غيّب الهلال

غزال أنس يصيد أسدا فاعجب لما يصنع الغزال

دلاله دلّ كلّ شوق علىّ إذ زانه الدلال

كماله لا يخاف نقصا دام له الحسن و الكمال

نباله قد برت فؤادى يا حبذا تلكم النبال

حلال وصلى له حرام و حكم قتلى له حلال

زلال ذاك الحمى حياتى و أين لى ذلك الزلال

قتاله لا يطاق لكن يعجبنى ذلك القتال

و قال: [الطويل]

إذا جئت نجدا كرّم اللّه عهده فسلّم على أهل المنازل من نجد

لئن حال بعد الدار بينى و بينهم فإنى لأرعاهم على ذلك البعد

و قال: [الخفيف]

خجلت عند ما نظرت إليها و انثنت و هى بين تيه و منع

إنما ورد خدّها زرع طرفى حين مرّوا فكيف أمنع زرعى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۱۰

و قال: [الخفيف]

لك نفسى إذا بدت لك نجد فلقد سرّنى الزمان بنجد

فلتلك الخيام عندى عهد و أبى اللّه أن أضيّع عهدى

و قال: [الخفيف]

سل عن القوم إن بدت لك سلع ففؤادى عند الذين بسلع

لى على تلكم المعاهد دمع كاد يغنى بها عن اللثّ دمعى

و قال: [الخفيف]

صفحوا عن محبّهم و أقالوا من عثار النوى و منّوا بوصل

لست أستوجب الوصال و لكن أهل تلك الخيام أكرم أهل

و قال: [البسيط]

مال الزمان بهم عنّى و قد بعدوا لم يلهنى عنهم أهل و لا مال

إنى لأخشى و ما الأيام طوع يدى أنى أموت ولى فى القلب آمال

و قال: [الخفيف]

بين وادى النقا و بان المصلّى فتية ألبسوا الوجود جمالا

إن يكن قد نوى لى الدهر قربا منهم فهو قد كفانى نوالا

و قال: [الكامل]

زرت الديار عن الأحبّة سائلا و رجعت أبكيهم بدمعى سائلا

و نزلت فى ظلّ الأراكة قائلا و الرّبع أخرس عن جواب قائلا

و قال: [الكامل]

لا أوحش اللّه المنازل منهم منهم غدت تلك الديار حسانا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۱۱

فاشكر لدهرك أن أراك بحاجر بان الحمى و أراكه قد بانا

و قال: [الخفيف]

لك يا وادى العقيق علينا كلّ ما شئت من ذمام وثيق

فمن البرّ أننى أتبرّى من عقوق لمنزل بالعقيق

و قال: [البسيط]

يا أهل ذى سلم بشرى لمستلم ذاك الثرى مقدم فى السير لم ينم

يؤمّ دارا بها خير الورى حسبا الخاتم الرسل من عرب و من عجم

و لنقتصر من كلام ابن جابر فى هذا الموضع على هذا المقدار، و إنما أطنبت فيه لما تقدّم من الاعتراض على لسان الدين فى عدم توفيته فى حقّ المذكور و حقّ رفيقه، مع أنه أطال فيمن دونهما من أهل عصره، و أيضا فإنّ كليهما غريب عندنا بالمغرب، لكونهما ارتحلا قبل أن يشتهرا كلّ الاشتهار، و كان خبرهما فى الشرق أشهر.

[من شعر أبى جعفر، رفيق ابن جابر]

و أما رفيقه شارح بديعيته فقد ذكرنا فى غير هذا الموضع بعض حاله و كلامه، و لنزد هنا ما تيسّر، فنقول: من نظمه: [الكامل]

لمّا عدا فى الناس عقرب صدغها كفّت أذاه من الورى بالبرقع

و الصبح تحت خمارها متستّر عنّا متى شاءت تقول له اطلع

و قال: [الطويل]

تجنّت فجنّ فى الهوى كلّ عاقل رآها و أحوال المحبّ جنون

و ما وعدت إلّا عدت فى مطالها كذلك وعد الغانيات يكون

و قال: [المنسرح]

لا تجدوا فى الهوى على كلف نظيره فى الغرام لن تجدوا

لهفان ما يشتكى إلى أحد ظمآن غير الدموع لا يجد

و قال: [الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۱۲

ربّ ليل قطعته بالجزيره فتذكّرت أهلنا بالجزيره

قصّر الأنس ما تطاول منه و كذا أزمن السرور يسيره

قال: و الجزيرة الأولى المراد بها حمص المحيط بها النهر المسمّى بالعاصى، و الثانية جزيرة الأندلس.

و له أيضا: [الوافر]

و ما لى و التزيّن يوم عيد و جيد صبابتى بالدمع حالى

و قد أرسلت أشهبها بريدا و بعد كميتها ينبى بحالى

و المراد بالأشهب الدمع الذى لا يشوبه شىء؛ و بالكميت الدمع المشوب بالدم، فى شرح البديعية و قد ذكر العقيق بعد كلام ما نصّه: قلت: و كان هذا الوادى المبارك زمن عثمان رضى اللّه تعالى عنه ذا قصور محتفّه، و حدائق ملتفّه، و بنيان مشيد، و نخل طلعه نضيد، و جنات تؤتى أكلها كلّ حين، و سواق تجرى به بماء معين، ثم لعبت به أيدى السنين، و غيّرت معالمه فصار عبرة للناظرين، فلم يبق من معاهده إلّا آثار تشهد بحسنه، و نضرة نعيم تدلّ على ما سلف من نضارة غصنه؛ و قد خرجنا إلى هذا الوادى أيام مجاورتنا بالمدينة الشريفة، و هو يتدفّق بمائه، و يعارض بجوهر حبابه أنجم سمائه، و قد سالت شعابه، و فاض عبابه، و الناس تفرّقوا فى جهاته، و افترشوا غضّ نباته، و الشّيح قد توشّح بالندى، و الأنس قد راح به و غدا، و الأصيل مذهّب الرداء، و البيداء مخضرّة الأنداء، و بحافتيه آثار قصور، ليس لها فى الحسن قصور، قد بليت و حسنها جديد، و خربت و ربعها بالأنس مشيد؛ انتهى.

و من بديع نظمه قوله: [الكامل]

مهلا فما شيم الوفا منقادة لمن ابتغى من نيلها أوطارا

رتب المعالى لا تنال بحيلة يوما و لو جهد الفتى أو طارا

و قوله رحمه اللّه تعالى: [الوافر]

على وادى العقيق سكبت دمعى بلا عين فيبدو كالعقيق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۱۳

فكم غصن و ريق منه يحكى قوام رشا شهىّ فم وريق

و قال: [المتقارب]

سألتك بالله يا من غدا يصرّف بالقلب أفعاله

تدارک محبّا بدرياق وصل فإنّ بعادک أفعى له

و قال: [مجزوء الكامل]

لا تأمننه على القلو ب فمنه أصل غرامها

فلحاظه هنّ التى رمت الورى بسهامها

و من فوائـده، رحمه اللّه تعـالى، فى شـرح البديعيـة ما نصّه: و من غريب ما فى «لـدى» أنّ أبا على حكى فى تـذكرته عن المفضّل أنها أتت بمعنى «هل» و أنشد: [الطويل]

لدى من شباب يشترى بمشيب و كيف شباب المرء بعد ذهاب

رجع- و قال رحمه اللّه تعالى يتشوّق إلى حمراء غرناطة: [الكامل]

ذابت على الحمراء حمر مدامعى و القلب فيما بين ذلک ذائب

طال المدى بى عنهم و لربما قد عاد من بعد الإطالة غائب

و قال: [الكامل]

ما هبّ من نحو السبيكة بارق إلّا غدا شوقى لقلبى سالكا

و اللّه ما اخترت الفراق لربعها لكن قضاء اللّه أوجب ذلكا

و قال: [الطويل]

منازل سلمى إن خلت فلطالما بها عمرت فى القلب منى منازل

رسائل شوقى كلّ يوم تزورها و ما ضيّعت عند الكرام الرسائل

و قال: [المتقارب]

بجور الوداع لنا موقف أذاب الفؤاد لأجل الوداع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۱۴

فما أنا أنسى غداة النوى و حادى الركائب للبين داعى

قال: و جور الوداع موضع بظاهر غرناطة، عادة من سافر أن يودّع هناک.

و قال: [البسيط]

ناولته وردة فاحمرّ من خجل و قال: وجهى يغنينى عن الزّهر

الخدّ ورد، و عينى نرجس، و على خدّى عذار كريحان على نهر

و قال رحمه اللّه تعالى فى التشريع: [الكامل]

يا راحلا يبغى زيارة طيبة نلت المنى بزيارة الأخيار

حىّ العقيق إذا وصلت وصف لنا وادى منى، بأطايب الأخبار

و إذا وقفت لدى المعرّف داعيا زال العنا، و ظفرت بالأوطار

و قال: [الكامل]

يا أولا فى المرسلين و آخرا اللّه خصّک بالكمال ليرضيک

من قبل آدم قد جعلت نبيّه قدما فقدّمک الإله ليعليک

أوحى إليک لكى تكون حبيبه و يتمّ نعمته عليک و يهديک

و قال: [البسيط]

صيّرتنى فى هواك اليوم مشتهرا لا قيس ليلى و لا غيلان فى الأول

زعمت أنّ غرامى فيك مكتسب لا و الذى خلق الإنسان من عجل

و قال: [الرمل]

لا تعاد الناس فى أوطانهم قلّما يرعى غريب الوطن

و إذا ما شئت عيشا بينهم «خالق الناس بخلق حسن»

و قال: [الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۱۵

نسختى اليوم فى المحبّة أصل فعليها اعتماد كلّ عميد

نقلوا مرسل المدامع منها و صحيح الهوى بغير مزيد

قد رواها قبلى جميل و قيس حين هاما بكلّ لحظ و جيد

و من فوائده: أنه لما أنشد فى «طراز الحلّة» قول سعد الدين محمد بن عربى فى ابن مالك: [البسيط]

إنّ الإمام جمال الدين فضّله

إلى آخره.

قال ما ملخّصه: و لمّا أورده الصفدى فى «فصّ الختام» قال: هذا فى غاية الحسن لو كان الكتاب المذكور يسمى «الفوائد» و إنما هو «تسهيل الفوائد» فذكر المضاف إليه دون المضاف، و هى تورية ناقصة، قلت: ابن مالك له كتابان: أحدهما «الفوائد» صنعه أولا ثم صنع «تسهيل الفوائد» بعده، و كأنه سهّل فيه كتاب الفوائد، و كنت وقفت على هذا الكتاب المسمّى بالفوائد ببلدنا غرناطة، فلمّا وصلنا إلى هذه البلاد بحثنا عنه فلم نجده، و تمادى الأمر على ذلك إلى سنة ۷۶۰، فوجدناه فى حلب، و هو الآن عندنا، و هو عزيز الوجود، و لذلك خفى على القاضى صلاح الدين؛ انتهى و بعضه بالمعنى.

و قال أبو جعفر أحمد المترجم به: كتبت إلى صاحبنا الشيخ بدر الدين خليل الناسخ:

[المتقارب]

مددت النوى و قصرت اللّقا أ ترضى بهذا و أنت الخليل

و تترك أحمد ذا وحشة لديك و أنت له ابن جليل

و قال: [الكامل]

قد كان لى أنس بطيب حديثكم و الآن صار حديثكم برسول

و لقد مددت من النوى مقصوره إنّ الخليل يراه غير جميل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۱۶

و له رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

ما للنوى مدّت و أنت خليلنا؟ و لقبل قد قصرت برغم الكاشح

أتبعت فى ذا مذهبا لا يرتضى أبدا و ليس الرأى فيه بصالح

و له: [الطويل]

و لمّا رأى الحسّاد منك التفاتة إلى جانب اللهو الذى كان مرفوضا

أضافوا إلى علياك كلّ نقيصة حقيق لدينا بالإضافة مخفوضا

و له: [السريع]

حسنك ما بين الورى شائع قد عرّف الآن بلام العذار
فجاء منه مبتدا للهوى خبره الآس مع الجلّنار
و لنقتصر على هذا المقدار إلى هنا.

[عود إلى ذكر على بن لسان الدين]

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمهم اللّه تعالى:
و قد قدّمنا أنّ على بن لسان الدين كان نديم السلطان و خاصّته، كما ذكرنا فى مخاطبته لابن مرزوق فى الباب الخامس قوله: فالسلطان يرعاه اللّه تعالى يوجب ما فوق مزية التعظيم، و الولد هداهم اللّه تعالى قد أخذوا بحظّ قلّ أن ينالوه بغير هذا الإقليم، و الخاصّة و العامّة تعامل بحسب ما بلته من نصح سليم، و ترك لما بالأيدى و تسليم، و تدبير عاد على عدوّها بالعذاب الأليم، إلّا من أبدى السّلامة و هو من إبطان الحسد بحال السليم؛ انتهى.
و لقد صدق رحمه اللّه تعالى فيما ذكره من النصح و غيره.

[نصيحة من إنشائه كتبها على لسان السلطان، و فيها عجائب مما أوصى به الولاة]

و من نصائحه رحمه اللّه تعالى ما كتب به على لسان السلطان، و نصّه: «من عبد اللّه أمير المسلمين محمد وصل اللّه تعالى سعده، و بلّغه من فضله العميم قصده، إلى أوليائنا المخصوصين منّا و من سلفنا بذمام الجوار القريب، و المساكنة التى لا يتطرّق إلى حقّها الذى بنى استرابة المستريب، المعتمدين إذا عدّت الرعايا، و ذكرت المزايا، بمزيد الاعتناء و التقريب، من الأشياخ الجلّة الشرفاء و العلماء، و الصّدور الفقهاء، و العدول الأذكياء، و الأعيان الوزراء، و الحماة المدافعين عن الأرجاء، و الأمناء الثّقات الأتقياء، و الكافة الذين نصل إليهم
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۱۷
عوائد الاعتناء، و نسير فيهم بإعانة اللّه تعالى على السبيل السّواء، من أهل حضرتنا غرناطة المحروسة بفضل اللّه تعالى و ربضها، شرح اللّه تعالى لقبول الحكمة و الموعظة الحسنة صدورهم، و كنف بنتائج الاستقامة سرورهم، و أصلح بعنايته أمورهم، و استعمل فيما يرضيهم أميرهم و مأمورهم:
«سلام كريم عليكم أجمعين و رحمة اللّه تعالى و بركاته. أما بعد حمد اللّه الذى إذا رضى عن قوم جعل لهم التقوى لباسا، و الذكرى لبناء المتاب أساسا، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد رسوله الذى هدانا إلى الفوز العظيم ابتغاء لرحمته و التماسا، و الرضا عن آله الذين اختارهم له ناسا، و جعلهم مصابيح من بعده اقتداء و اقتباسا، فإنّا كتبناه إليكم- كتب اللّه تعالى إعزازكم! و حرس أحوازكم! و جعل للعمل الصالح اهتزازكم! و بقبول النصائح امتيازكم!- من مستقرّنا بمحروسة الحمراء، حماها اللّه سبحانه، و لا متعرف بفضل اللّه تعالى إلّا هداية تظهر على الأقوال و الأعمال، و عناية تحفّ من اليمين و الشمال، و توكّل على اللّه يتكفّل لنا ببلوغ الآمال، و أنتم أولياؤنا الذين لا ندّخر عنهم نصحا، و لا نهمل فى تدبيرهم ما يثمر نجحا، و بحسب هذا الاعتقاد لا نغفل عن نصيحة ترشدكم إذا غفلتم، و موعظة نقصّها عليكم إذا اجتمعتم فى بيوت اللّه و اختلفتم، و ذبّ عنكم تارة بسلم نعقدها، و مطاولة نسدّدها، و تارة بسيوف فى سبيل اللّه تعالى نحدّدها، و عساكر للشهادة نردّدها، و نفوس بوعد اللّه نعدها، و نرضى بالسهر لتنام أجفانكم، و بالكدّ لتستريح صبيانكم و ولدانكم، و باقتحام المخاوف ليتحصل أمانكم، و لو استطعنا أن نجعل عليكم وقاية كوقاية الوليد لجعلنا، أو يمكننا أن لا تفضلكم رعيّة بصلاح دين أو دنيا لفعلنا، هذا شغل زماننا منذ عرفنا، و مرمى همّنا مهما استهدفنا، و قد استرعانا اللّه تعالى جماعتكم، و ملّانا طاعتكم، و حرّم علينا إضاعتكم، و الراعى إذا لم يقصد بسائمته المراعى الطيبة، و ينتجع مساقط الغمائم الصّيّبة، و يوردها الماء

النمير، و يبتغ لها النماء و التثمير، و يصلح خللها، و يداو عللها، قلّ عددها، و عدمت غلّتها و ولدها، فندم على ما ضيّعه فى أمسه، و جنى عليها و على نفسه. و ألفيناكم فى أيامنا هذه الميامن عليكم قد غمرتكم آلاء اللّه تعالى و نعمه، و ملأت أيديكم مواهبه و قسمه، و شغل عدوّكم بفتنة قومه فنمتم للعافية فوق مهاد، و بعد عهدكم بما تقدّم من جهد و جهاد،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۱۸

و مخمصة و سهاد، فأشفقنا أن يجرّكم توالى الرخاء إلى البطر، أو تحملكم العافية على الغفلة عن اللّه تعالى و هى أخطر الخطر، أو تجهلوا مواقع فضله تعالى و كرمه، أو تستعينوا على معصيته بنعمه، فمن عرف اللّه تعالى فى الرخاء و جده فى الشّدة، و من استعدّ فى المهل وجد منفعة العدّة، و العاقل من لا يغترّ فى الحرب أو السلم بطول المدّة، فالدهر مبلى الجدّة، و مستوعب العدّة، و المسلمون إخوانكم اليوم قد شغلوا بأنفسهم عن جبركم، و سلموا للّه فى نصركم، و نشبت الأيدى و لا حول و لا قوّة إلّا باللّه بثغركم، و أهمتهم فتن تركت رسوم الجهاد خالية خاوية، و رياض الكتائب الخضر ذابلة ذاوية، فإن لم تشمّروا لما بين أيديكم فى هذه البرهة فماذا تنتظرون؟ و إذا لم تستنصروا باللّه مولاكم فبمن تستنصرون؟ و إذا لم تستعدّوا فى المهل فمتى تستعدّون؟ لقد خسر من رضى فى الدنيا و الآخرة بالدون، فلا تأمنوا مكر اللّه فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ [سورة الأعراف، الآية: ۹۹]. و من المنقول عن الملل، و المشهور فى الأواخر و الأول، أنّ المعصية إذا فشت فى قوم أحاط بهم سوء كسبهم، و أظلم ما بينهم و بين ربّهم، و انقطعت عنهم الرحمات، و وقعت فيهم المثلات و النقمات، و شحّت السماء و غيض الماء، و استولت الأعداء، و انتشر الداء، و جفّت الضّروع، و أخلفت الرضوع، فوجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة، و الذكرى التى توقظ من السّنة، و نقرع آذانكم بقوارع الألسنة، فأفزعوا الشيطان بوعيها، و تقرّبوا إلى اللّه تعالى برعيها، الصلاة الصلاة فلا تهملوها، و وظائفها المعروفة فكمّلوها، فهى الركن الوثيق، و العلم الماثل على جادّة الطريق، و الخاصة التى يتميّز بها هذا الفريق، و بادروا صفوفها الماثلة، و أتبعوا فريضتها النافلة، و أشرعوا إلى تاركها أسنّة الإنكار، و اغتنموا بها نواشئ الليل و بوادى الأسحار، و الزكاة أختها المنسوبة، ولدتها المكتوبة المحسوبة، فمن منعها فقد بخل على مولاه، باليسير ممّا أولاه، و ما أحقّه بذهاب هبة الوهّاب و أولاه، فاشتروا من اللّه تعالى كرائم أموالكم بالصّدقات، و أنفقوا فى سبيله يربحكم أضعاف النفقات، و واسوا سؤالكم كلّما نصبت الموائد، و أعيدت للترفّه العوائد، و ارعوا حقّ الجوار، و خذوا على أيدى الدّعرة و الفجّار، و أخرجوا الشّنآن من الصدور، و اجعلوا صلة الأرحام من عزم الأمور، و صونوا عن الاغتياب أفواهكم، و لا تعوّدوا السفاهة شفاهكم، و أقرضوا القرض الحسن إلهكم،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۱۹

و علّموا القرآن صبيانكم، فهو أسّ المبنى، و ازرعوه فى تراب ترائبهم فعسى أن يجنى، و لا تتركوا النصيحة لمن استنصح، و ردّوا السلام على من بتحية الإسلام أفصح، و جاهدوا أهواءكم فهى أولى ما جاهدتم، و أوفوا بعهد اللّه إذا عاهدتم، و ثابروا على حلق العلم و التعلّم، و حفوا بمراقى التكلّم، و تعلّموا من دينكم ما لا يسعكم عند اللّه تعالى جهله، و يتبيّن أنكم أهله، فمن القبيح أن يقوم أحدكم على وقاية برّه و شعيره، و رعاية شاته و بعيره، و لا يقوم على شىء يخلص به قاعدة اعتقاده، و يعدّه منجاة ليوم معاده، و اللّه عزّ و جلّ يقول و لقوله يرحل المنتجعون أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ [سورة المؤمنون، الآية: ۱۱۵] و ائنفوا من الحوادث الشنيعة، و البدع التى تفتّ فى عضد الشريعة، فقد شنّ علينا الملتبسة بأهل التصوّف الغار، و نال حملتها بل جملتها بإغماضهم الصغار، و تؤوّل المعاد و الجنّة و النار، و إذا لم يغر الرجل على دينه و دين أبيه فعلى من يغار؟

فالأنبياء الكرام و ورثتهم العلماء، هم أئمة الاقتداء، و الكواكب التى عيّنها الحقّ للاهتداء، فاحذروا معاطب هذا الداء، و دسائس هذه الأعداء. و أهم ما صرفتم إليه الوجوه، و استدفعتم به المكروه، العمل بأمره جلّ و علا فى الآية المتلوّة، و الحكمة السافرة المجلوّة، من ارتباط الخيل و إعداد القوّة، فمن كان ذا سعة فى رزقه، فليقم للّه بما استطاع من حقّه، و ليتّخذ فرسا يعمر محلّته بصهيله، و يقتنه من أجل اللّه و فى سبيله، فكم يتحمّل من عيال يلتمس مرضاتهنّ باتخاذ الزينة، و يتنافس فى أن يكون من أشراف المدينة، و مؤونة

الارتباط أقلّ، و على الهمّة و الدين أدلّ، إلى ما فيه من حماية الحوزة، و إظهار العزّة، و من لم يحسن الرمى فليتدرّب، و باتّخاذ السلاح إلى اللّه فليتقرّب، و قبل الرمى تراش السّهام، و على العباد الاجتهاد و على اللّه التمام. و السكّة الجارية فى حوادث نواديكم، و أثمان العروض التى بأيديكم، من حتف حروفها، و نكّر معروفها، أو سامح فى قبول زيف، أو مبخوس حيف، فقد اتّبع هواه، و خان نفسه و سواه، قال اللّه عزّ و جلّ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (۱۸۱) وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (۱۸۲) وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [سورة الشعراء، الآية: ۱۸۱- ۱۸۳] و لتعلموا أنّ نبيّكم صلوات اللّه عليه إنّما بعثه اللّه مجاهدا و بالحقّ قاضيا، و عن الهفوات حليما متغاضيا، فتمسّكوا بحبله، و لا تعدلوا عن سبله، يروكم اللّه تعالى من سبله، و يراعكم من أجله، مراعاة الرجل لنجله، فهو الذى يقول وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [سورة الأنفال، الآية: ۳۳] و إن كان فى وطنكم اليوم سعة، و قد ألحفكم أمن من اللّه تعالى و دعة، فاحسبوا أنّكم فى بلد محصور، و بين لحيى أسد هصور، و اكتنفكم بحر يعبّ عبابه، و دار بكم سور بيد عدوّكم بابه، و لا يدرى متى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۲۰

ينتهى السّلم، و ينشعب الكلم، فإن لم تكونوا بناء مرصوصا، و تستشعروا الصبر عموما و خصوصا، أصبح الجناح مقصوصا، و الرأى قد سلبته الحيرة، و المال و الحريم قد سلبت فيه الضغانة و الغيرة، و إن شاء اللّه تهبّ ريح الحميّة، و نصرة النفوس على الخيالات الوهميّة، فإنّ العزّة للّه و لرسوله و للمؤمنين، و اللّه متم نوره على رغم الجاحدين و كره الكافرين، و كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [سورة البقرة، الآية: ۲۴۹]. و اعتقدوا أنّ اللّه تعالى لم يجعل الظهور مقرونا بعدد كثير، و لو مثل جراد مزرعة أثارها مثير، بل بإخلاص لا يبقى لغير اللّه افتقارا، و نفوس توسع ما سوى الحقّ اقتدارا، و وعد يصدق، و بصائر أبصارها إلى مثابة الجزاء تحدق، و هذا الدين ظهر مع الغربة، و شظف التربة، فلم ترعه الأكاسرة و فيولها، و القياصرة و خيولها، دين حنيف، و علم منيف، من وجوه شطر المسجد الحرام تولى، و آيات على سبعة أحرف تتلى، و زكاة من الصميم تنتقى، و معارج ترتقى، و حجّ و جهاد، و مواسم و أعياد، ليس إلّا تكبير شهير، و أذان جهير، و قوّة تعدّ، و ثغور تسدّ، و فىء يقسم، و فخر يرسم، و نصيحة تهدى، و أمانة تؤدّى، و صدقة تخفى و تبدى، و صدور تشرح و تشفى، و خلق على خلق القرآن تحذى و تقفى، قبض رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و هذا العقد قد سجّل، و الوعد به قد عجّل الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً [سورة المائدة، الآية: ۳] و لا ينقطع لهذا الفرع عادة وصله، ما دام شبيها بأصله، و إنما هو حلب لكم زبدته الممخوضة، و خلاصته الممحوضة، و العاقبة للمتّقين وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ [سورة ص، الآية: ۸۸]. و حضرتكم اليوم قاعدة الدين، و غاب المجاهدين، و قد اخترعت بنا أيامنا هذه و أيام والدنا المقدّس الآثار الكبار، و الحسنات التى تنوقلت بها الأخبار، و أغفلت إلى زمنكم الحسنة المذخورة، و المنقبة المبرورة، و هى بيمارستان يقيم منكم المرضى المطّرحين، و الضعفاء المغتربين منهم و المعترضين فى كلّ حين، فأنتم تطؤونهم بالأقدام، على مرّ الأيام، ينظرون إليكم بالعيون الكليلة، و يعربون عن الأحوال الذليلة، و ضرورتهم غير خافية، و ما أنتم بأولى منهم بالعافية، و المجانين تكثر منهم الوقائع، و تفشو منهم إماتة العهد الذائع، عار تحظره الشرائع، و فى مثله تسدّ الذرائع. و قد فضلتم أهل مصر و بغداد، بالرباط الدائم و الجهاد، فلا أقل من المساواة فى معنى، و المنافسة فى مبنى، يذهب عنكم لؤم الجوار، و يزيل عن وجوهكم سمات العار، و يدلّ على همّتكم، و فضل شيمتكم، أهل الأقطار، و كم نفقة تلفت على الرجل فى مشروع، و حرص اعتراه على ممنوع، فأسرعوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۲۱

فالنظر فى هذا المهم خير مشروع، و لو لا اهتمامنا بمرتزقة ديوانكم، و إعدادنا مال الجباية للمجاهدين من إخوانكم، لسبقناكم إلى هذه الزّلفة، و قمنا فى هذا العمل الصالح بتحمّل الكلفة، و مع ذلك فإذا قدناكم إلى الجنّة ببنائه، و أسهمناكم فى فريضة أجره و ثنائه، فنحن إن شاء اللّه تعالى نعيّن له الأوقاف التى تجرى عنها المرفقة، و تتّصل عليه بها الصدقة، تأصيلا لفخركم، و إطابة فى البلاد

لذكركم، فليشاور أحدكم همّته و دينه، و يستخدم يساره فى طاعة القصد الكريم و يمينه، و نسأله اللّه تعالى أن يوفّق كلّا لهذا القصد و يعينه، و من وراء هذه النصائح عزم ينهيها إلى غايتها، و يجبر الكافة على اتّباع رأيها و رايتها، فأعملوا الأفكار فيما تضمنته من الفصول، و تلقّوا داعى اللّه تعالى فيها بالقبول، و الدنيا مزرعة الآخرة، و كم معتبر للنفوس الساخرة، بالعظام الناخرة وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ [سورة فاطر، الآية: ۵] و أنتم اليوم أحقّ الناس بقبول الموعظة نفوسا زكية، و فهوما لا قاصرة و لا بطيّئة، و موطن جهاد، و مستسقى غمام من رحمة اللّه تعالى و عهاد، و بقايا السلف بالأرض التى فتحوا فيها هذا الوطن، و ألقوا فيها العطن، فإلى أين يذهب حسن الظنّ بأديانكم، و صحة إيمانكم، و تساوى إسراركم و إعلانكم؟ اللهمّ إنّا قد خرجنا لك فيهم عن العهدة المتحمّلة، و بلّغناهم نصيحتك المكملة، و وعدناهم مع الامتثال رحمتك المؤملة، فيسّرنا و إياهم لليسرى، و عرّفنا لطائفك التى خفى فيها المسرى، و لا تجعلنا ممّن صمّ عن النداء، و أصبح شماتة الأعداء، فما ذلّ من استنصر بجنابك، و لا ضلّ من استبصر بسنّتك و كتابك، و لا انقطع من توسّل بأسبابك، و اللّه سبحانه يصل لكم عوائد الصنع الجميل، و يحملكم و إيّانا من التوفيق على أوضح سبيل، و يصل سعدكم، و يحرس مجدكم، و السلام الكريم يخصّكم و رحمة اللّه تعالى و بركاته»؛ انتهى.

[من انشاء على بن لسان الدين أيضا على لسان السلطان]

و من ذلك قوله رحمه اللّه تعالى على لسان السلطان بعد كلام:

«اللّه اللّه فى الهمم فقد خمدت ريحها، و اللّه اللّه فى العقائد فقد خبت مصابيحها، و اللّه اللّه فى الرجولية فقد فلّ حدّها، و اللّه اللّه فى الغيرة فقد تعسّر جدّها، و اللّه اللّه فى الدين فقد طمع الكفر فى تحويله، و اللّه اللّه فى الحريم فقد مدّ إلى استرقاقه يد تأميله، و اللّه اللّه فى الملّة التى يريد إطفاء سناها، و قد كمل فضلها و تناهى، و اللّه اللّه فى الحريم، و اللّه اللّه فى الدين الكريم، و اللّه اللّه فى القرآن، و اللّه اللّه فى الجيران، و اللّه اللّه فى الطارف و التالد، و اللّه اللّه فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۹؛ ص۲۲۱

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۲۲

الوطن الذى توارثه الولد عن الوالد، اليوم تستأسد النفوس المهينة، اليوم يستنصر الصبر و السكينة، اليوم ترعى لهذه المساجد الكرام الذّمم، اليوم يسلك سبيل العزم و الحزم و الشدّة و الشّمم، اليوم يرجع إلى اللّه المصرّون، اليوم يفيق من نوم الغفلة المغترّون، قبل أن يتفاقم الهول، و يحقّ القول، و يسدّ الباب، و يحيق العذاب، و يسترق الكفر الرقاب، فالنساء تقى بأنفسهن أولادهنّ الصغار، و الطيور ترفرف لتحمى الأوكار، إذا أحست العيث بأفراخها و الإضرار، تمرّ الأيام عليكم مرّ السحاب، و ذهاب الليالى لكم ذهاب، فلا خبر يقضى إلى العين، و لا حديث فى اللّه تعالى يسمع بين اثنين، و لا كد إلّا لزينة يحلّى بها نحر وجيد، و لا سعى إلّا متاع لا يغنى فى الشدائد و لا يفيد، و بالأمس ندبتم إلى التماس رحمى مسخّر السحاب، و استقالة كاشف العذاب، و سؤال مرسل الدّيمة، و محيى البشر و البهيمة، و قد أمسكت عليكم رحمة السماء، و اغبرّت جوانبكم المخضرّة احتياجا إلى بلالة الماء وَ فِى السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ [سورة الذاريات، الآية: ۲۲] و إليها الأكفّ تمدّون، و أبوابها بالدعاء تقصدون، فلم يصحر منكم عدد معتبر، و لا ظهر للإنابة و لا الصّدقة خبر، و تتوقون من إعادة الرغبة إلى الولى الحميد، و الغنى الذى إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ [سورة إبراهيم، الآية: ۱۹] و ايم اللّه لو كان لهوا لارتقبت الساعات، و ضاقت المتّسعات، و تزاحمت على أنديته الجماعات. أ تعزّزا على اللّه و هو القوى العزيز؟ أتلبيسا على اللّه و هو الذى يميّز الخبيث من الطيب و الشّبه من الإبريز؟ أ منابذة و النواصى فى يديه؟ أغرورا بالأمل و الرجوع بعد إليه؟

من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ من ينزل الرزق و يفيده؟ من يرجع إليه فى الملمّات؟ من يرجّى فى الشدائد و الأزمات؟ من يوجد فى المحيا و الممات؟ أفى اللّه شكّ يختلج القلوب؟ أثمّ غير اللّه يدفع المكروه و ييسّر المطلوب؟ تفضلون على اللجإ إليه موائد الفضل، و نزه

الجهل، و طائفة منكم قد برزت إلى استسقاء رحمته تمدّ إليه الأيدى و الرقاب، و تستكشف بالخضوع لعظمته العقاب، و تستعجل إلى مواعيد إجابته الارتقاب، و كأنكم عن كرمه قد استغنيتم، أو على الامتناع من الرجوع إليه بنيتم. أما تعلمون كيف كان نبيّكم صلوات اللّه من التبلّغ باليسير، و الاستعداد للرحيل إلى دار الحقّ و المسير، و مداومة الجوع، و هجر الهجوع، و العمل على الإياب إلى اللّه تعالى و الرجوع: دخلت فاطمة، رضى اللّه تعالى عنها، و بيدها كسرة شعير

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۲۳

فقال: ما هذا يا فاطمة؟ فقالت: يا رسول اللّه، خبزت قرصة و أحببت أن تأكل منها، فقال: «يا فاطمة، إما إنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث». و كان صلى اللّه عليه و سلم، يستغفر فى اليوم سبعين مرة يلتمس رحماه، و يقوم و هو مغفور له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر حتى و رمت قدماه، و كان شأنه الجهاد، و دأبه الجدّ و الاجتهاد، و مواقف صبره تعرفها الرّبا و الوهاد، و مقامات رفقه تحوم على مراتبها الزهاد، فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون؟ و إذا لم تهتدوا به فبمن تهتدون؟ و إذا لم ترضوه باتّباعكم فكيف تعتزون إليه و تنتسبون؟ و إذا لم ترغبوا فى الاتّصاف بصفاته غضبا للّه تعالى و جهادا، و تقلّلا من العرض الأدنى و سهادا، ففيم ترغبون؟ فابتروا حبال الآمال فكلّ آت قريب، و اعتبروا بمثلات من تقدّم من أهل البلاد و القواعد فذهولكم عنها غريب، و تفكّروا فى منابرها التى يعلو عليها واعظ و خطيب، و مطيل و مطيب، و مساجدها المتعدّدة الصفوف و الجماعة، المعمورة بأنواع الطاعة، و كيف أخذ اللّه تعالى فيها بذنب المترفين من دونهم، و عاقب الجمهور بما أغضوا عنه عيونهم، و ساءت بالغفلة عن اللّه تعالى عقبى جميعهم، و ذهبت النقمات بعاصيهم و من داهن فى أمره من مطيعهم، و أصبحت مساجدهم مناصب للصلبان، و استبدلت مآذنهم بالنواقيس من الآذان، هذا و الناس ناس و الزمان زمان. فما هذه الغفلة عمّن إليه الرجعى و إليه المصير؟ و إلى متى التساهل فى حقوقه و هو السميع البصير؟ و حتى متى مدّ الأمل فى الزمن القصير؟ و إلى متى نسيان اللجإ إلى الولى النصير؟ قد تداعت الصلبان متراكمة عليكم، و تحرّكت الطواغيت من كلّ جهة إليكم، أفيخذلكم الشيطان و كتاب اللّه قائم فيكم؟ و ألسنة الآيات تناديكم، لم تمح سطورها، و لا احتجب نورها، و أنتم بقايا من فتحها من عدد قليل، و صابر فيها كلّ خطب جليل، فو اللّه لو تمحض الإيمان، و رضى الرحمن، ما ظهر التثليث فى هذه الجزيرة على التوحيد، و لا عدم الإسلام فيها عادة التأييد، لكن شمل الداء، و صمّ النداء، و عميت الأبصار فكيف الاهتداء؟ و الباب مفتوح، و الفضل ممنوح، فتعالوا نستغفر اللّه جميعا فهو الغفور الرحيم، و نستقل مقيل العثار فهو الرؤوف الحليم، و نصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أيدينا فقبول المعاذير من شأن الكريم، سدّت الأبواب، و ضعفت الأسباب، و انقطعت الآمال إلّا منك يا فتّاح يا وهّاب يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ [سورة محمد، الآية: ۷] يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ [التوبة: ۱۲۳] وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [سورة آل عمران، الآية: ۱۳۹] يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۲۴

وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [سورة آل عمران، الآية: ۲۰۰] أعدّوا الخيل و ارتبطوها، و روّضوا النفوس على الشهادة و غبطوها، فمن خاف الموت رضى بالدنيّة، و لا بدّ على كلّ حال من المنيّة، و الحياة مع الذّلّ ليست من شيم النفوس السنيّة، و اقتنوا السلاح و العدّة، و تعرفوا إلى اللّه تعالى فى الرّخاء يعرفكم فى الشدّة، و استشعروا القوة باللّه تعالى على أعدائه و أعدائكم، و استميتوا من دون أبنائكم، و كونوا كالبناء المرصوص لحملات هذا العدوّ النازل بفنائكم، و حوطوا بالتعويل على اللّه تعالى وحده بلادكم، و اشتروا من اللّه جلّ جلاله أولادكم.

«ذكروا أنّ امرأة احتمل السبع ولدها و شكت إلى بعض الصالحين، فأشار عليها بالصدقة، فتصدّقت برغيف، فأطلق السبع ولدها، و سمعت النداء: يا هذه لقمة بلقمة، و إنّا لما استودعناه لحافظون.

و اهجروا الشهوات، و استدركوا البقيّة من بعد الفوات، و أفضلوا لمساكينكم من الأقوات، و اخشعوا لما أنزل اللّه تعالى من الآيات، و

خذوا نفوسكم بالصبر على الأزمات، و المواساة فى المهمّات، و أيقظوا جفونكم من السّنات، و اعلموا أنكم رضعاء ثدى كلمة التوحيد، و جيران البلد الغريب و الدين الوحيد، و حزب التمحيص، و نفر المرام العويص، فتفقّدوا معاملاتكم مع اللّه تعالى، و مهما لقيتم الصدق غالبا، و القلب للمولى الكريم مراقبا، و شهاب البنين ثاقبا، فثقوا بعناية اللّه التى لا يغلبكم معها غالب، و لا ينالكم لأجلها عدوّ مطالب، فإنكم فى الستر الكثيف، و كنف الخبير اللطيف، و مهما رأيتم الخواطر متبدّدة، و الظنون فى اللّه متردّدة، و الجهات التى تخاف و ترجى متعدّدة، و الغفلة عن اللّه ملامسها متجدّدة، و عادة دواعى الخذلان دائمة، و أسواق الشهوات قائمة، فاعلموا أنّ اللّه تعالى منفّذ فيكم وعده و وعيده فى الأمم الغافلين، و أنكم قد ظلمتم أنفسكم و لا عدوان إلّا على الظالمين، و التوبة تردّ الشارد إلى اللّه تعالى و اللّه يحبّ التوابين و يحبّ المتطهرين، و هو القائل إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ [سورة هود، الآية: ۱۱۴].

«و ما أقرب صلاح الأحوال مع اللّه تعالى إذا صحّت العزائم، و توالت على حزب الشيطان الهزائم، و خملت الدنيا الغريبة فى العيون، و صدقت فيها عند اللّه الظنون يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [سورة فاطر، الآية: ۵] و ثوبوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۲۵

سراعا إلى طهارة الثوب، و إزالة الشّوب، و اقصدوا أبواب غافر الذنب و قابل التوب، و اعلموا أنّ سوء الأدب مع اللّه تعالى يفتح أبواب الشدائد، و يسدّ طرق العوائد، فلا تمطلوا بالتوبة أزمانكم، و لا تأمنوا مكر اللّه فتغشوا إيمانكم، و لا تعلقوا متابكم بالضّرائر، فهو علّام السرائر، و إنما علينا أن ننصحكم و إن كنّا أولى بالنصيحة، و نعتمدكم بالموعظة الصريحة، الصادرة- علم اللّه تعالى- عن صدق القريحة، و إن شاركناكم فى الغفلة فقد سبقناكم إلى الاسترجاع و الاستغفار، و إنما لكم لدينا نفس مبذولة فى جهاد الكفار، و تقدم قبلكم إلى مواقف الصبر التى لا ترضى بالفرار، و اجتهاد فيما يعود بالحسنى و عقبى الدار، و الاختيار للّه ولى الاختيار، و مصرّف الأقدار، وها نحن نسرع فى الخروج إلى مدافعة هذا العدو و نفدى بنفوسنا البلاد و العباد، و الحريم المستضعف و الأولاد، و نصلى من دونهم نار الجلاد، و نستوهب منكم الدعاء لمن وعد بإجابته، فإنه يقبل من صرف إليه وجه إنابته، اللّهمّ كن لنا فى هذا الاهتمام نصيرا، و على أعدائك ظهيرا، و من انتقام عبدة الأوثان كفيلا، اللهمّ قوّ من ضعفت حيلته فأنت القوى المعين، و انصر من لا نصير له إلّا أنت فإياك نعبد و إياك نستعين، اللهمّ ثبّت أقدامنا و انصرنا عند تزلزل الأقدام، و لا تسلمنا عند لقاء عدوّ الإسلام، فقد ألقينا إليك يد الاستسلام، اللهمّ دافع بملائكتك المسوّمين، اللهمّ اجعلنا على تيقّظ و تذكّر من قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ (۱۷۳) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (۱۷۴) [سورة آل عمران، الآية: ۱۷۳، ۱۷۴].

«و قد وردت علينا المخاطبات من إخواننا المسلمين الذين عرفنا فى القديم و الحديث اجتهادهم، و شكرنا فى ذات اللّه تعالى جهادهم، بنى مرين أولى الامتعاض للّه تعالى و الحميّة، و المخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزيّة، بعزمهم على الامتعاض لحقّ الجوار، و المصارخة التى تليق بالأحرار، و النفرة لانتهاك ذمار نبيّهم المختار، و حركة سلطانهم بتلك الأقطار و الأمصار، و مدافعة أحزاب الشيطان و أهل النار، فاسألوا اللّه تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم الآثار، و السعى الضمين للعزّ و الأجر و الفخار، و السلام الكريم يخصّكم أيها الأولياء و رحمة اللّه و بركاته؛ انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۲۶

[كتاب من إنشاء على بن لسان الدين عن لسان السلطان الغنى باللّه]

و ممّا كتبه ابن لسان الدين رحمه اللّه تعالى على لسان سلطانه الغنى باللّه تعالى و النظر إليهم بعين الشفقة ما صورته:

«هذا كتاب كريم أصدرناه بتوفيق اللّه تعالى شارحا للصدور، مصلحا بإعانة اللّه تعالى للأمور، ملحفا العدل و الإحسان الخاصّة و الجمهور، يعلم من يسمعه أو يقف عليه، و من يقرؤه و يتدبّر ما لديه، ما عاهدنا اللّه تعالى عليه من تأمين النفوس و حقن الدماء، و السير فى التجافى عنها على السّنن السّواء، و رفع التشاور عن البعيد منها و القريب، و المساواة فى العفو و الغفران بين البرىء منها و المريب، و حمل من ينظر بعين العدواة فى باطن الأمر محمل الحبيب، و ترك ما يتوجّه بأمر المطالبات، و رفض التبعات، ممّا لا يعارض حكما شرعيّا، و لا يناقض سننا فى الدين مرعيّا، فمن كان رهن تبعة أو طريد تهمه، أو منبوزا فى الطاعة بريبة توجب أن نريق دمه، فقد سحبنا عليه ظلال الأمان و ألحفناه أثواب العفو و الغفران، و وعدناه من نفسنا مواعد الرفق و الإحسان، حكما عامّا، و عفوا تامّا، فاشيا فى جميع الطبقات، منسحبا على الأصناف المختلفات، عاملنا فى ذلك من يتقبّل الأعمال، و لا يضيع السؤال، و استغفرنا عن نفسنا و عمّن أخطأ علينا من رعيّتنا ممّن يدرأ الشرع غلطته، و يقبل الحقّ فيأته، من يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً [سورة النساء، الآية: ۱۱۰] لما رأينا من سر اتّفاق الأهواء و الضمائر، و خلوص القلوب و السرائر، فى هذا الوطن الذى أحاط به العدوّ و البحر، و مسّه بتقدّم الفتنة الضرّ، وصلة لما أجراه اللّه تعالى على أيدينا، و هيأه بنا فى نادينا، فلم يخف ما سكن بنا من نار فتنة، و رفع من بأس و إحنة، و كشف من ظلمة، و سدل من نعمة، و أصفى من مورد عافية، و أولى من عصمة كافية، بعد ما تخرّبت الثغور، و فسدت الأمور، و اهتضم الدين، و اشتدّ على العباد كلب الكافرين المعتدين ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ [سورة يوسف، الآية: ۳۸] فله الحمد دائبا، و الشكر واجبا، و من اللّه نسأل أن يتمّم نعمته علينا كما أتمّها على أبوينا من قبل إنّ ربّك حكيم عليم. و نحن قد شرعنا فى تعيين من ينوب عنّا من أهل العلم و العدالة، و الدين و الجلالة للتطوّف فى البلاد الأندلسية، و مباشرة الأمور بالبلاد النّصرية، ينهون إلينا ما يستطلعونه، و يبلغون من المصالح ما يتعرّفونه، و يقيّدون ما تحتاج إليه الثغور، و تستوجبه المصلحة الجهادية من الأمور، و نحن نستعين بفضلاء رعيّتنا و خيارهم، و المراقبين اللّه تعالى منهم فى إيرادهم و إصدارهم، على إنهاء ما يخفى عنّا من ظلامة تقع، أو حادث يبتدع، و من اتّخذت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۲۷

بجواره خمر فاشية، أو نشأت فى جهته للمنكر ناشية، فنحن نقلّده العهد، و نطوّقه القلادة، و وراء تنبيهنا على ما خفى من الشكر لمن أهداه، و إحماد سعى من أبلغه و أدّاه، ما نرجو ثواب اللّه تعالى عليه، و التقرّب به إليه، فمن أهدى لنا شيئا من ذلك فهو شريك فى أجره، و مقاسم فى مثوبته يوم ربح تجره، و حسبنا اللّه و نعم الوكيل»؛ انتهى.

[وصية لسان الدين لأولاده]

و إذ أجرينا طرف القلم ملء عنانه فيما للسان الدين رحمه اللّه تعالى من النصائح و المواعظ و الوصايا، و ما يرجع بالنفع على الخاصة و جمهور الرعايا، ما كلّ دون شأوه، و قصر عن أمده مديد خطوه، و قد تقدّم فى هذا الكتاب من ذلك جملة وافرة، فلتراجع فى محالها المتكاثرة، و قد آن أن نسرد فى هذا المحلّ الوصيّة التى أوصى لسان الدين رحمه اللّه تعالى بها أولاده، و هى وصيّة جامعة نافعة، يحصل بها انتعاش؛ لاشتمالها على ما لا بدّ منه فى المعاد و المعاش، و نصّها:

«الحمد للّه الذى لا يروعه الحمام المرقوب إذا شيم نجمه المثقوب، و لا يبغته الأجل المكتوب، و لا يفجؤه الفراق المعتوب، ملهم الهدى الذى تطمئن به القلوب، و موضح السبيل المطلوب، و جاعل النصيحة الصريحة فى قسم الوجوب، لا سيما للولى المحبوب، و الولد المنسوب، القائل فى الكتاب المعجز الأسلوب، أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ [سورة البقرة، الآية: ۱۳۳] وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ [سورة البقرة، الآية: ۱۳۲].

و الصلاة و السلام على سيّدنا و مولانا محمد رسوله أكرم من زرّت على نوره جيوب الغيوب، و أشرف من خلعت عليه حلل المهابة و العصمة فلا تقتحمه العيون و لا تصمه العيوب، و الرضا عن آله و أصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب، و الأمل

المسلوب، و الاقتداء الموصل [الى] المرغوب، و العزّ و الأمن من اللغوب.

و بعد، فإنى لما علانى المشيب بقمّته، و قادنى الكبر برمّته، و ادّكرت بعد أمّته،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۲۸

أسفت لما أضعت، و ندمت بعد الفطام على ما رضعت، و تأكّد وجوب نصحى لمن لزمنى رعيه، و تعلّق بعينى سعيه، و أمّلت أن تتعدّى إلى ثمرة استقامته و أنا رهين فوات، و فى برزخ أموات، و يأمن العثور فى الطريق التى اقتضت عثارى، إن سلك- و عسى أن لا يكون ذلك- على آثارى، فقلت أخاطب الثلاثة الولد، و ثمرات الخلد، بعد الضراعة إلى اللّه تعالى فى توفيقهم، و إيضاح طريقهم، و جمع تفريقهم، و أن يمنّ علىّ منهم بحسن الخلف، و التلافى من قبل التلف، و أن يرزق خلفهم التمسّك بهدى السلف، فهو ولى ذلك، و الهادى إلى خير المسالك.

اعلموا، هداكم اللّه تعالى الذى بأنواره تهتدى الضّلّال، و برضاه ترفع الأغلال، و بالتماس قربه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، و أخلفت الآمال، و تبرّأت من يمينها الشمال- أنى مودعكم و إن سالمنى الردى، و مفارقكم و إن طال المدى، و ما عدا ممّا بدا، فكيف و أدوات السفر تجمع، و منادى الرحيل يسمع، و لا أقل للحبيب المودّع من وصيّة محتضر، و عجالة مقتصر، و رتيمة تعقد فى خنصر، و نصيحة تكون نشيدة واع مبصر، تتكفّل لكم بحسن العواقب من بعدى، و توضح لكم من الشفقة و الحنوّ قصدى، حسبما تضمّن وعد اللّه من قبل وعدى، فهى أربكم الذى لا يتغيّر وقفه، و لا ينالكم المكروه ما رفّ عليكم سقفه، و كأنى بشبابكم قد شاخ، و براحلكم قد أناخ، و بناشطكم قد كسل، و استبدل الصاب من العسل، و نصول الشيب تروع بأسل، لا بل السام من كل حدب قد نسل، و المعاد اللحد و لا- تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجر، و اليوم أبناء عسكر مجر، و غدا شيوخ مضيعة و هجر، و القبور فاغرة، و النفوس عن المألوفات صاغرة، و الدنيا بأهلها ساخرة، و الأولى تعقبها الآخرة، و الحازم من لم يتّعظ به فى أمر، و قال: بيدى لا بيد عمرو، فاقتنوها من وصيّة، و مرام فى النصح قصيّة، و خصّوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا، و حسبى و حسبكم اللّه الذى لم يخلق الخلق هملا- و لكن ليبلوهم أيهم أحسن عملا، و لا رضى الدنيا منزلا، و لا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلا. و لتلقنوا تلقينا، و تعلموا علما يقينا، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبى، و يفترش التراب جنبى، و يسحّ انسكابى، و تهرول عن المصلّى ركابى، أحرص منى على سعادة إليكم تجلب، أو غاية كمال بسببكم ترتاد و تطلب، حتى لا يكون فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۲۹

الدين و الدنيا أورف منكم ظلّا، و لا أشرف محلّا، و لا أغبط نهلا و علّا، و أقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولى الآذان، و تستلمحوا صبح نصحى فقد بان، و سأعيد عليكم وصيّة لقمان: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [سورة لقمان، الآية: ۱۳] يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱۷) وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (۱۸) وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (۱۹) [سورة لقمان، الآية: ۱۷- ۱۹] و أعيد وصية خليل اللّه و إسرائيله، حكم ما تضمّنه حكم تنزيله يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة، الآية: ۱۳۲] و الدين الذى ارتضاه و اصطفاه، و أكمله و وفّاه، و قرّره مصطفاه، من قبل أن يتوفّاه، إذا أعمل فيه انتقاد، فهو عمل و اعتقاد، و كلاهما مقرّر، و مستمدّ من عقل أو نقل محرّر، و العقل متقدّم، و بناؤه مع رفض أخيه متهدّم، فاللّه واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد و لا ولد، تنزّه عن الزمان و المكان، و سبق وجوده وجود الأكوان، خالق الخلق و ما يعملون، الذى لا يسأل عن شىء و هم يسألون، الحىّ العليم المدبّر القدير لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [سورة الشورى، الآية: ۱۱] أرسل الرسل رحمة لتدعو الناس إلى النجاة من الشقاء، و توجّه الحجّة فى مصيرهم إلى دار البقاء، مؤيدة بالمعجزات التى لا تتّصف أنوارها بالاختفاء، و لا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء، ثم ختم ديوانهم بنبىّ ملّتنا المرعيّة الهمل، الشاهدة على الملل، فتلخّصت الطاعة، و تعيّنت الإمرة المطاعة، و لم يبق بعده إلّا

ارتقاب الساعة، ثم إنّ اللّه تعالى قبضه إذ كان بشرا، و ترك دينه يضمّ من الأمّة نشرا، فمن تبعه لحق به، و من تركه نوط عنه فى منسبه، و كانت نجاته على قدر سببه، روى عنه عليه الصلاة و السلام أنه قال «تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لم تضلّوا بعدى: كتاب اللّه، و سنّتى، فعضّوا عليهما بالنواجذ». فاعملوا يا بنى، بوصيّة من ناصح جاهد، و مشفق شفقة والد، و استشعروا حبّه الذى توفّرت دواعيه، وعوا مراشد هديه فيا فوز واعيه، و صلوا السبب بسببه، و آمنوا بكلّ ما جاء به مجملا أو مفصّلا على حسبه، و أوجبوا التجلّة لصحبه الذين اختارهم اللّه تعالى لصحبته، و اجعلوا محبّتكم إياهم من توابع محبّته، و اشملوهم بالتوقير، و فضلوا منهم أولى الفضل الشهير، و تبرءوا من العصبية التى لم يدعكم إليها داع، و لا تع التشاجر بينهم أذن واع، فهو عنوان السداد، و علامة سلامة الاعتقاد، ثم اسحبوا فضل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۳۰

تعظيمهم على فقهاء الملّة، و أئمّتها الجلّة، فهم صقلة نصولهم، و فروع ناشئة من أصولهم، و ورثتهم و ورثة رسولهم. و اعلموا أننى قطعت فى البحث زمانى، و جعلت النظر شانى، منذ برانى اللّه تعالى و أنشانى، مع نبل يعترف به الشانى، و إدراك يسلّمه العقل الإنسانى، فلم أجد خابط ورق، و لا مصيب عرق، و لا نازع خطام، و لا متكلّف فطام، و لا مقتحم بحر طام، إلّا و غايته التى يقصدها قد نضلتها الشريعة و سبقتها، و فرعت ثنيتها و ارتقتها، فعليكم بالتزام جادّتها السابلة، و مصاحبة رفقتها الكاملة، و الاهتداء بأقمارها غير الآفلة، و اللّه تعالى يقول و هو أصدق القائلين وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ [سورة آل عمران، الآية: ۸۵] و قد علت شرائعه، وراع الشكوك رائعه، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين، و ابذلوا دونه النفوس فعل المهتدين، فلن ينفع متاع بعد الخلود فى النار أبد الآبدين، و لا يضرّ مفقود مع الفوز بالسعادة و اللّه أصدق الواعدين، و متاع الحياة الدنيا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين، اللّهمّ قد بلّغت فأنت خير الشاهدين، فاحذروا المعاطب التى توجب فى الشقاء الخلود، و تستدعى شوه الوجوه و نضج الجلود، و استعيذوا برضا اللّه من سخطه، و اربؤوا بنفوسكم عن غمطه، و ارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم، و لا تحمدوا على جيفة العرض الزائل ائتلافكم، و اقتنعوا منه بما تيسّر، و لا تأسوا على ما فات و تعذّر، فإنما هى دجنّة ينسخها الصباح، و صفقة يتعاقبها الخسار و الرباح، و دونكم عقيدة الإيمان فشدّوا بالنواجذ عليها، و كفكفوا الشبه أن تدنوا إليها.

و اعلموا أن الإخلال بشىء من ذلك خرق لا يرفؤه عمل، و كل ما سوى الراعى همل، و ما بعد الرأس فى صلاح الجسم أمل، و تمسّكوا بكتاب اللّه تعالى حفظا و تلاوة، و اجعلوا حمله على حمل التكليف علاوة، و تفكّروا فى آياته و معانيه، و امتثلوا أوامره و نواهيه، و لا تتأوّلوه و لا تغلوا فيه، و أشربوا قلوبكم حبّ من أنزل على قلبه، و أكثروا من بواعث حبّه، و صونوا شعائر اللّه صون المحترم، و احفظوا القواعد التى ينبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرم.

اللّه اللّه فى الصلاة ذريعة التجلّة، و خاصة الملّة، و حاقنة الدم، و غنى المستأجر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۳۱

المستخدم، و أمّ العبادة، و حافظة اسم المراقبة لعالم الغيب و الشهادة، و الناهية عن الفحشاء و المنكر و إن عرض الشيطان عرضهما، و وطّأ للنفس الأمّارة سماءهما و أرضهما، و الوسيلة إلى بلّ الجوانح ببرود الذكر، و إيصال تحفة اللّه إلى مريض الفكر، و ضامنة حسن العشرة من الجار، و داعية للمسالمة من الفجار، و الواسمة بسمة السلامة، و الشاهدة للعبد برفع الملامة، و غاسول الطبع إذا شانه طبع، و الخير الذى كلّ ما سواه له تبع، فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء و إعادة، فالخير عادة، و لا تفضلوا عليها الأشغال البدنية، و تؤثروا على العلية الدنيّة، فإنّ أوقاتها المعينة بالانفلات تنبس، و الفلك بها من أجلكم لا يحبس، و إذا قورنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل، و الحكم الذى لا يغيّره الغدوّ و لا الأصيل، و الوظائف بعد أدائها لا تفوت، و أين حقّ من يموت من حقّ الحى الذى لا يموت؟ و أحكموا أوضاعها إذا أقمتموها و أتبعوها النوافل ما أطقتموها، فبالإتقان تفاضلت الأعمال، و بالمراعاة استحقت الكمال، و لا شكر مع الإهمال، و لا ربح مع إضاعة رأس المال، و ذلك أحرى بإقامة الفرض، و أدعى إلى مساعدة البعض البعض. و الطهارة التى هى فى

تحصيلها سبب موصل، و شرط لمشروطه محصل، فاستوفوها، و الأعضاء نظفوها، و مياهها بغير أوصافها الحميدة فلا تصغوها، و الحجول و الغرر فأطيلوها، و التيّات فى كلّ ذلك فلا تهملوها، فالبناء بأساسه، و السيف بمراسه.

«و اعلموا أنّ هذه الوظيفة من صلاة و طهور، و ذكر مجهور و غير مجهور، تستغرق الأوقات، و تنازع شتّى الخواطر المفترقات، فلا يضبطها إلّا من ضبط نفسه بعقال، و استعاض صدأه بصقال، و إن تراخى قهقر الباع، و سرقته الطباع، و كان لما سواها أضيع فشمل الضياع.

«و الزكاة أختها الحبيبة، ولدتها القريبة، مفتاح السعادة بالعرض الزائل، و شكران المسؤول على الضدّ من درجة السائل، و حقّ اللّه تعالى فى مال من أغناه، لمن أجهده فى المعاش و عنّاه، من غير استحقاق ملء يده و إخلاء يد أخيه، و لا علّة إلّا القدر الذى يخفيه،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۳۲

و ما لم ينله حظّ اللّه تعالى فلا خير فيه. فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها، فى اختيار عرضها و نتاجها، و استحيوا من اللّه تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل، و خالفوا الشيطان كلّما عذل، و اذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون، و لا تدرون أين تسلكون، فوهب و أقدر، و أورد بفضله، و أصدر، ليرتّب بكرمه الوسائل، أو يقيم الحجج و الدلائل، فابتغوا إليه الوسيلة بماله، و اغتنموا رضاه ببعض نواله.

و صيام رمضان عبادة السّرّ المقرّبة إلى اللّه زلفى، الممحوضة لمن يعلم السّرّ و أخفى، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام، و القيام ببر القيام، و الاجتهاد، و إيثار السهاد على المهاد، و إن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعيّة، و لواحقه الشرعيّة، فبذلك تحسن الوجوه، و تحصل من الرقّة على ما ترجوه، و تذهب قسوة الطباع، و يمتدّ فى ميدان الوسائل الباع.

«و الحجّ- مع الاستطاعة- الركن الواجب، و الفرض على العين لا يحجبه الحاجب، و قد بيّن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قدره فيما فرض عن ربّه و سنّه، و قال ليس له جزاء عند اللّه إلّا الجنّة.

و يلحق بذلك الجهاد فى سبيل اللّه تعالى إن كانت لكم قوّة عليه، و غنى لديه، فكونوا ممّن يسمع نفيره و يطيعه، و إن عجزتم فأعينوا من يستطيعه.

«هذه عمد الإسلام و فروضه، و نقود مهره و عروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، و على من يناويكم ظاهرين، و تلقوا اللّه لا مبدّلين و لا مغيرين، و لا تضيعوا حقوق اللّه فتهلكوا مع الخاسرين.

«و اعلموا أنّ بالعلم تستكمل وظائف هذه الألقاب، و تجلى محاسنها من بعد الانتقاب، فعليكم بالعلم النافع، دليلا بين يدى السامع، فالعلم مفتاح هذا الباب، و الموصل إلى اللّباب، و اللّه عزّ و جلّ يقول قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ [سورة الزمر، الآية: ۹] و العلم وسيلة النفوس الشريفة، إلى المطالب المنيفة، و شرطه الخشية للّه تعالى و الخيفة، و خاصة الملأ الأعلى، و صفة اللّه فى كتبه التى تتلى، و السبيل فى الآخرة إلى السعادة، و فى الدنيا إلى النحلة عادة، و الذخر الذى قليله يشفع، و كثيره ينفع، لا يغلبه الغاصب، و لا يسلبه العدوّ المناصب، و لا يبتزّه الدهر إذا نال، و لا يستأثر به البحر إذا هال، من لم ينله فهو ذليل و إن كثرت آماله، و قليل و إن جم ماله، و إن كان وقته قد فات اكتسابكم، و تخطى حسابكم، فالتمسوه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۳۳

لبنيكم، و استدركوا منه ما خرج عن أيديكم، و احملوهم على جمعه و درسه، و اجعلوا طباعهم ثرى لغرسه، و استسهلوا ما ينالهم من تعب من جرّاه، و سهر يهجر له الجفن كراه، تعقدوا لهم ولاية عزّ لا تعزل، و تحلّوهم مثابة رفعة لا يحطّ فارعها و لا يستنزل، و اختاروا فى العلوم التى يتعقبها الوقت، فلا يناله فى غيره المقت.

«و خير العلوم علوم الشريعة، و ما نجم بمنابتها المريعة، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها، و لا يضايق ثمرات المعاد حصولها، فإنما هى آلات لغير، و أسباب إلى خير منها و خير، فمن كان قابلا للازدياد، و ألفى فهمه ذا انقياد، فليخص تجويد القرآن بتقديمه،

ثم حفظ الحديث و معرفة صحيحه من سقيمه، ثم الشروع فى أصول الفقه فهو العلم العظيم المنّة، المهدى كنوز الكتاب و السّنّة، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلّة، و التدرّب فى طرق النظر و تصحيح الأدلّة، و هذه هى الغاية القصوى فى الملّة، و من قصر إدراكه عن هذا المرمى، و تقاعد عن التى هى أسمى، فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب و إحكامه، و ليقرإ المسائل الفقهية على مذهب إمامه، و إياكم و العلوم القديمة، و الفنون المهجورة الذميمة، فأكثرها لا يفيد إلّا تشكيكا، و رأيا ركيكا، و لا يثمر فى العاجلة إلّا اقتحام العيون، و تطريق الظنون، و تطويق الاحتقار، و سمة الصّغار، و خمول الأقدار، و الخسف من بعد الإبدار، و جادة الشريعة أعرق فى الاعتدال، و أوفق من قطع العمر فى الجدال، هذا ابن رشد قاضى المصر و مفتيه، و ملتمس الرشد و موليه، عادت عليه بالسخطة الشنيعة، و هو إمام الشريعة، فلا سبيل إلى اقتحامها، و التورّط فى ازدحامها، و لا تخلطوا حامكم بحامها، إلّا ما كان من حساب و مساحة، و ما يعود بجدوى فلاحة، و علاج يرجع على النفس و الجسم براحة، و ما سوى ذلك فمحجور، و ضرم مسجور، و ممقوت مهجور. و أمروا بالمعروف أمرا رفيقا، و انهوا عن المنكر نهيا حريّا بالاعتدال حقيقا، و اغبطوا من كان من سنة الغفلة مفيقا، و اجتنبوا ما تنهون عنه حتى لا تسلكوا منه طريقا.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۳۴

«و أطيعوا أمر من ولّاه اللّه تعالى من أموركم أمرا، و لا تقربوا من الفتنة جمرا، و لا تداخلوا فى الخلاف زيدا و لا عمرا.

«و عليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين، و أهمّ ما أضرى عليه الآباء ألسنة البنين، و أكرم منسوب إلى مذهبه، و من أكثر من شيء عرف به.

«و إياكم و الكذب فهو العورة التى لا تواري، و السوأة التى لا يرتاب فى عارها و لا يتمارى، و أقلّ عقوبات الكذاب، بين يدى ما أعدّ اللّه له من العذاب، أن لا يقبل منه صدقه إذا صدق، و لا يعول عليه إن كان بالحقّ نطق.

«و عليكم بالأمانة فالخيانة لوم، و فى وجه الديانة كلوم، و من الشريعة التى لا يعذر بجهلها، أداء الأمانات إلى أهلها، و حافظوا على الحشمة و الصّيانة، و لا تجزوا من أقرضكم دين الخيانة، و لا توجدوا للغدر قبولا، و لا تقرّوا عليه طبعا مجبولا وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا [سورة الإسراء، الآية: ۳۴] و لا تستأثروا بكنز و لا خزن، و لا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين فى سهل و لا حزن، و لا تبخسوا الناس أشياءهم فى كيل أو وزن، و اللّه اللّه أن تعينوا فى سفك الدماء و لو بالإشارة أو بالكلام، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام، و اعلموا أنّ الإنسان فى فسحة ممتدّة، و سبل اللّه تعالى غير منسدّة، ما لم ينبذ إلى اللّه تعالى بأمانه، و يمس الدم الحرام بيده أو لسانه، قال اللّه تعالى فى كتابه الذى هدى به سننا قويما، و جلى من الجهل و الضلال ليلا بهيما وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً [سورة النساء، الآية: ۹۳].

«و اجتناب الزنى و ما تعلّق به من أخلاق من كرمت طباعه، و امتدّ فى سبيل السعادة باعه، لو لم تتلقّ نور اللّه الذى لم يهد شعاعه، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه، و لا عدم إقناعه، و من غلبت غرائز جهله، فلينظر هل يحب أن يزنى بأهله، و اللّه قد أعدّ للزانى عذابا و بيلا، و قال: وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ ساءَ سَبِيلًا [سورة الإسراء، الآية: ۳۲].

«و الخمر أم الكبائر، و مفتاح الجرائم و الجرائر، و اللهو لم يجعله اللّه فى الحياة شرطا، و المحرم قد أغنى عنه بالحلال الذى سوّغ و أعطى، و قد تركها فى الجاهلية أقوام لم يرضوا لعقولهم بالفساد، و لا لنفوسهم بالمضرّة فى مرضاة الأجساد، و اللّه تعالى قد جعلها رجسا محرما على العباد، و قرنها بالأنصاب و الأزلام فى مباينة السّداد.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۳۵

«و لا تقربوا الربا فإنه من مناهى الدين، و اللّه تعالى يقول: وَ ذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [سورة البقرة، الآية: ۲۷۸] و قال: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ [سورة البقرة، الآية: ۲۷۹] فى الكتاب المبين، و لا تأكلوا مال أحد بغير حقّ يبيحه، و انزعوا الطعم عن ذلك حتى تذهب ريحه، و التمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه، و لا يكل خياره إلّا للثقة من خدمه، و لا تلجئوا

إلى المتشابه إلّا عند عدمه، فهو فى السلوك إلى اللّه تعالى أصل مشروع، و المحافظ عليه مغبوط، و إياكم و الظلم فالظالم ممقوت بكلّ لسان، مجاهر اللّه تعالى بصريح العصيان، و الظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد فى الصحاح الحسان. و النميمة فساد و شتات، لا يبقى عليه متات، و فى الحديث «لا يدخل الجنّة قتّات». و اطرحوا الحسد فما ساد حسود، و إياكم و الغيبة فباب الخير معها مسدود، و البخل فما رئى البخيل و هو مودود.

و إياكم و ما يعتذر منه فمواقع الخزى لا تستقال عثراتها، و مظنّات الفضائح لا تؤمن غمراتها، و تفقّدوا أنفسكم مع الساعات، و أفشوا السلام فى الطرقات و الجماعات، و رقوا على ذوى الزمانات و العاهات، و تاجروا مع اللّه بالصدقة يربحكم فى البضاعات، و عوّلوا عليه وحده فى الشدائد، و اذكروا المساكين إذا نصبتم الموائد، و تقرّبوا إليه باليسير من ماله، و اعلموا أنّ الخلق عيال اللّه و أحبّ الخلق إليه المحتاط لعياله، و ارعوا حقوق الجار، و اذكروا ما ورد فى ذلك من الآثار، و تعاهدوا أولى الأرحام، و الوشائج البادية الالتحام، و احذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر، و تفسد السّرّ و الجهر، و الرّشا فإنها تحطّ الأقدار، و تستدعى المذلّة و الصّغار، و لا تسامحوا فى لعبة قمر، و لا تشاركوا أهل البطالة فى أمر. و صونوا المواعيد من الإخلاف، و الأيمان من حنث الأوغاد و الأجلاف، و حقوق اللّه تعالى من الازدراء و الاعتساف، و لا تلهجوا بالآمال العجاف، و لا تكلفوا بالكهانة و الإرجاف. و اجعلوا العمر بين معاش و معاد، و خصوصية و ابتعاد، و اعلموا أنّ اللّه سبحانه بالمرصاد، و أنّ الخلق بين زرع و حصاد، و أقلوا بغير الحالة الباقية الهموم، و احذروا القواطع عن السعادة كما تحذر السموم. و اعلموا أنّ الخير أو الشرّ فى الدنيا محال أن يدوم، و قابلوا بالصبر أذاية المؤذين، و لا تعارضوا مقالات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۳۶

الظالمين، فاللّه لمن بغى عليه خير الناصرين، و لا تستعظموا حوادث الأيام كلّما نزلت، و لا تضجّوا للأمراض إذا أعضلت، فكل منقرض حقير، و كل منقض و إن طال قصير، و انتظروا الفرج، و انتشقوا من جناب اللّه تعالى الأرج، و أوسعوا بالرجاء الجوانح، [و اجنحوا إلى الخوف من اللّه تعالى فطوبى لعبد إليه جانح]، و تضرّعوا إلى اللّه تعالى بالدعاء، و الجؤوا إليه فى البأساء و الضّرّاء، و قابلوا نعم اللّه تعالى بالشكر الذى يقيد به الشارد، و يعذب الوارد، و أسهموا منها للمساكين و افضلوا عليهم، و عيّنوا الحظوظ منها لديهم، فمن الآثار «يا عائشة، أحسنى جوار نعم اللّه، فإنها قلّما زالت عن قوم فعادت إليهم». و لا تطغوا فى النعم فتقصروا عن شكرها، و تلفّكم الجهالة بسكرها، و تتوهّموا أنّ سعيكم جلبها، و جدّكم حلبها، فاللّه خير الرازقين، و العاقبة للمتّقين، و لا فعل إلّا للّه إذا نظر بعين اليقين، و اللّه اللّه لا تنسوا الفضل بينكم، و لا تذهبوا بذهابه زينكم، و ليلتزم كلّ منكم لأخيه، ما يشتدّ به تواخيه، بما أمكنه من إخلاص و برّ، و مراعاة فى علانية و سرّ، و للإنسان مزية لا تجهل، و حقّ لا يهمل. و أظهروا التعاضد و التناصر، و صلوا التعاهد و التزاور، ترغموا بذلك الأعداء، و تستكثروا الأوداء، و لا تتنافسوا فى الحظوظ السخيفة، و لا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة، و اعلموا أنّ المعروف يكدر بالامتنان، و طاعة النساء شرّ ما أفسد بين الإخوان، فإذا أسديتم معروفا فلا تذكروه، و إذا برز قبيح فاستروه، و إذا أعظم النساء أمرا فاحقروه.

و اللّه اللّه لا تنسوا مقارضة سجلى، و بروا أهل مودّتى من أجلى، و من رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد، الذى لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع فى العقار، فيصبح عرضة للمذلّة و الاحتقار، و ساعيا لنفسه إن تغلّب العدوّ على بلده فى الافتضاح و الافتقار، و معوقا عن الانتقال، أمام النّوب الثقال، و إذا كان رزق العبد على المولى، فالإجمال فى الطلب أولى، و ازهدوا جهدكم فى مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرّها، و نفعها لا يقوم بضرّها، و أعقاب من تقدّم شاهدة، و التواريخ لهذه الدعوى عاضدة، و من بلى بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال، و التقلّل من المال، و ليحذر معاداة الرجال، و مزلات الإدلال، و فساد الخيال، و مداخلة العيال، و إفشاء السرّ، و سكر الاغترار [فإنه دأب الغر]، و ليصن الديانة، و يؤثر الصمت و يلازم الأمانة، و يسر من رضا اللّه على أوضح الطرق، و مهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحقّ، و ليقف فى التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان، و الزعازع تسالم اللّدن

اللطيف من الأغصان، و إياكم و طلب الولايات رغبة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۳۷

و استجلابا، و استظهارا على الخطوب و غلابا، فذلك ضرر بالمروءات و الأقدار، داع إلى الفضيحة و العار، و من امتحن بها منكم اختيارا، أو جبر عليها إكراها و إيثارا، فليتلقّ وظائفها بسعة صدره، و يبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره، فالولايات فتنة و محنة، و أسر و إحنة، و هى بين إخطاء سعادة، و إخلال بعبادة، و توقّع عزل، و إدالة بإزاء بيع جدّ من الدنيا بهزل، و مزلّة قدم، و استتباع ندم، و مآل العمر كلّه موت و معاد، و اقتراب من اللّه و ابتعاد، جعلكم اللّه ممّن نفعه بالتبصير و التنبيه، و ممّن لا ينقطع بسببه عمل أبيه.

هذه أسعدكم اللّه وصيتى التى أصدرتها، و تجارتى التى لربحكم أدرتها، فتلقّوها بالقبول لنصحها، و الاهتداء بضوء صبحها، و بقدر ما أمضيتم من فروعها، و استغشيتم من دروعها، اقتنيتم من المناقب الفاخرة، و حصلتم على سعادة الدنيا و الآخرة، و بقدر ما أضعتم لآليها النفيسة القيم، استكثرتم من بواعث النّدم.

«و مهما سئمتم إطالتها، و استغزرتم مقالتها، فاعلموا أنّ تقوى اللّه فذلكة الحساب، و ضابط هذا الباب، كان اللّه خليفتى عليكم فى كلّ حال، فالدنيا مناخ ارتحال، و تأميل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء، دار البقاء، جعل اللّه من وراء خطته النجاة، و نفّق بضائعها المزجاة، بلطائفه المرتجاة، و السلام عليكم من حبيبكم المودع، و اللّه سبحانه يلئمه حيث شاء من شمل متصدّع، والدكم محمد بن عبد اللّه بن الخطيب، و رحمة اللّه و بركاته».

انتهت الوصية الفريدة فى حسنها، الغريبة فى فنّها، المبلغة نفوس الناظرين فيها فوق ظنّها، و لأجل ذلك كان شيخ شيوخنا المؤلف الكبير الفقيه الإمام قاضى القضاة العلامة سيدى الشيخ عبد الواحد ابن الشيخ الإمام عالم المالكية صاحب التآليف العديدة ك «المعيار المعرب، و الجامع المغرب عن فتاوى إفريقية و الأندلس و المغرب» - و هو فى ست مجلدات لكان كافيا، و له مصنّفات كثيرة غيره أكثرها فى مذهب مالك، و لم يؤلف فى المذهب مثلها.

[وصية من إنشاء ابن الجيان المرسى، كتبها عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه]

رجع إلى ما كنّا فيه:

أقول: لم تزل عادة الأكابر من العلماء و الملوك الوصيّة لأولادهم و عمالهم باقتفاء النهج الذى يرون فيه السلوك، و قد وقفت للفقيه الكاتب أبى عبد اللّه محمد بن الجيان المرسى الأندلسى رحمه اللّه تعالى على وصيّة ضمن رسالة كتبها عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه اشتملت على ما لا بدّ منه، فرأيت أن أذكرها هنا تتميما للفائدة، و نصّها بعد الصدر:

«من مجاهد الدين، و سيف أمير المؤمنين، عبد اللّه المتوكّل عليه أمير المسلمين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۳۸

محمد بن يوسف بن هود، أيّده اللّه تعالى بنصره! و أمدّه بتمكينه! و أعانه على ما ينويه من إحياء معالم دينه! إلى صنونا المبارك، و قسيمنا و أخينا المخصوص بتبجيلنا و تكريمنا، و حسامنا المنتضى المرتضى لإمضاء عزمنا و تصميمنا، الأمير الأعلى، الموقّر الأسمى، الميمون النقيبة المحمود السجيّة، الأحبّ النيّة، الأعزّ علينا، المتمّم بمساعيه الصالحة كلّ ما نوينا، أدام اللّه تعالى تظفيره و إسعاده! و أمضى فى الحقّ قواضبه و صعاده! و والى معونته و إنجاده! و تولى توفيقه و إرشاده!

«سلام طيب كريم زاك يخصّكم و رحمة اللّه تعالى و بركاته.

«أمّا بعد- فالحمد للّه الذى أوضح للحقّ سبيلا، و مدّ ظلّ رحمته على الخلق ظليلا، و جعل العدل بحفظ نظام الإسلام كفيلا، و نزّل الأحكام على قدر المصالح تنزيلا، و نصب معالم الهدى علما لمن اقتدى و دليلا، و ألهم إلى ما يرضاه عملا و معتقدا و قيلا، و

صلواته الطيبة، و بركاته الصّيّبة، على سيّد العالمين، و خاتم النبيّين، محمد رسوله الذى فضّله بخلّته و اصطفائه تفضيلا، و بعثه بالحنيفية السمحة فبيّنها تبيينا و فصّلها تفصيلا، و رتّبها كما أمره ربّه إباحة و ندبا و تحريما و تحليلا، حتى ثبتت سنّة اللّه فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا [سورة فاطر، الآية: ۴۳] و على آله و صحبه الذين فهموا ما جاءهم به عليه الصلاة و السلام نصّا و تأويلا، و أبقوا من سيرتهم الفاضلة، و أحكامهم العادلة، أساسا للمتّقين جليلا، و مآثر للمقتفين تسبح الأفهام و الأقلام فى بحارها سبحا طويلا، و أمضوا عزائمهم تنسخ بالحقّ باطلا- و بالهدى تضليلا، و رضوان اللّه تعالى يتوالى على خليفته، و حامل أمانته إلى خليقته، الذى كمل اللّه تعالى له موجبات الإمامة تكميلا، و أناله من هدى النبوّة أفضل ما كان للهداة منيلا، سيّدنا و مولانا الإمام المنتصر بالله تعالى أبى جعفر المنصور أمير المؤمنين المتبوّىء من ساحة الشرف و الجلالة محلّا شريفا جليلا، و المنتخب من بحبوحة بيت الرسالة الذى وجد الوحى عنده معرّسا و مقيلا، و الدعاء له من لدن العزيز القوى بنصر يأتى لإمداده بمدد الملائكة قبيلا، و فتح يولى الآمال من الظهور بغية و تأميلا-.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۳۹

«كتبناه إليكم كتب اللّه تعالى لكم عزما لا يزال عضبه صقيلا، و عزّا يروق بإظهار الحقّ غرّة و تحجيلا، و رأيا لقداح السداد و النجاح مجيلا، و سعدا يوصل إلى الإسعاد برضاه توصيلا، من حضرتنا بمرسية حرسها اللّه تعالى! و نحن نحمد إليكم اللّه الذى لا إله إلّا هو على فضله الذى أنا له جسيما جزيلا، و نتوكل عليه، توكّل من يلجأ من كلّ أحواله إليه، و كفى بالله وكيلا، و نستعينه على أمور المسلمين التى حملنا منها أمانة كبيرة و عبئا ثقيلا، و نقف بالضراعة بين يديه، طلبا لما يخلصنا لديه، عساه أن يجعل لرغبتنا قبولا و توسيلا، و نعوذ به من كلّ عمل لا يكون حاصله إلّا مآلا و بيلا، و عرضا من الدنيا قريبا و متاعا قليلا. إنّا- و اللّه المرشد- لنعلم أنّ هذا الأمر الذى قلّدنا اللّه تعالى منه ما قلّده، و أسنده إلينا من أمور خلقه فيما أسنده، قد ألزمنا من حقوقه الواجبة، و فروضه الراتبة، ما لا يستطاع إلينا من أمور خلقه فيما أسنده، قد ألزمنا من حقوقه الواجبة، و فروضه الراتبة، ما لا يستطاع إلّا بمعونته أداؤه، و لا يستتبّ إلّا بتوفيق اللّه تعالى انتهاؤه و ابتداؤه، فهو المشكور عزّ وجهه على نعمته، و المستعان على ما يدنى من رضاه و يقرب من رحمته، و أن كلّ امرئ بشأنه مشغول، و عن خويّصّة نفسه مسئول، و نحن بما استرعانا اللّه تعالى مشغولون، و عن الكبير و الصغير مسئولون، و علينا النصيحة للّه فى عباده و بلاده، و النظر لهم بمنتهى جدّ المجتهد و اجتهاده، و لا قوّة إلّا بالله عليه توكّلنا، و به إليه توسّلنا، فعيننا تسهر لتنام الرعيّة عيونهم، و تحركنا يتّصل ليحصل لهم سكونهم، و أملنا أن لا نقرّ فيهم بحول اللّه تعال ظلما و لا هضما، و لانخرم لهم فى إقامة حقوق اللّه ما استطعنا نظما، و أنّى ينصرف عن هذا القصد بعمله و نيّته، من يعرف أنّ اللّه جلّ جلاله لا يجوّز ظلم ظالم فى بريته، و لعلّ اللّه الذى حملنا ما حملنا، و استعملنا بمشيئته فيما استعملنا، أن يهب لنا توفيقه، و يسلك بنا إلى هذاه طريقه.

ألا و إن من ولّيناه أمرا من أمور المسلمين فهو مطلوب به، و موقوف عليه عند ربّه، فلينظر امرؤ فى جزئية ما نيط به و كليته، و ليراقب فيما لديه عالم خفيته و جليته، ألا- و كلكم راع و كلّ راع مسئول عن رعيّته، فمن حفظ اللّه حفظه اللّه فى نفسه و ماله، و قضى له بالسعادة فى حاله و مآله، و أنجاه يوم عرضه و سؤاله، و الخلق عيال اللّه فأحبّهم إليه أحبّهم لعياله. العدل العدل فبه قامت السماوات و الأرض، و بإقامته أقيمت السّنّة و الفرض اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى [سورة المائدة، الآية: ۸] و أقوى ما تشتدّ به أركان الدين و تقوى، أما إنّ الحقّ فى أن لا تتعدّى أساليب الشرع و قوانينه، و أن لا يتجاوز فى قضية من القضايا إفصاحه و تبيينه، و أن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۴۰

يجازى بحكمه المسيؤون و المحسنون، و من أحسن من اللّه حكما لقوم يوقنون. ألا و إنّا قد عثرنا لبعض قوّاد الجهادية و حكّامها، على أمور أنكرنا معرفاتها، و استقبحنا مستوصفاتها، و برئنا إلى اللّه تعالى من متغيّراتها و محرفاتها، و علمنا أنّ منهم أقواما لا يتورّعون عن الأموال و الدماء، و لا يحذرون فيما يأتون و يذرون جبّار الأرض و السماء، فأزلنا بحمد اللّه ذلك و نحوه، و عجلنا ابتغاء رضاه محقه و محوه، و انبعثنا لنظر جديد، و استئناف لإصلاح أحوال و تسديد، و تغليظ فى المحرمات و تشديد، و استقبلنا ما يوسع الأمور

ربطا و ضبطا، و يفيض على الأمّة بعون اللّه تعالى عدلا و قسطا، و تعين علينا فيما رأيناه إنفاذ الخطاب إلى كلّ من استكفيناه بالبلاد، و وليناه النظر عنّا فى مصالح العباد، بما يكون إن شاء اللّه تعالى الاعتماد على فصوله، و الاستناد إلى محصوله، و الاجتهاد بحسب فروعه و أصوله.

فأوّل ما نوصيكم به و أنفسنا تقوى اللّه فى كلّ حال، و مراقبة أوامره و نواهيه عند كل انتحاء و انتحال، و الوقوف عند حدود اللّه التى حدّها، و أرصدها بإزاء موجباته و عدّها، فإنه لا يتعدّاها إلّا من رام تعفّى رسمها و طمسه وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ [سورة الطلاق، الآية: ۱] و المحافظة على ما به تحفظ الشريعة، و الملاحظة لما يضمّ الرعايا من حوزة أولى الحياطة المنيعة، و المثابرة على ما تكف به أكفّ الاعتداء، و المبادرة إلى الاهتمام بالسلف الصالح و الاقتداء، و الطريقة المثلى، و آيات اللّه التى تتلى، و هداياته التى لأبصار البصائر تجلى، و خفض الجناح، و الأخذ بالرفق و الإنجاح، و توخّى الحقّ الذى هو أوضح انبلاجا من فلق الإصباح، و الحلم و الأناة، و المذاهب المستحسنات، و الأمور البيّنات.

و اللّه اللّه فى الدماء فإنها أوّل ما يقضى بين الناس يوم القيامة فيها، و لا سبيل لاستحلالها إلّا بعد ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل المسلم لأخيه، و قد قال مالك الأمر و الخلق وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِ [سورة الأنعام، الآية: ۱۵۱] فتثبتوا فيها فأمرها جليل، و تحريمها لا يدخله تحليل، و إياكم أن تجعلوا فيها لأحد من ولاة الجهاد حكما أو نظرا، أو تكلوا إليهم منها مستكثرا أو مستنزرا، فإنه إذا استبدّ بالقضاء فيها كلّ وال ذهبت هدرا، و استباحها الجاهل و الجائر أشرا و بطرا، و ربما كان فيهم من فى طباعه سبعية فيقتل بها الناس قتلا ذريعا، و يستسهل من ذلك بجوره صعبا و يرتكب بجهله شنيعا، و يذهل عن قول اللّه تعالى مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً [سورة المائدة، الآية: ۳۲] فأنّى تحل المسامحة فى هذا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۴۱

الشان، أو يحكم به كلّ إنسان فى نفوس أهل الإيمان؟ معاذ اللّه أن يكون هذا و نحن نعرفه، أو ينصرف إليه نظرنا فلا نزيله و لا نصرفه، فسدّوا هذا الباب سدّا، و صدّوا عنه من أمّه صدّا، و كفوا كلّ ما كان من الأيدى للدماء ممتدّا، و من وجب عليه القتل شرعا و تعيّن، و اتّضح موجب القصاص فيه و تبيّن، فليس لكم إلّا القاعدة الكبرى، تتحرّى فيها الأحكام عليه بمحضر القاضى و الشهود كما يجب أن يتحرّى، بعد أن يتثبّت فى نازلته و يستحل و يستبرا، فلا تحل القضية إلّا على بصيرة، و حقيقة مستنيرة، فقد يلوح فى اليوم ما خفى بالأمس، و يتعذّر بعد الإفادة إعادة النفس.

و ملاك الأمر فى انتقاء من يتصرّف، و تولية من لا يضيم و لا يتحيّف، فتخيروا للأنظار و الجهات، من ترتضى سيرته من الولاة، و لا تستعملوا أهل الفظاظة و الجهالة، و المصرّين على الراحة و البطالة، فإنهم إذا استرعوا أضاعوا، و إذا دعاهم شيطان الهوى أطاعوا، و إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا، و ميلوا باختياركم إلى المتّسمين بالصلاح، المرتسمين فى ديوان الكفاة النصاح، و أطيلوا مع ذلك التنقير عنهم و التنقيب، و لا تغفلوا عن التعهّد بالبحث البعيد منهم و القريب، و من عثرتم له على منكر من استباحة دم أو مال، و إضاعة للحقوق و إهمال، فخذوا على يده، و جازوه بفاسد مقصده، و أنزلوه بالمنزل الأقصى، و عاملوه معاملة من أوصى بتقوى اللّه فما استوصى.

و اصرفوا نظركم إلى القضاة فإنّ مدار الشريعة إنما هو على ما يستند إليهم، و يقصر من الأحكام عليهم، فإذا كانوا من أهل العلم و الديانة، و ذوى النزاهة و الصيانة، أمسكهم الورع بزمامه، و بلغ العهد بهم غاية تمامه، و إذا كانوا بضدّ هذا قبلوا الرشوة، و أوطؤوا العشوة، و أطالوا النشوة، و أحلّوا من الدماء و الفروج محرمها، و طمسوا من السنّة بالميل و المين معلمها، و حكموا بالهوادة و الهوى، و طووا من الحقّ ما انتشر و نشروا من الباطل ما انطوى، فانتقوهم فهم أولى بالانتقاء، و شرّ جاسرهم و جاهلهم أحقّ بالاتّقاء، و لا تقدموهم و لا غيرهم بالشفاعات و الوسائل، و لكن قدموهم بتورّعهم فى القضايا و علمهم بالمسائل.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۴۲

و ممّا نؤكّد عليهم فيه أمر الشهود؛ فإنّ شهادة الزور هى الداء العضال، و الظّلمة التى يتستّر بها الظّلمة و الضّلّال، و الحجّة الداحضة التى بها يحلّل الحرام و يحرم الحلال، و قد كثر فى هذا الزمان أهل الشهادة الفاسدة، و نفقت بهم سوق الأباطيل الكاسدة، فتقدّموا إلى القضاة وفّقهم اللّه تعالى أن لا يقبلوا إلّا مشهورا بزكاء و عدل، موفى حظّه من رجاحة و عقل، و من كان مغموزا عليه فى أحواله، منبوزا بالاسترابة فى شهادته و أقواله، فلتردّ شهادته على أدراجها، و ليبطل ما يكون من حجاجها.

و أكدوا عليهم عند تعارض العقود فى الترجيح، و النظر فى التعديل و التجريح، لتجرى أمور المسلمين على سنن المحق المستبين، و تبدو المعدلة مشرقة الغرّة مؤتلقة الجبين.

و ممّا نأمركم به أن تبحثوا عن العمال، و لا تولّوا منهم إلّا الحسن الطريقة المرضىّ الأعمال، و من لم يكن منهم جاريا على القوانين المرعيّة، ناصحا لبيت المال رفيقا بالرعيّة، و كان فى أمانته حائدا عن الجادة السويّة، قائلا كما قال قبله ابن اللتبية، فليعوّض منه غيره، و ليرفع عن الجانبين ضيره، فإنه ما كانت الخيانة قطّ فى شىء إلّا أهلكته، و لا وضعت فى إنسان طبيعة سوء إلّا ملكته.

و إنما هو مال اللّه تعالى الذى يرزق منه الحماة، و به تسدّ الثغور المهمات، فينبغى أن يختار له محتاط فى اقتضائه و قبضه، حافظ لدينه و مروءته فى كلّه و بعضه، فخذوا فى انتقاء هذه الأصناف المسمين، و اطلبوا بهذه الأوصاف المصرفين و المولين، و اجمعوا من الاجتهاد الحميد و القصد و الاعتماد الأثر و العين، و أنصفوا منهم إن تظلّم من أحدهم متظلّم، و اشفوا شكوى كلّ متشك و ألم كلّ متألّم، و اعلموا أنّ حرمة الأموال بحرمة الدماء لاحقة، و أنّ إحدى القضيتين للأخرى مساوية و لا حقة، و من أكبر ما ورد فى ذلك و أعظمه، قول رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه».

و ليكن الناس فى الحقّ سواء لا محاباة و لا مفاضلة، و لا محاورة فى تغليب قوى على ضعيف و لا محاولة، إنّ هذه أمتكم أمّة واحدة، و إنّ دلائل الشرع بمراد اللّه سبحانه و تعالى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۴۳

لشاهدة، و لا يؤخذن أحد بجريرة أحد، و لا يجنى ولد على والد و لا والد على ولد، فكتاب اللّه تعالى أولى بالاتباع و أحرى، لقول اللّه عزّ و جلّ وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى [سورة الأنعام، الآية: ۱۶۳ و غيرها] اللهمّ إلّا من آوى محدثا فإنه مأخوذ بما أجرم، و ملعون على لسان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. فارفعوا- أعاننا اللّه تعالى و إياكم!- للعدل بكلّ علم منارا، و اتّخذوا الرفق بالإمامة شعارا. فقد قال: قال رسول اللّه، صلى اللّه عليه و سلم: «إنّ الرّفق لا يكون فى شىء إلّا زانه، و لا ينزع من شىء إلّا شانه» و قد نصّ الكتاب و السّنّة على مواضع اللين و الاشتداد، و نبّها على منازع المقاربة و السّداد، فلا غضب لأمر إلّا بما غضب له اللّه عزّ و جلّ، و لا رضا به إلّا إذا استقرّ فيه رضا اللّه تعالى و حلّ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «الذى يجلد فوق ما أمر اللّه تعالى به يقول له اللّه عزّ و جلّ: عبدى، لم جلدت فوق ما أمرتك به؟ فيقول: ربّ غضبت لغضبك، فيقول: أكان ينبغى لغضبك أن يكون أشدّ من غضبى؟ ثم يؤتى بالمقصّر فيقول: عبدى، لم قصّرت عمّا أمرتك به؟ فيقول: ربّ رحمته، فيقول: أكان ينبغى لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتى؟» قال: فيأمر فيهما بشىء قد ذكره لم يحفظه الراوى، إلّا أنه قال: صيّروهما إلى النار، أعاذنا اللّه تعالى منها بفضله و رحمته! فليوقف بالقضايا حيث وقف بها الشرع، و يحفظ الأصل من هذه الوصايا و الفرع، و احتاطوا فى الرعيّة فإنه رأس المال، و الأمانة التى لا ينبغى أن يكون فيها شىء من الإهمال، و مع توفيقكم لما سطّرناه، فى هذا الكتاب و شرحناه، من أبواب الخير المسعد فى المآب و المآل، فاستوفوا ضروب الصالحات و استقصوها، و اعملوا أعمال البرّ و خصوصها، و اذكروا آلاء اللّه و قصوها، وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها [سورة إبراهيم، الآية: ۳۴] و اشتدّوا فى تغيير المنكرات كلّها، و احسموا أدواءها من أصلها، و رغّبوا الناس فى الطاعات و اندبوهم إليها، و وضّحوا لهم أعمالهم و حرّضوهم عليها، و انتهوا فى كل سعى ناجح، و رأى راجح، إلى أفضل ما ينتهى إليه المنتصحون، وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [سورة آل عمران،

الآية: ۱۰۴].

و خذوا بعمارة مساجد اللّه التى هى بيوت الأتقياء، و محلّ مناجاة ذى العظمة و الكبرياء، إنما يعمّر مساجد اللّه من آمن باللّه و اليوم الآخر و أقام الصلاة و آتى الزكاة و لم يخش إلّا اللّه فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين.

و مروهم بأن يعلّموا أولادهم كتاب اللّه تعالى فإنّ تعليمه للصغار يطفئ غضب الرّب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۴۴

و نعم الشفيع هو يوم القيامة، و المتوسّل فيما يتوّج القارئ و أباه تاج الكرامة، و أرشدوا للخير ما استطعتم، و اتّبعوا سبيله فهو أشرف ما اتبعتم، و اللّه ولى التوفيق و الإرشاد، و الملجئ بالهداية إلى طريق الفوز و السداد.

و هذه أوامرنا إليكم امتثلنا أمر اللّه تعالى فامتثلوها، و أحضروها فى خواطركم مع كلّ لحظة و مثلوها، و إنّا لما يكون منكم فيها لمستمعون، و لآثاركم فيما يوفيها لمتطلعون، و قد خرجنا لكم عن عهدة لزمتنا فى التذكير، و نهجنا لكم منها التقديم و التأخير، و اللّه تعالى يعلم أنّا إنما قصدنا ما نرجو الخلاص به يوم الحساب، و أردنا رضاه فيما أوردناه من هذا الحظر و الإيجاب، لنرعى حقّه سبحانه فيمن استرعانا، و نسعى فى صلاح الأمة عسى اللّه تعالى أن ينجح فيه مسعانا. اللهمّ عبدك يضرع إليك، و يخضع بين يديك، فى أن تلهمه إلى ما يجمل قصدا و معتمدا، و تهب له من لدنك رحمة و تهيىء له من أمره رشدا، اللهمّ منك المعونة على ما وليت، و لك الشكر على ما أوليت، فالمهدىّ من هديت، و الخير كلّه فيما قضيت. اللهمّ من أعاننا على مرضاتك فكن له معينا، و أورده من توفيقك عذبا معينا، إنك الولى النصير، العلى الكبير.

«و إذا وصلكم كتابنا هذا فقصّوه على الناس مفصّلا و مجملا، و أظهروا مضمونه لهم قولا و عملا، و اسلكوا بهم من مراشده سننا مستجملا، إن شاء اللّه تعالى، و اللّه سبحانه يديم علاكم، و يصل إعادتكم فى كلّ محمد و إبداكم، و يجزل حظوظكم من السعادة و أنصباكم، بمنّه و كرمه لا ربّ سواه، و السلام الأكرم الأزكى يخصّكم، و رحمه اللّه تعالى و بركاته.

و كتب فى الرابع و العشرين لجمادى الأولى سنة أربع و ثلاثين و ستمائة؛ انتهى.

[من شعر ابن الجيان المرسى]

و هذا ابن الجيان له الباع المديد فى النظم و النثر، و من شعره رحمه اللّه تعالى فى مرضه الذى توفى فيه، و هو آخر كلامه: [الكامل]

جهل الطبيب شكايتى، و شكايتى أنّ الطبيب هو الذى هو ممرضى

فإن ارتضى برئى تداركه فضله و إن ارتضى سقمى رضيت بما رضى

ما لى اعتراض فى الذى يقضى به لكن لرحمته جعلت تعرّضى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۴۵

و من نظمه رحمه اللّه تعالى ملغزا فى بطيخة: [الطويل]

و حبلى بأبناء لها قد تمخّضوا بأحشائها من بعد ما ولدوها

كسوها غداة الطلق بردا معصفرا على يقق أزرارها عقدوها

و لمّا رأوها قد تكامل حسنها و أبدر منها طالع حسدوها

فقدّوا قميص البدر بالبرق و اجتلوا أهلّتها من بعد ما فقدوها

و لو أنصفوا ما أنصفوا بدر تمّها و لا أعدموا الحسناء إذ وجدوها

و قال أيضا ملغزا فى الميل، و هو المرود: [المجتث]

مسترخص السوم غال عال له أىّ حظوه

ما جاوز الشبر قدرا لكنه ألف خطوه

و هذا استخدام ما به باس؛ لأنه اكتسى من الحسن خير لباس، و كم لهذا الكاتب من محاسن، ماؤها غير آسن.

[من ترجمة ابن الجيان عن «الإحاطة»]

و قد عرّف لسان الدين فى الإحاطة بابن الجيان، و أطال فى ترجمته، و نشير إلى بعض ذلك باختصار.

و هو محمد بن محمد بن أحمد، الأنصارى، من أهل مرسية، أبو عبد اللّه، ابن الجيان.

كان محدّثا راوية ضابطا، كاتبا بليغا شاعرا بارعا، رائق الخطّ، ديّنا فاضلا، خيرا ذكيا، استكتبه بعض أمراء الأندلس فكان يتبرّم من ذلك و يقلق منه، ثم خلّصه اللّه تعالى منه، و كان من أعاجيب الزمان فى إفراط القماءة حتى يظنّ رائيه الذى استدبره أنه طفل ابن ثمانية أعوام أو نحوها، متناسب الخلقة، لطيف الشمائل، و قورا. خرج من بلده حين تمكّن العدوّ من قبضته سنة ۶۴۰، فاستقرّ بأريولة إلى أن دعاه إلى سبتة الرئيس أبو على بن خلاص، فوفد عليه، فأجلّ وفادته، و أجزل إفادته، و حظى عنده حظوة تامّة. ثم توجّه إلى إفريقية، فاستقرّ ببجاية. و كانت بينه و بين كتّاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته. و روى ببلده و غيره عن أبى بكر بن خطاب، و أبى الحسن سهل بن مالك، و ابن قطرال، و أبى الربيع بن سالم، و أبى عيسى بن أبى السداد، و أبى على الشلوبين و غيرهم. و كان له فى الزهد و مدح النبى صلى اللّه عليه و سلم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۴۶

بدائع، و نظم فى المواعظ للمذكرين كثيرا؛ انتهى مختصرا، و إلّا فترجمته فى الإحاطة متّسعة، رحمه اللّه تعالى!.

و لمّا كتب له أبو المطرف بن عميرة برسالته الشهيرة التى أوّلها «تحييك الأقلام تحيّة كسرى، و تقف دون مداك حسرى»، و هى طويلة، أجابه بما نصّه: «ما هذه التحيّة الكسرويّة؟

و ما هذا الرأى و هذه الرويّة؟ أ تنكيت من الأقلام؟ أو تبكيت من الأعلام؟ أو كلا الأمرين توجّه القصد إليه، و هو الحقّ مصدّقا لما بين يديه؟ و إلّا فعهدى بالقلم يتسامى عن عكسه، و يترامى للغاية البعيدة بنفسه، فمتى لانت أنابيبه للعاجم، و دانت أعاريبه للأعاجم؟ وا عجبا لقد استنوق الجمل، و اختلف القول و العمل، لأمر ما جدع أنفه قصير، و ارتدّ على عقبه الأعمى أبو بصير، أمس أستسقى من سحابه فلا يسقينى، و أستشفى بأسمائه فلا يشفينى، و اليوم يحلّنى محلّ أنو شروان، و يشكو منى شكوى الزيدية من بنى مروان، و يزعم أنى أبطلت سحره ببئر ذروان، و يخفى فى نفسه ما اللّه مبديه، و يستجدى بالأثر ما عند مستجديه، فمن أين جاءت هذه الطريقة المتّبعة، و الشريعة المبتدعة؟ أ يظنّ أن معمّاه لا ينفكّ، و أنه لا ينجلى هذا الشكّ؟

هل ذلك منه إلّا إمحاض التّيه، و إحماض نفتّيه، و نشوة من الهزل، و نخوة من ذى ولاية آمن من العزل؟ تاللّه لو لا محلّه من القسم، و فضله فى تعليم النّسم، لأسلمته ما ينقطع به صلفه، و أودعته ما ينصدع به صدفه، و أشرت بطرف المشرفى و مجده، و أشرت إلى تعاليه عن اللعب بجدّه. و لكن هو القلم الأوّل، فقوله على أحسن الوجوه يتأوّل، و معدود فى تهذيبه، كلّ ما لسانه يهذى به، و ما أنسانى إلّا الشيطان أياديه أن أذكرها، و إنما أقول: [البسيط]

ليت التحيّة كانت لى فأشكرها

و لا عتب إلّا على الحاء، المبرّحة بالبرحاء، فهى التى أقامت قيامتى فى الأندية، و قامت علىّ قيام المتعدية، يتظلّم و هو عين الظالم، و يلين القول و تحته سمّ الأراقم و لعمر اليراعة و ما رضعت، و البراعة و ما صنعت، ما خامرنى هواها، و لا كلفت بها دون سواها، و لقد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۴۷

عرضت نفسها علىّ مرارا، فأعرضت عنها ازورارا، و دفعتها عنى بكلّ وجه، تارة بلطف و أخرى بنجه، و خفت منها السآمة، و قلت: انكحى أسامة، فرضيت منى بأبى جهل و سوء ملكته، و ابن أبى سفيان و صعلكته، و كانت أسرع من أمّ خارجة للخطبة، و أسمح من

سجاح فى استنجاح تلك الخطبة. و لقد كنت أخاف من انتقال الطباع فى عشرتها، و استثقال الاجتماع من عترتها، و أرى من الغبن و السفاه، أخذها و ترك بنات الأفواه و الشفاه، إذ هى أيسر مؤونة، و أكبر معونة، فغلطنى فيها أن كانت بمنزل تتوارى صونا عن الشمس، و من نسوة خفرات لا- ينطقن إلّا بالهمس، و وجدتها أطوع من البنان للكفّ، و العنان للكفّ، و المعنى للاسم، و المغنى للرسم، و الظلّ للشخص، و المستدلّ للنصّ. فما عرفت منها إلّا خيرا أرضاه، و حسبتها من الحافظات للغيب بما حفظ اللّه، فعجبت لها الآن كيف زلّت نعلها، و نشزت فنشرت ما استكتمها بعلها، و اضطربت فى رأيها اضطراب المختار بن أبى عبيد، و ضربت فى الأرض تسعى علىّ بكلّ مكر و كيد، و زعمت أنّ الجيم خدعها، و ألان أخدعها، و أكبرها أن سيبلّغ بخبرها الخابور، و أحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدى قيصر سابور. فقد جاءت إفكا وزورا، و كثرت من أمرها منزورا، و كانت كالقوس أرنّت و قد أصمت القنيص، و المراودة قالت ما جَزاءُ و هى التى قدّت القميص، و ربما يظنّ بها الصدق و ظنّ الغيب ترجيم، و يقال: لقد خفضت الحاء بالمجاورة لهذا الجيم، و تنتصر لها التى خيمت بين النرجسة و الريحانة، و ختمت السورة باسم جعلت ثانيه أكرم نبى على اللّه سبحانه، فإن امتعضت لهذه التكلمة، تلك التى سبقت بكلمتها بشارة الكلمة، فأنا ألوذ بعدلها، و أعوذ بفضلها، و أسألها أن تقضى قضاء مثلها، و تعمل بمقتضى فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِها [سورة النساء، الآية: ۳۵] على أن هذه التى قد أبدت مينها، و نسيت الفضل بينى و بينها، إن قال الحكمان: منها كان النشوز، عادت حرورية العجوز، و قالت: التحكيم فى دين اللّه تعالى لا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۴۸

يجوز، فعند ذلك يحصحص الحق، و يعلم من الأولى بالحكم و الأحق، و يصيبها ما أصاب أروى، من دعوة سعدية حين الدعوى، و يا ويحها أرادت أن تجنى علىّ فجنت لى، و أناخت لى مركب السعادة و ما ابتغت إلا ختلى، فأتى شرها بالخير، و جاء النفع من طريق ذلك الضير، أ تراها علمت بما يثيره اعوجاجها، و ينجلى عنه عجاجها، فقد أفادت عظيم الفوائد، و نظيم الفرائد، و نفس الفخر، و نفيس الدر، و هى لا تشكر أن كانت من الأسباب، و لا تذكر إلا يوم الملاحاة و السباب، و إنما يستوجب الشكر جسيما، و الثناء الذى يتضوع نسيما، الذى شرف إذ أهدى أشرف السحاءات، و عرف بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة فى الحاءات، فإنه و إن ألم. بالفكاهة، بما أمل من البداهة، و سمى باسم السابق السكيت، و كان من أمر مداعبته كيت و كيت، و تلاعب فى الصفات تلاعب الصفاح و الصّبا بالبانة، و الصّبا بالعاشق ذى اللّبانة، فقد أغرب بفنونه، و أغرى القلوب بفتونه، و نفث بخفية الأطراف، و عبث من الكلام المشقّق بالأطراف، و علم كيف يمحض البيان، و يخلص العقيان، فمن الحق أن أشكره على أياديه البيض، و إن أخذ لفظة من معناه فى طرف النقيض، تاللّه أيها الإمام الأكبر، و الغمام المستمطر، و الحبر الذى يشفى سائله، و البحر الذى لا يرى ساحله، ما أنا المراد بهذا المسلك، و من أين حصل ذلك النور لهذا الحلك؟ و صحّ أن يقاس بين الحدّاد و الملك؟ إنه لتواضع الأعزّة، و ما يكون عند الكرام من الهزّة، و تحريض الشيخ للتلميذ، و ترخيص فى إجازة الوضوء بالنبيذ، لو حضر الذى قضى له بجانب الغربىّ أمر البلاغة، و ارتضى ما له فى هذه الصناعة، من حسن السّبك لحليها و الصياغة، و أطاعته فيما أطلعته طاعة القوافى الحسان، و اتبعته فيما جمعته لكن بغير إحسان، لأذعن كما أذعنت، و ظعن عن محلّ الإجادة كما ظعنت، و أنّى يضاهى الفرات بالنغبة، و يباهى بالفلوس من أوتى من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة، و أى حظّ للكلالة بالنشب، و قد اتّصل للورثة عمود النّسب، هيهات و اللّه المطلب، و شتّان الدّرّ و المخشلب، و قد سيم الغلب، و رجع إلى قيادة السّلب. و إن كنّا ممّن تقدّم لشدّة الظمإ إلى المنهل، و كمن أقدم إلى عين تبوك بعد النّهى للعلل و النّهل، فقد ظهرت بعد ذلك المعجزة عيانا، و ملأ ما هنالك جيانا، و ما تعرّضنا بإساءة الأدب و اللّوم، و لكن علمنا أنّ آخر الشّرب ساقى القوم، و إن أسهبنا فما نلنا رتبة ذلك الإيجاز، و إن أعرقنا فهوانا فى الحجاز، فلكم قصيرات الحجال، و لنا قصيرات الخطا فى هذا المجال، و إكثارنا فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۴۹

قلّة، و جارنا من الفقر فى فقر و ذلّة. و من لنا بواحدة يشرق ضياؤها، و يخفى النجوم خجلها منها و حياؤها؟ إن لم تطل فلأنها للفروع

كالأصل، و فى الجموع كليلة الوصل، فلو سطع نورها الزاهر، و نورها الذى تطيب منه الأنوار الأزاهر، لسجدت النيران ليوسف ذلك الجمال، و وجدت نفحات ريّاها فى أعطاف الجنوب و الشمال، و أسرعت نحوها النفوس إسراع الحجيج يوم النّفر، و سار خبرها و سرى فصار حديث المقيمين و السّفر، و ما ضرّ تلك الساخرة فى تجلّيها، الساحرة بتجنّيها، أن كانت بمنزلة ربيبتها بل تربها، هذه التى سبقتنى لما سقتنى بسيبها، و وجدت ريحها لما فصلت من مصر عيرها، و حين وصلت لم يدلنى على ساريها إلّا عبيرها، و كم رامت أن تستتر عنّى بليل حبرها فى هذه المغانى، فأغرانى بهاؤها و كلّ مغرم مغرى ببياض صبح الألفاظ و المعانى، و هل كان ينفعها، تلفّحها بمرطها و تلفّعها؟ إذ نادتها المودّة، قد عرفناك يا سودة، فأقبلت على شمّ نشرها و عرفها، و لثم سطرها و حرفها، و قريتها الثناء الحافل، و قرأتها فزيّنت بها المحافل، و رمت أمر الجواب، فعزّنى فى الخطاب، لكن رسمت هذه الرقعة التى هى لديكم بعجزى واشية، و إليكم منّى على استحياء ماشية، و إن رقّ وجهها فما رقّت لها حاشية، فمنوا بقبولها على عللها، و انقعوا بماء سماحتكم حرّ غللها، فإنها وافدة من استقرّ قلبه عندكم و ثوى، و أقرّ بأنه يلقط فى هذه الصناعة ما يلقى للمساكين من النّوى. بقيتم سيدى للفضل و الإغضاء، و دمتم غرّة فى جبين السّمحة البيضاء، و اقتضيتم السعادة المتّصلة مدّة الاقتضاء، بيمن اللّه سبحانه»؛ انتهى.

و من نثر ابن الجيان رحمه اللّه تعالى فى شرف المصطفى صلى اللّه عليه و سلم: «لمحمد خير الأنام، و لبنة التمام، عليه أفضل الصلاة و السلام، خيرة المفاخر، يتضاءل لعظمتها المفاخر، و المعالى، يتصاغر لعزّتها المعالى، و المكارم، يعجز عن مساجلتها المكارم، و المناقب، لا تضاهى سناها النجوم الثواقب، و المحامد، لا يبلغ مداها الحامد، و المماجد، لا يتعاطى رتبهنّ المماجد، و المناسب، سمت بجلالهن المناصب، و العناصر، طيّبها الشرف المتناصر، و الفضائل، تفجّرت فى أرجائهنّ الفواضل، و الشمائل، تأرّجت بعرفهنّ الجنائب و الشمائل، فلا مجارى لسيد البشر، الآتى بالنذارات و البشر، فيما حباه اللّه تعالى به و خصّه، و قصّه علينا من خلقه العظيم و نصّه، عند رسم مدائحه يوجد المعوّل، و فى الثناء عليه يستصر الكلام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۵۰

المطوّل، هو الآخر فى ديوان الرسالة و الأوّل، و له فى الفضيلة، و قبول الوسيلة، النصّ الذى لا يؤوّل، نوره صدع الظّلم، و ظهوره رفع لدين اللّه تعالى العلم، بدأه الوحى و هو بحراء، و أسرّ إليه سرّ تقدم الإسراء، حتى إذا نصب له المعراج، و توقد فى منارة السماء ذاك السراج، ناجى الحبيب حبيبه، و جلا عن وجه الجلاء جلابيبه، فتلقّى ما تلقّى، لما علا و ترقّى، ثم صدر عن حضرة القدس، و جبين هدايته يبهر سنا الشمس، فشقّ لمعجزاته القمر، و نهى بأمر ربّه و أمر، و أزال الجهالة، و أزاح الضلالة، و كسر منصوب الأوثان، و نصر من قال واحد أحد على من قال ثالث ثلاثة أو ثان، و بنى الملّة على قواعدها الخمس، و أحيا دين إبراهيم و كان رفاتا بالرمس، فرفلت الحنيفية البيضاء فى بردة الجدّة، و بيضت بضياء غرّتها أوجه الأيام المسودّة، و انتشرت الرحمة بنبيّها، و مطرت المرحمة من سحب حيّها، و افتنت الآيات الباقيات البينات فى مساقها و اتّساقها، و إشراقها فى آفاقها و ائتلافها. و شهد الحجر و الشجر، و الماء من بين البنان يتفجّر، و الظبية و الضب، و الجذع المشتاق الصّبّ، و الشاة و البعير، و الليث إذا هدأ أو سمع منه الزئير، و الحى و الجماد، و القصعة و الزاد، بأنّ محمدا رسول الملك الحقّ، و المبلغ عنه بواسطة الملك إلى الخلق، و صاحب اللواء المعقود، و المقام المحمود، و الحوض المورود، و القول المسموع، و الذكر المرفوع، و الصدر المشروح، و الفخر الباهر الوضوح، و الأنوار المتناقلة، و الآثار المتداولة، و النبوّة التى عهدها تقادم، من قبل خلق آدم، و المزية المعروف قدرها الجليل، المقبول فيها ما دعا به الخليل، و الرتبة التى استشرف إليها الكليم، حتى قال له وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ [سورة الأعراف، الآية: ۱۴۴] ربّه الكريم، و البشارة التى كان بها يصبح حين يسيح، روح اللّه تعالى و كلمته عيسى المسيح، و الشفاعة التى يرجوها الرسل و الأمم، و يقرع بها الباب المرتج المبهم، فما لنبيّنا المختار، من علوّ المقدار، و اصطفاء الجبّار، و الاختصاص بالأثرة، و الاستخلاص للحضرة، ذلك الفضل من اللّه و كفى باللّه عليما.

و حسب هذا الوجود من الفضل الربانى و الجود الذى لم يزل عظيما، أن بعث اللّه تعالى فيه رسولا رؤوفا بالمؤمنين رحيما، عزيزا على ربّه الكريم كريما، بسرّه سجدت الملائكة لآدم تعظيما، و بذكره ينظم سلك المادح لحضرته العليّة تنظيما، صلّى اللّه عليه و على آله

الطيبين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۵۱

الطاهرين و سلّم تسليما، صلاة تتّصل ما دار كأس محبته على محبّيه فكان مزاجه تسنيما، و سلاما ينزل دار دارين فيرسل ببضائعها إلى روضة الرضا نسيما».

و من خطبه المرتجلة قوله سامحه اللّه تعالى:

«الحمد للّه الذى حمده من نعمائه، و شكره على آلائه من آلائه، أحمده حمد عارف بحقّ سنائه، واقف عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه، عاكف على رسم الإقرار بالافتقار إليه و الاستغناء به فى كل آنائه.

«و أشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له المتوحّد بعظمته و كبريائه، المتقدّس عمّا يقوله الملحدون فى أسمائه.

«و أصلّى على سيد ولد آدم و نخبة أنبيائه، محمد المفضل على العالمين باجتبائه و اصطفائه، المنتقى من صميم الصميم و صريح الصريح بجملة آبائه، المرتضى الأمانة و المكانة بإبلاغ أمر اللّه و أدائه، أرسله اللّه كافة للناس عموما لا يتخصّص باستثنائه، و فضّله بالآيات الباهرة و المعجزات الظاهرة على أمثاله من المرسلين و نظرائه، و رقّاه إلى الدرجات العلا- و أنهاه إلى سدرة المنتهى ليلة إسرائه، و حباه بالخصائص التى لا يضاهى بها بهاء كماله و كمال بهائه، و ردّاه رداء العصمة فكانت عناية اللّه تكنفه عن يمينه و شماله و أمامه و ورائه، و وفاه من حظوظ البأس و الندى ما شهد بمزيته على الليث و الغيث فى إبائه و انهمائه، صلّى اللّه عليه و على آله مصابيح الهدى و نجوم سمائه، صلاة تتّصل ما سمح البدر بائتلاق أنواره و القطر باندقاق أنوائه، و سلّم تسليما».

[من نثر ابن الجيان رسالة كتب بها إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم]

و من نثره رحمه اللّه تعالى رسالة كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى اللّه عليه و سلم، و هى:

«السلام العميم الكريم، و الرحمة التى لا تبرح و لا تريم، و البركة التى أوّلها الصلاة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۵۲

و آخرها التسليم، على حضرة الرسالة العامة الدعوة و النبوّة، المؤيّدة بالعصمة و الأيد و القوة، و مثابة البرّ و التقوى فهى لقلوب الطيبين صفا و مروة، مقام سيد العالمين طرّا، و هاديهم عبدا و حرّا، و منقذهم من أشراك الهلاك و قد طالما ألفوا العيش ضنكا و الدهر مرّا، و مقرّ الأنوار المحمدية، و البركات السرمدية، أمتع اللّه تعالى الإسلام و المسلمين بحراسة أضوائها، و كلاءة ظلالها العلية و أفيائها، و أقرّ عين عبدها بلثم ثراها، و الانخراط فى سلك من يراها.

«السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا أبا القاسم، سلام من يمدّ إليك يد الغريق، و يرجو الإنقاذ ببركتك من نكد المضيق، و يتقطّع أسفا و يتنفّس صعدا كلّما ازدلف إليك فريق، و عمرت نحوك طريق، و لا يفتر صلاة عليك له لسان و لا يجف ريق.

كتبته، يا رسول اللّه، و قد رحل المجدّون و أقمت، و استقام المستعدّون و ما استقمت، و بينى و بين لثم ثراك النبوى، و لمح سناك المحمدى، مفاوز لا- يفوز بقطعها إلّا من طهر دنس ثوبه، بماء توبه، و ستر وصم عيبه، بظهر غيبه، فكلّما رمت المتاب رددت، و كلّما يمّمت الباب صددت، و قد أمرنا اللّه تعالى بالمجيء إليك، و الوفادة عليك، و من لى بذلك يا رسول اللّه و الآثام تنئى و تبعد، و الأيام لا تدنى و لا تسعد، و بين جنبى أشواق لا يزال يهزّنى منها المقيم المقعد، و لئن كنت ممّن خلّفته عيوبه، و أوبقته ذنوبه، و لم يرض للوفادة و هو مدنس، على ذلك المقام و هو المطهر المقدّس، فعندى من صدّق محبّتك، و حبّ صحبتك، و الاعتلاق بذمّتك، ما يقدمنى و إن كنت مبطئا، و يقربنى و إن كنت مخطئا. فاشفع لى يا رسول اللّه فى زيارتك فهى أفضل المنى، و توسّل لى إلى مولى بيّن فضيلتك، و تقبّل وسيلتك، فى النقلة من هناك إلى هنا، و اقبلنى و إن كنت زائفا، و أقبل علىّ و إن أصبحت إلى الإثم

متجانفا، فأنت عماد أمّتك جميعا و أشتاتا، و شفيعهم أحياء و أمواتا. و من نأت به الدار، و قعدت بعزمه الأقدار، ثم زار خطّه و لفظه، فقد عظم نصيبه من الخير و حظّه، و إن لم أكن سابقا فعسى أن أكون مصلّيا، و إن لم أعدّ مقبلا فلعلى أعدّ مولّيا، و وحقك و هو الحقّ الأكيد، و القسم الذى يبلغ به المقسم ما يريد، ما وخدت إليك ركاب، إلّا و للقلب أثرها التهاب، و للدمع بعدها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۵۳

سحّ و انسكاب، و يا ليتنى ممّن يزورك معها و لو على الوجنتين، و يحييك بين ركبها و لو على المقلتين، و ما الغنى دونك إلّا بؤس و إقلال، و لا الدنيا و إن طالت إلّا سجون و أغلال، و اللّه تعالى يمنّ على كتابى بالوصول و القبول، و علىّ بلحاقى ببركتك و لو بعد طول. ثم السلام و رحمة اللّه تعالى و بركاته عليك يا سيّد الخلق، و أقربهم من الحقّ، و لمولاه بإحراز قصب السّبق، و من طهّر اللّه تعالى مثواه و قدّسه، و بناه على التقوى و الرضوان و أسسه، و آتاه من كلّ فضل نبوى أعلاه و أسناه و أنفسه، و على ضجيعيك السابقين لمهاجريك و أنصارك، الفائزين بصحبتك العليّة و جوارك، و على أهل بيتك المطهّرين أوائل و أواخر، الشهيرين مناقب و مفاخر، و صحابتك الذين عزروك و وقّروك، و آووك و نصروك، و قدّموك على الأنفس و الأموال و الأهل و آثروك، و أقرئك سلاما تنال بركته من مضى من أمّتك و غبر، و يخصّ بفضل اللّه تعالى و جاهك من كتب و سطر، إن شاء اللّه تعالى. كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى، اللائذ بحرمك الأمنع الأوقى، المتأخّر جسما المتقدّم نطقا، فلان، و السلام عليك يا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم تسليما كثيرا و رحمة اللّه تعالى و بركاته».

و له من خطبة طويلة: «و نشهد أنّ محمدا عبد اللّه و رسوله الصفوة المجتبى، الكريم أمّا طاهرة و أبا، المختار من الطيبين مباركا طيّبا، المصطفى نبيّا إذ كان آدم بين الماء و الطين متقلّبا، المتقدّم بمقام تأخّر عنه مقام الملائكة المقربين، انتخبه اللّه و انتجبه، و أظهره على غيب عن غيره حجبه، و شرفه فى الملإ الأعلى و أعلى رتبه، و خطّ اسمه على العرش سطرا و كتبه، فهو وسيلة النبيين، و المرشّح أولا لإمامة المرسلين، بعثه ربّه لختم الرسالة، و نعته بنعت الشرف و الجلالة، و أيّده بالحجّة البالغة و الدلالة، و جعله نورا صادعا لظلام الضلالة، و أثنى فى ذكره الحكيم، على خلقه العظيم، فما عسى أن يبلغ بعد ثناء المثنين، بفضله التصريح و إليه الإشارة، و به سبقت من إبراهيم الدعوة و من عيسى البشارة، و عليه راقت من صفة الرؤوف الرحيم الحلية و الشارة، و هو المخيّر بين الملك و العبودية فاختار العبودية بعد الاستخارة و الاستشارة، فبتواضعه حلّ بمكان عند ذى العرش مكين أسرى به ربّه إليه، و وفده أكرم وفادة عليه، و أدناه قاب قوسين لديه، و وضع إمامة الرسالة العظمى فى يديه، و قال له فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ [سورة الحجر، الآية: ۹۴] فصدع بأمر اللّه صدعا، و أوتى من المثانى سبعا، و من الآيات البيّنات آلافا و إن كان أوتى موسى تسعا. فما مشى الشجر إليه يجرّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۵۴

عروقه إلّا كرجوع العصا حيّة تسعى، و ما تفجّر الحجر بالماء بأعجب من بنانه نبعت بالعذب الفرات نبعا، فارتوى منه خمسمائة و قد كان يكفى آلافا فكيف المئين، و كم له عليه الصلاة و السلام من معجزة تبهر، و آية هى من أختها أكبر، رجعت له الشمس و انشقّ القمر، و كلّمه الضبّ و أخبر به الذئب و سلّم عليه الشجر و الحجر، و كان للجذع عند فراقه إعلانا بوجده و اشتياقه أنّة و حنين، أعطى من المعجزات ما مثله غبط عليه البشر، و كانت له فى الغار آيات بيّنات خفى بها على القوم الأثر، و ارتج لمولده إيوان كسرى و خمدت نار فارس و كان ضرمها يتسعّر، و أتته أخبار السماء فما عمى فى الأرض الخبر، فحدث عن الغيوب و ما هو على الغيب بضنين، و جعل له القرآن معجزة تتلى، يبلى الزمان و هى لا تبلى، و تعلو كلماتها على الكلم و لا تعلى، و تجلى آياتها فى عين آيات الشمس حين تجلى، فيتوارى منها بالحجاب حاجب و جبين، بهر إعجاز التنزيل العلى، و ظهر به صدق النبى العربى، فكم نادى لسان عزّه فى النّدىّ، يا أهل البديهة من الفصحاء و الرّوىّ: قل فاتوا بسورة مثله فلم يكونوا لها مستطيعين. لقد خصّ نبيّنا عليه السلام بالآيات الكبر، و الدلالات الواضحة الغرر، و المقامات السامية المظهر، و الكرامات المخلّدة للمفخر، فهو سيّد الملإ النبوى و المعشر، و حامل لواء الحمد فى المحشر، و صاحب المقام المحمود و الكوثر، و الشفيع المشفّع يوم يقوم الناس لربّ العالمين، صلّى اللّه عليه و على آله

الطيبين، و ذرّيّته المباركين، و صحابته الأكرمين، و أزواجه أمهات المؤمنين، صلاة موصولة تتردّد إلى يوم الدين، و تصعد إلى السّماوات العلا فتكون كتابا فى علّيّين، و سلّم تسليما».

و من نثره فى خطبة قوله: «أيها الناس، رحمكم اللّه تعالى! أصيخوا أسماعكم لمواعظ الأيام، و اعتبروا بأحاديثها اعتبار أولى النّهى و الأحلام، و أحضروا لفهم موادّها أوعى القلوب و أصحّ الأفهام، و انظروا آثارها بأعين المستيقظين و لا تنظروا بأعين النّوّام، و لا تخد عنكم هذه الدنيا الدنيّة بتهاويل الأباطيل و أضغاث الأحلام، و لا تنسينكم خدعها المموّهة و خيالاتها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۵۵

الممثلة ما خلا من مقالاتها فى الأنام، فهى دار انتياب النوائب، و مصاب المصائب، و حدوث الحوادث و إلمام الآلام، دار صفوها أكدار، و سلمها حرب تدار، و أمنها خوف و حذار، و نظمها تفرق و انتشار، و اتّصالها انقطاع و انصرام، و وجودها فناء و انعدام، و بناؤها تضعضع و انهدام، ينادى كلّ يوم بناديها منادى الحمام، فلا قرار بهذه الغرّارة و لا مقام، و لا بقاء لساكنيها و لا دوام. فبئست الدار دارا لا تدارى، و لا تقيل لعائرها عثارا، و لا تقبل لمعتذر اعتذارا، و لا تقى من جورها حليفا و لا جارا، و ليس لها من عهد و لا ذمام، كم فتكت بقوم غافلين عنها نيام، كم نازلت بنوازلها من قباب و خيام، كم بدلت من سلامة بداء و من صحة بسقام، كم رمت أغراض القلوب بمصميات السّهام، كم جردت فى البرايا للمنايا من حسام، كم بدّدت بأكفّ النائبات الناهبات من عطايا جسام، كم أبادت طوارق حوادثها من شيخ و كهل و غلام. لا تبقى على أحد، و لا ترثى لوالد و لا ولد، و لا تخلد سرورا فى خلد، و لا يمتدّ فيها لآمل أمد، بينا يقال قد وجد، إذ قيل قد فقد، بعدا لها قد طبعت على نكد و كمد، فالفرح فيها ترح، و الحبرة عبرة، و الضحك و الابتسام، بكاء و أدمع سجام. تفرق الأحبة بعد اجتماعهم، و تسكن الوحشة مؤنس رباعهم، و تستبيح بالحمام حمى الأعزّة فلا سبيل إلى امتناعهم، و تستحثّ ركائب الخلائق على اختلاف أنواعهم، إلى مصيرهم إلى اللّه عزّ و جلّ و ارتجاعهم، فيسيرون طوع الزمام، و يلقون مقادة التذلّل و الاستسلام، حتى يلجؤوا بالرّغام، و ينزلوا بطون الرّجام، و يحلّوا الوهد بعد المقام السام، فلا ناج من خطبها العظيم و لا سليم، يتساوى فى حكم المنيّة الأغرّ و البهيم، و الأعزّ و المضيم. و لو أنه ينجو من ذلك مجدّ صميم، و جدّ كريم، و حظّ عظيم، و مضاء و عزيم، و مزية و تقديم، و حديث فى الفضل و قديم، و شرف لسمك السّماوات مسام، و علا على ساق العرش المجيد ذو ارتسام، لنجا حبيب الملك العلام، و سيّد السادات الأعلام، و صفوة الصفوة الكرام، و خاتم الأنبياء و لبنة التمام، و صباح الهدى و مصباح الظلام، و الأبيض المستسقى به غيث الغمام، ثمال الأرامل و عصمة الأيتام، عليه أفضل الصلاة و السلام، لكن مع قدره الجليل و فضله الجلى، أقدم الموت على جانبه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۵۶

العلى، و تقدم ملك الموت لقبض روحه القدسى، و تغيب فى الثرى جمال ذلك الوجه البهى، و تغيض ماء السماء و الندى، لملك السماحة النبويّة و الندى، و أصيب المسلمون و أعظم بها مصيبة بنبيّهم العربى، الهاشمى القرشى، فيا له للإسلام، من مصاب أسلمنا للحزن أىّ إسلام، و أسال مياه الدموع عن احتراق للضلوع و اضطرام، و أرانا أنّ الأسى فى رزية لخير البرية واجب، و أنّ التأسى حرام. و هل يسوغ الصبر الجميل، فى فقيد بكته الملائكة و جبريل، و كثر له فى السّماوات السبع النحيب و العويل؟ انقطع به عن الأرض الوحى الحكيم و التنزيل، و عظمت الرؤية به أن يؤدى حقيقتها الوصف و التمثيل، غداة أقفر منه الرّبع المحيل، و أوحش من أنسه السفح و النخيل، و كان من تلك الروح الطاهرة الوداع و الرحيل، و قامت البتول تندب أباها بقلب قريح و جفن دام، و تنادت الأمّة: مات الرسول، ففى كل بيت بكاء و انتحاب و نوح و التزام، و حارت الألباب و العقول فلا صبر هنالك لقد زلّت عن الصبر الأقدام.

و لمّا نعيت إليه صلى اللّه عليه و سلم نفسه، و آن أن تأفل من تلك المطالع شمسه، آذن أمّته بالفراق و أعلمهم، و ناشدهم فى أخذ القصاص و كلّمهم، مخافة أن يمضى إلى الملك الحقّ، و عليه تباعة لأحد من الخلق، و حاشاه عليه الصلاة و السلام، من صفات جائر للأمّة ظلّام، و لكنه تعريف من نبىّ الرحمة بما يجب و إعلام، ثم استمرّ به صلوات اللّه و سلامه عليه و تمادى، و زاد به السقم المنتاب

و تهادى، حتى واراه ملحده، و خلا منه ربعه و مسجده، فعمّ الحزن و الاكتئاب، و توارى النور فأظلم الجناب، و عاد الأصحاب، و كأنما دموعهم السحاب، فقالت فاطمة و قد رابها من دفن أبيها الكريم ما راب: أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم التراب؟

فكأنّ كلامها للقلوب المفجعة كلام، و للعيون المفجّرة بالدموع انسفاح و انسجام. و فى مثل هذا الشهر شهر ربيع، المشيد بذكر الأشجان المذيع، كانت وفاة هذا النبىّ الهادى الشفيع، و انتقاله إلى الملإ الأعلى و الرفيق الرفيع، حين ناداه ربّه إلى قربه، فلبّى بشوق قلبه تلبية المهطع المطيع، و حنّ إلى حضرة القدس فانتظم حين حلّ بها ما كان من شمله الصّديع، و انتظر من صنع الربّ جميل الصنيع، و إنجاز وعد الشفيع فى الجميع، إذا أعطى لواء الحمد و قام محمود المقام، و وقف على الحوض ينادى: هلمّوا إلىّ أروكم من العطش و الأوام. اللهمّ اسقنا من حوضه المورود، و شرّفنا بلوائه المعقود، و شفّعه فينا فى اليوم المشهود، و ارحمنا به إذا صرنا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۵۷

تحت أطباق اللّحود، اللهمّ اجعله لنا تعزية من كلّ مفقود، و أوجد لنا من بركاته أشرف موجود، و جازه عنّا بما أنت أهله من فضل و إحسان وجود، و انفعنا بمحبّته و محبّة آله و صحابته الرّكّع السّجود، و اجعلنا معهم فى الجنّة دار الخلود و دار السلام. و اخصصهم عنّا بأكرم تحيّة و أفضل سلام، و صلّ عليهم صلاة تستلم أركان رضوانك أىّ استلام، و تنظم له كرامات إحسانك أىّ انتظام. فصلوات اللّه عليه، و أطيب تحيّاته و رحمته تتوالى لديه، و أجزل بركاته، ما تجدّد فى ربيع ذكر وفاته، و تمهد كهف القبول لطالبى فضله و عفاته، و تعزى به كلّ مصاب فى مصيباته، و ترجّى شفاعته كلّ محبّ فيه متبع لهداياته، و توفّرت للمصلّين عليه و المسلمين على جنباته، حظوظ من برّ اللّه تعالى و أقسام إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً [سورة الأحزاب، الآية: ۵۶] اللهمّ صلّ عليه من نبىّ لم يزل بالمؤمنين رؤوفا رحيما، اللهمّ صلّ عليه من نبىّ أوجبت حبّه و عظّمته تعظيما، اللهمّ صلّ عليه من نبى صلّيت عليه تجلّة و تكريما، و أمرتنا بالصلاة عليه إرشادا و تعليما، فلنا بأمرك اقتداء و ائتمام، و بحمدك على ما هديتنا افتتاح و اختتام، و كلامك يا ربّنا أشرف الكلام، و لوجهك وحده البقاء و الدوام كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (۲۶) وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ [سورة الرحمن، الآية: ۲۶- ۲۷] هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ [سورة غافر، الآية: ۶۵] انتهى.

و ترجمة ابن الجيان واسعة جدّا، و كلامه فى النبويّات نظما و نثرا جليل، رحمه اللّه تعالى!.

و قال لسان الدين فى «الإحاطة» بعد أن عرّف به و أورد له الرسالة ما صورته: و محاسنه عديدة، و آماله بعيدة، ثم قال: إنه انتقل إلى بجاية فتوفى بها فى عشر الخمسين و ستمائة؛ انتهى.

[ترجمة ابن الجيان عن «عنوان الدراية»]

و قال صاحب «عنوان الدراية» فى حق ابن الجيّان المذكور ما ملخصه: الفقيه الخطيب، الكاتب البارع الأديب، أبو عبد اللّه بن الجيان، من أهل الرواية و الدراية و الحفظ و الإتقان، و جودة الخطّ و حسن الضبط، و هو فى الكتابة من نظراء الفاضل أبى المطرف بن عميرة المخزومى، و كثيرا ما كانا يتراسلان بما يعجز عنه الكثير من الفصحاء، و لا يصل إليه إلّا القليل من البلغاء، و نثره و نظمه كلّه حسن، و نظمه غزير، و أدبه كثير، و من ذلك قصيدته الدالية التى مطلعها: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۵۸

يا حادى الركب قف بالله يا حادى و ارحم صبابة ذى نأى و إبعاد

و له أيضا: [مجزوء الكامل]

ترك النزاهة عندنا أدّى إلى وصف النزاهه

ما ذاك إلّا أنها تدعو الوقور إلى الفكاهه

و إذا امرؤ نبذ الوقا ر فقد تلبّس بالسفاهه

[من بديع نظم ابن الجيان تخميس فى مديح النبى صلى اللّه عليه و سلم]

و من بديع نظم ابن الجيان رحمه اللّه تعالى هذا التخميس فى مدح سيد الوجود، صلى اللّه عليه و سلم، و شرف و كرم: [الكامل]

اللّه زاد محمدا تكريما و حباه فضلا من لدنه عظيما

و اختصّه فى المرسلين كريما ذا رأفة بالمؤمنين رحيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

جلّت معانى الهاشمى المرسل و تجلّت الأنوار منه لمجتلى

و سما به قدر الفخار المعتلى فاحتلّ فى أفق السماء مقيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

حاز المحامد و الممادح أحمد و زكت مناسبه و طاب المحتد

و تأثّلت علياؤه و السؤدد مجدا صميما حادثا و قديما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

شمس الهداية، بدرها الملتاح قطب الجلالة، نورها الوضّاح

غيث السماحة للندى يرتاح يروى بكوثره الظماء الهيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

تاج النبوّة، خاتم الأنبياء صفو الصريح، خلاصة العلياء

نجل الذبيح، سلالة العلماء بشرى المسيح، دعاء إبراهيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

فخر لآدم قد تقادم عصره من قبل أن يدرى و يجرى ذكره

سرّ طواه الطين فهّم نشره معنى السجود لآدم تفهيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

للّه فضل المصطفى المختار ما إن له فى المكرمات مجارى

و لا مبار باختصاص البارى بالحقّ قدّم مجده تقديما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

أوصاف سيّدنا النبىّ الهادى ما نالها أحد من الأمجاد

فالرّسل فى هدى و فى إرشاد قد سلّموا لنبيّنا تسليما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

آياته بهرت سنا و سناء و أفادت القمرين منه ضياء

و علت بأعلام الظهور لواء فهدى به اللّه الصراط قويما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

دنت النجوم الزّهر يوم ولادته و رأت حليمة آية لسيادته

و تحدّثت سعد بذكر سعادته فتفاءلوا نعم اليتيم يتيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

لمّا ترعرع جاءه الملكان بالطست فيها حكمة الرحمن

فاستخرجا القلب العظيم الشان منه و طهّر ثم عاد سليما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

كرمت مناشى أحمد خير الورى و جرى له القلم العلىّ بما جرى

ما كان ذلكم حديثا يفترى لكنه الحقّ الجلىّ رسوما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۶۰

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ما زال برهان النبىّ يلوح يغدو به الإعجاز ثم يروح

حتى أتاه بعد ذاك الروح يوحى له وحى الإله حكيما

صلوا عليه و سلّموا تسليما

شهدت له بمزية التفضيل سور و آيات من التنزيل

و صلاة خالقه أدلّ دليل فافهمه و اسمع قوله تعظيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

إنّ الرسول المعتلى المقدار لمؤيّد من ربّه القهّار

بالمعجزات جلت عمى الأبصار و شفت من ادواء الضلال سقيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

كم شاهد لمحمد بنبوّته فى أيد تأييد الإله و قوّته

فبذاك أعلى اللّه دعوة حجّته فمضت حساما صارما و عزيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

البدر شقّ له ليظهر صدقه و الشمس قد وقفت تعظّم حقّه

و المزن أرسل إذ توسّل ودقه فاخضرّ ما قد كان قبل هشيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

و الماء بين بنانه قد سالا عذبا معينا سائغا سلسالا

كنداه يمنح رفده من سالا و ينيل راجيه النوال جسيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

بركاته أربت على التعداد كم أطعمت من حاضرين و بادى

من قصعة أو حثية من زاد رزقا كريما للجيوش عميما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۶۱

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

سجد البعير له سجود تذلّل و شكا إليه بحرقة و تململ

و الشاة قال ذراعها: لا تأكل منى فإنى قد ملئت سموما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

و الغصن جاء إليه يمشى مسرعا و الصخر أفصح بالتحيّة مسمعا

و الظبية العجماء فيها شفّعا و الضبّ كلّم أحمدا تكليما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

و الجذع حنّ له حنين الواله يبدى الذى يخفيه من بلباله

أفلا يحنّ متيّم بجماله يشتاق وجها للنبىّ و سيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ما بالنا نسلو و حبّ حبيبنا يقضى ببثّ غرامنا و نحيبنا

لو صحّ فى الإخلاص عقد قلوبنا لم ننس عهدا للرسول كريما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

أين الدموع نفيضها هتّانا أين الضلوع نقضّها أشجانا

حتى نقيم على الأسى برهانا لمتمم إرشادنا تتميما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

أو ليس هادينا إلى سبل الهدى أو ليس منقذنا من أشراك الردى

أو ليس أكرم من تعمّم و ارتدى أو لم يكن أزكى البريّة خيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ذاك الشفيع مقامه محمود و لواؤه بيد العلا معقود

فإذا توافت للحساب وفود قالوا: تقدّم بالأنام زعيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

فيقوم بالباب العلىّ و يسجد و يقول: يا مولاى آن الموعد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۶۲

فيجاب: قل يسمع إليك محمد و نريك منّا نضرة و نعيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

أعظم بعزّ محمد و بجاهه أكرم به متوسّلا لإلهه

شربت كرام الرّسل فضل مياهه فغدت تعظّم حقّه تعظيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

يا سامعى أخباره و مفاخره و مطالعى آثاره و مآثره

و مؤملى وافى الثواب و وافره إن شئتمو فوزا بذاك عظيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

[قصيدة مخمسة لبعض أهل المغرب]

قلت: و كثيرا ما كنت أنشد هذه القصيدة بالمغرب فى مجالس التدريس، و يضيف إليها قبلها أخرى لبعض أهل المغرب الذين لهم

فى منازل الأمداح النبويّة مقيل و تعريس، و هى قصيدة ميلادية كأنما لم ينظمها مؤلّفها إلّا مقدّمة لهذه القصيدة الفريدة، و هى: [الكامل]

اسمع حديثا قد تضمّن شرحه روضا من الإيناس أينع دوحه

فيه الشفاء لمن تكاثر برحه وافى ربيع قد تعطّر نفحه

أذكى من المسك الفتيق نسيما

شهر حوى بوجود أحمد أسعدا بالمصطفى بين الشهور تفرّدا

يا ما أجلّ سنا علاه و أمجدا لولادة المختار أحمد قد غدا

يزهو به فخرا تراه عظيما

يا من بأدمع مقلتيه يغتذى كم ذا تنادى حسرة: من منقذى

و تقول للزفرات: هل من منفذ بشرى بشهر فيه مولده الذى

سرّ الزمان علوّه تعظيما

يا ليلة رفعت بأحمد حجبها لمّا دنا بعد التباعد قربها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۶۳

و تطلّعت للسعد فينا شهبها ضاءت لها شرق البلاد و غربها

و تأنّقت أرجاءها تنعيما

أسدى إليك الدهر حسن صنيعه و حباك من غضّ الجنى ببديعه

وافى هلال محمد بربيعه فاعتزّ أمر اللّه عند طلوعه

و غدا به دين الإله قويما

نظم الزمان بجيد عمرك درّه فاشكر مآثره و واصل برّه

وافاك بالسرّ المصون فسرّه و اعرف لهذا الشهر حقّا قدره

فلقد غدا بين الشهور كريما

يا صاح جاءت بالأمانى أسعد و أطلّ بالبشرى الكريمة مولد

هذا ربيع فيه أنجز موعد شهر كريم جاء فيه محمد

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

[قصيدة مخمسة لمؤلف هذا الكتاب]

ثم قلت أنا عند ختم درس «الشفا»، موطّئا لقصيدة ابن الجيان المذكور و لعذب براعتها مرتشفا، ما نصّه و الأعمال بالنيّات:

انشق أزاهر عن فنون رياض للعلم و اكرع من عذاب حياض

واسق الرياض بذكره الفيّاض و احفظ كلاما للإمام عياض

قد تممت أقسامه تتميما

للّه روض منه أينع دوحه يجنى به منّ الكريم و منحه

فهو الشفاء لمن تكاثر برحه مسك الختام به تعطر نفحه

فشذاه فى الأرجاء صار شميما

فاضت علينا من هداه عوارف زهر و أنوار و ظلّ وارف

و نمارق مصفوفة و مطارف يا حسن ما أبداه فذّ عارف

درّا بأسلاك الحديث نظيما

لم لا و بالملك الشفيع تشرّفا خير البريّة ركن أرباب الصفا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۶۴

من أسعد الراجي و قصدا أسعفا طه النبيّ الهاشميّ المصطفى

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

[قصيدة في مديح الرسول الأكرم لابن الجيان المرسي]

و قد رأيت بعد وصولي إلى هذا الموضع من هذا الكتاب أن أذكر قصيدة لابن الجيان المذكور في روى تلك القصيدة غير مخمّسة مستقلّة بنفسها، و هي قوله رحمه اللّه تعالى:

[الكامل]

صلّوا على أسنى البريّة خيما و أجلّ من حاز الفخار صميما

صلوا على من شرّفت بوجوده أرجاء مكة زمزما و حطيما

صلّوا على أعلى قريش منزلا بذراه خيّمت العلا تخييما

صلّوا على نور تجلّى صبحه فجلا ظلاما للضلال بهيما

صلّوا على هاد أرانا هديه نهجا من الدين الحنيف قويما

صلوا على هذا النبي فإنه من لم يزل بالمؤمنين رحيما

صلّوا على الزاكي الكريم محمد ما مثله في المرسلين كريما

ذاك الذي حاز المكارم فاغتدت قد نظّمت في سلكه تنظيما

من كان أشجع من أسامة في الوغى ولدى الندى يحكي الحيا تجسيما

طلق المحيّا ذو حياء زانه وسط الندىّ و زاده تعظيما

حكمت له بالفضل كلّ حكيمة في الوحي جاء بها الكتاب حكيما

و بدت شواهد صدقه قد قسّمت بدر الدّجى لقسيمه تقسيما

و الشمس قد وقفت له لمّا رأت وجها و سيما للنبيّ وسيما

كم آية نطقت تصدّق أحمدا حتى الجماد أجابه تكليما

و الجذع حنّ حنين صبّ مغرم أضحى للوعات الفراق غريما

جلّت مناقب خاتم الرّسل الذي بالنور ختّم و الهدى تختيما

و سمت به فوق السماء مراتب بمقام صدق عزّ فيه مقيما

فله لواء الحمد غير مدافع و له الشفاعة إذ يكون كليما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۶۵

نرجوه في يوم الحساب، و إنما نرجو لموقفه العظيم عظيما

ما إن لنا إلّا وسيلة حبّه و تحيّة تذكو شذى و شميما

و لخير ما أهدى امرؤ لنبيّه أرج الصلاة مع السلام جسيما

يا أيّها الراجون منه شفاعة صلّوا عليه و سلّموا تسليما

[قصيدة مخمسة فى المديح لإدريس بن موسى القرطبى]

و هذه قصيدة بديعة مخمسة من كلام الشيخ الأستاذ أبى العلاء إدريس بن موسى القرطبى فى مدح رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، وقف عليها أبو عبد اللّه بن الجيان المذكور و قرّظها بما سنذكره قريبا بعدها، و هى: [الكامل]

أهلا بكم يا أهل هذا النادى أهل اعتقاد الوعد و الميعاد

أهدوا الصلاة إلى النبىّ الهادى و صلوا السلام له مع الآباد

يندى نسيما مذكرا تسنيما

هو أول الشفعاء يوم المحشر و سواه بين تقدّم و تأخّر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۹؛ ص۲۶۵

بهت الحضور لهول ذاك المحضر و الكلّ فى الخطب العميم الأكبر

قد هيّمت ألبابهم تهييما

ذاك المقام الأشهر المحمود هو للنبىّ محمد موعود

فيه الشفاعة ذخرها موجود درك المراد و حوضه المورود

فضل الكليم به و إبراهيما

عيسى و موسى و الخليل مروّع من هول مطّلع هنالك يفظع

فيقال أحمد قل فإنك تسمع فيقوم يحمد ربّه فيشفّع

فضلا من الربّ العظيم عظيما

يا أمّة المختار أنتم أمّه و الهول قد عمّ البسيطة يمّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۶۶

و الأنبياء سواه كلّ همّه تخليص مهجته و ليس يهمّه

من كان فى الدنيا عليه كريما

صلّى الإله على الذى صلّى عليه عشرا بواحدة يزكّيها لديه

و أراه فى الدارين قرّة ناظريه يا قاصدين إلى وصولكم إليه

راجين من أرج القبول نسيما

لو لا وصيّة صاحب التنزيل أن لا يقال له غلوّ القيل

قول الغلاة لصاحب الإنجيل لغلوت فى التعظيم و التبجيل

عظم المكانة يوجب التعظيما

طوبى لقلب قد تلالا إذ صفا بالسّرّ منه قد تثبّت إذ هفا

خطّت به آيات حبّ المصطفى فغدا لصاحبه بذلك مصحفا

يهدى إلى نهج النجاة قويما

فاقت علا ذكراه إذ راقت حلا ملأ النبوّة أمهم حين اعتلى

فی لیلهٔ الإسراء أعلی معتلی کتب الإله له التقدّم فی العلا

و علیهم التفویض و التسلیما

و کذاک یسلم فی الشفاعهٔ کلّهم و محلّهم عند الإله محلّهم

ظلّ النبیّ محمد هو ظلّهم یمشون تحت لوائه فیدلهم

یندی علیهم بهجهٔ و نعیما

أوصافه من کلّ حسن أبهج العرف ینفح و السنا یتبلّج

فتأرج الأرجاء منه و تبهج فاق الزواهر نورها یتوهّج

و الزهر نفّاح النسیم و سیما

طلق المحیّا منهل للنائل أنحی علی الدنیا بزهد کامل

هو مثّل الدنیا بظلّ زائل لم ترضه حال النعیم الحائل

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۹، ص: ۲۶۷

ما حاول الترفیه و التنعیما

ما ورّث المختار مال مؤمّل إلّا جواهر فی الکتاب المنزل

أشهی لقلب الناظر المتأمّل و أقرّ إعجابا لعین المجتلی

من کلّ قیمهٔ مقتض تقویما

وفّقت یا من لم یخالف نصّه حزت الکمال و لیس تخشی نقصه

نهج الهدی قول النبیّ اقتصّه بالوحی شرّفه الإله و خصّه

شرفا علی شرف السناء صمیما

سبحان موح لا یحدّ له الکلام من قال ذات کلام خلاق الأنام

خلق فذلک آثم کلّ الأثام ذاک الذی فی الدین لیس له ذمام

إلّا ذمام لا یزال ذمیما

ضلّ الذی یبغی الهدی ممّا سواه و هوی به فی کلّ مهواهٔ هواه

من فارق الفاروق قد تبّت یداه حیران لم یهد السبیل إلی هداه

لا یعرف التحلیل و التحریما

بالمدح مجد المصطفی یمّمته من حلی أوصاف له نظمته

لم أبلغ المعشار إذ أحکمته بعضا نسیت و بعضه ألهمته

قلّدته جید الزمان نظیما

لو فزت بالإحسان من حسّان و سحبت أذیالی علی سحبان

أو أیدتنی لسن کلّ زمان من کلّ ذی زعم عظیم الشان

ما کنت بالمعشار منه زعیما

إدریس حفّتک الحقوق حفوفا هلّا خففت إلی الرسول خفوفا

و قریت بالعزم الهموم ضیوفا و شدوت أن هال الزمان صروفا

مهلا کفاک معلّمی التعلیما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۶۸

ثقة بفضل الواحد القهّار ملك الملوك مصرّف الأعصار

جعل النبيّ مكرم الآثار و أمدّه بالنصر و الأنصار

و أتمّ نعمته له تتميما

هل أجلون بصرى بكحل سناه يا سعد من كحلت به عيناه

ظفرت يداه، و ساعدته مناه للّه ذاك الأفق ما أسناه

كرم المحلّ فيقتضى التكريما

[تقريظ لابن الجيان على قصيدة إدريس بن موسى السابقة]

و نصّ تقريظ ابن الجيان على هذه القصيدة هو قوله: [المجتث]

ما زال كلّ حليف للّه أضحى وليّا

و للعلوم خليلا و عن سواها خليا

يصوغ عقيان مدح للهاشميّ حليّا

و يوجب الحقّ فيه إيجابه الأوليّا

و يقتفى فى رضاه نهجا جليلا جليّا

و الكلّ أحظاه حظّ فالفوز يلفى مليّا

لكنّ إدريس منهم حاز المكان العليّا

و لا يخفاك أنه التزم فى هذه القطعة ما لا يلزم من اللام قبل الياء، رحمه اللّه تعالى!.

و لا بأس أن نورد هنا ما حضر من التخميسات الموافقة لتخميس ابن الجيان المذكور السابق أولا فى البحر و الروى و المنحى الذى لا يضلّ قاصده، و كيف لا و هو مدح الجناب الرفيع العظيم النبوى.

[قصيدة مخمسة لابن سهل الإشبيلى]

فمن ذلك قول أبى إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلى الإشبيلى، فإنّ بعضا ذكر أنها من قوله لما أظهر الإسلام، و هى لا تقتضى رفع الريبة فيه و الاتهام: [الكامل]

جعل المهيمن حبّ أحمد شيمة و أتى به فى المرسلين كريما

فغدا هواه على القلوب تميمة و غدا هداه لهديهم تتميما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۶۹

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

أبدى جبين أبيه شاهد نوره سجعت به الكهّان قبل ظهوره

كالطير غرّد معربا بصفيره عن وجه إصباح يطلّ نسيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

أنس الرسالة بعد شدّة نفرة منجى البريّة و هى فى يد غمرة

محيى النبوّة و الهدى عن فترة فكأنما كفل الرشاد يتيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

اللّه أوضح فضله فتوضّحا و اللّه بيّن حبّه فى (و الضحى)

و الجذع حنّ هوى له فترنّحا و الماء فاض بكفّه تسنيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

فربّا الرواية عن رباه زكيّه نجواه ربّانيّة ملكيّه

أوصافه علويّة فلكيّه فإخال شعرى عندها تنجيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

احتثّ فى السبع الطباق براقه و الأرض و اجمة تخاف فراقه

سبحان من أدنى سراه فساقه شخصا على ملك الملوك كريما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

فاشتمّ ريحان القلوب الطيّبا و دنا فأسمع يا محمد مرحبا

إنى جعلتك جار عرشى الأقربا إن كنت قبلك قد جعلت كليما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

يا ليلة يجرى الزمان فتسبق الحجب فيها و الأرائج تفتق

ما كان مسك الليل قبلك يعبق بشرى محمد استفاد نسيما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۷۰

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

حتى إذا اقتعد البراق لينزلا نادته أسرار السّماوات العلا

يا راحلا ودّعته لا عن قلى ما كان عهدك بالغيوب ذميما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صعد النجود و سار فى الأغوار سمك السما طورا و بطن الغار

متقسّما فى طاعة الجبّار ما أشرف المقسوم و التقسيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

الشافع المتوسّل المتقبّل القانت المدّثّر المزّمّل

وافى و ظهر الأرض داج ممحل فجلا البهيم به و أروى الهيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

دفعت كرامته الزنوج عن الحرم و دعاه جبريل المنزه فى الحرم

و عزت له آيات نون و القلم خلقا به شهد الإله عظيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

طاو يفيض الزاد فى أصحابه غيث و لكن كان يستصحى به

طابت ضمائر قلبه و ترابه منه بسرّ لم يكن مكتوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

يا شوقى الحامى إلى ذاك الحمى فمتى أقضّيه غراما مغرما

و متى أغانقه صعيدا مكرما بضمير كلّ موحّد ملثوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

[قصيدة مخمسة لبعض الوعاظ]

و من ذلك قول بعض الوعّاظ، و أظنّه فى أهل المشرق: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۷۱

جلّ الذى بعث الرسول رحيما ليردّ عنّا فى المعاد جحيما

و به نرجّى جنّة و نعيما أضحى على البارى الكريم كريما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ما ضلّ عن وحى الإله و ما غوى حاشا رسول اللّه ينطق عن هوى

الصادق الثقة الأمين بما روى قد نال من ربّ السماء علوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

وافى له الروح الأمين مبشّرا نادى به يا خير من وطئ الثرى

أجب المهيمن يا محمد كى ترى ملكا كريما فى السماء عظيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

فأجابه المختار حين دعا به ربّ السماوات العلا لخطابه

ركب البراق و قد أتى لجنابه أمسى له الروح الأمين نديما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

فمتى أرى الحادى يبشّر باللّقا و يضمّه بان المحصّب و النّقا

و رأى ضريح المصطفى قد أشرقا مولى حليما لن يزال رحيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

و أقول للزوّار قد نلت المنى يهنيكم طيب المسرّة و الهنا

فاستبشروا من بعد فقر بالغنى فاللّه زادكم به تكريما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ثمّ الرّضا عن آله الكرماء و كذاك عن أصحابه الخلفاء

فهواهم دينى و عقد ولائى قوما تراهم فى المعاد نجوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

[قصيدة مخمسة لبعض أهل المغرب]

و منها قول بعض فضلاء المغاربة رحمة اللّه تعالى: [الكامل]

يا أمّة الهادى المبارك أحمد يهنيكم نيل الأمانى فى غد

بمحمد فزتم و من كمحمد إن شئتم أن تدركوا التتميما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۷۲

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على البدر المنير الزاهر صلّوا على المسك الفتيق العاطر

صلّوا على الغصن البهيّ الناضر و تنعّموا بصلاتكم تنعيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالنبوّة زيّنا صلّوا على من بالكمال تمكّنا

بمحمّد فزنا بإدراك المنى فضلا منحنا حادثا و قديما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على البدر المنير اللائح صلّوا على الهادى الحبيب الناصح

صلّوا على المسك الفتيق الفائح للرشد فهّم و الهدى تفهيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من مجده قد أسّسا و الماء بنى بنانه قد بجّسا

و أتت إليه سرحة حتى اكتسى بفروعها إذا خيمت تخييما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من كان يبصر من قفا و عليه سلّمت الجنادل و الصّفا

و الذئب قال صدقّت أنت المصطفى و شكا إليه بازل قد ضيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من قد شفى بالريق عين الضرير و لدغة الصدّيق

و أعاد طعم الماء مثل رحيق إذ مجّ فيه العنبر المختوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالملائك جيّشا و غدت تظلّله الغمام إذا مشى

حرست سماء اللّه لمّا أن نشا ليكون سرّ حبيبه مكتوما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۷۳

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا عليه كلّ حين تربحوا و بهديه مهما اهتديتم تفلحوا

و الأجر يشملكم فجدّوا تنجحوا و إذا أردتم أن يكون عظيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا بجمعكم على شمس الهدى صلّوا على بدر يزين المشهدا

صلّوا عليه به الرشاد تمهّدا و الذكر بيّن فضله تفخيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا بإخلاص على خير البشر صلّوا على من فاق حسنا و اشتهر

و نمت فضائله و شقّ له القمر و لكم دليل فى علاه أقيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من قد رأى الرحمانا بالقلب أو بالعين منه عيانا

من قاب أو أدنى مقام كانا فخذ الفوائد كى تفاد علوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا عليه كلّكم لا تسأموا و تبرّكوا بصلاته و تنعّموا

قعليه صلّى الأنبياء و سلّموا شرفا لهم إذ أمّهم تقديما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

يا حاضرين بلغتم كلّ المنى عن جمعكم من فضله ذهب العنا

و إليكم و اللّه قد وجب الهنا بمحمد كرّمتم تكريما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

قولوا برغم معاندين و حسّد كى ترغموا أنفا لكلّ مفنّد

صلّى الإله على النبىّ محمد أبدا و زاد لقدره تعظيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۷۴

يا ربّ يا ذا المنّ و الإحسان جد بالرضا و العفو و الغفران

للوالدين و منشد الأوزان و السامعين أنلهم تنعيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّى عليه اللّه ما اجتمع الملا صلّى عليه اللّه ما قطع الفلا

صلّى عليه اللّه ما انتجع الكلا أبدا و ما رعت السّوام هشيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

[قصيدة مخمسة لمالك بن المرحل المالقى السبتى]

و من ذلك قول الإمام العالم الشهير الأديب مالك ابن المرحل المالقى ثم السبتى، و هى من غرر القصائد، و فيها لزوم ما لا يلزم من ترتيبها على حروف المعجم بجعلها بدأ و رويّا على اصطلاح المغرب: [الكامل]

ألف: أجلّ الأنبياء نبىء بضيائه شمس النهار تضىء

و به يؤمّل محسن و مسىء فضلا من اللّه العظيم عظيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

باء: بدا فى أفق مكة كوكبا ثم اعتلى فجلا سناه الغيهبا

حتى أنار الدهر منه و أخصبا إذ كان فيض الخير منه عميما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

تاء: تبيّنت الهدى لمّا أتى فنفى الشريك عن القديم و أثبتا

أحديّة من حاد عنها قد عتا و تلا كلاما للكريم كريما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ثاء: ثوى فى الأرض منه حديث فى كلّ أفق طيبه مبثوث

داع بأنواع الهدى مبعوث يتلو نجوما أو يهزّ نجوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

جيم: جلا بسراجه الوهّاج ما جنّ من ليل الظلام الداجى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۷۵

و سقى القلوب بمائه الثجّاج فأصارها بعد الغموم غميما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

حاء: حمى دين الهدى بصفائح و سما بشمّ كالجبال أراجح

من كلّ أزهر هاشميّ واضح لو لا نداه غدا النبات هشيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

خاء: خبت نيران جهل شامخ آيات علم للرسالة راسخ

من مثبت ماح و منس ناسخ قد خصّ بالذكر الحكيم حكيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

دال: دعا فأجاب كلّ سعيد و أتى بوعد صادق و وعيد

حتى أقرّ الناس بالتوحيد و تجنّبوا الإشراك و التجسيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ذال: ذباب حسامه مشحوذ للناكثين، و عهدهم منبوذ

أمّا السعيد فبالنبيّ يلوذ فيدال من ذلّ الشقاء نعيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

راء: روينا عن ذوى الأخبار أنّ الندى و البأس مع إيثار

بعض صفات المصطفى المختار كم قد تقدّم بالأنام زعيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

زاى: زعيم بالنزال عزيز و بليغ معنى فى المقال و جيز

فلقوله من فعله تعزيز و لربما عاد الكلام كلوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

سين: سلام كالنّفيس تنفّسا و قد اجتنى وردا و صافح نرجسا

أهدى إليه فى الصباح و فى المسا بقصائد كادت تكون نسيما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۷۶

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

شين: شمائله الكريمة تعطش من كان من سكر المحبّة يرعش

لكن أضاع العمر فيما يوحش فغدت ندامته عليه نديما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صاد: صفىّ للإله و مخلص و مقرّب و مفضّل و مخصّص

ذهب سبيك وزنه لا ينقص قد طاب خيما فى الورى و أروما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ضاد: ضمين نصحه ممحوض ضافى القراءة بالعلوم يفيض

إن غاض ماء البحر ليس يغيض لما استمرّ زلاله تسنيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

طاء: طويل السيف متّسع الخطا رحب الذراع و من يمدّ لهم سطا

يردى العدا و إذا ارتدى متخمّطا يبرى عذابا إذ ألام أليما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ظاء: ظهير للعباد حفيظ حظّ له أدب العباد حظيظ

حقّ له التأبين و التقريظ ميتا و حيّا ظاعنا و مقيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

عين: عزيز ذكره مرفوع فى الأنبياء و قوله مسموع

مشروح صدر، حبّه مشروع من لا يدين بذاك كان ذميما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

غين: غزا من زاغ عنه و من طغى و غدا يشبّ لمن طغى نار الوغى

حتى أقامت من عصى بعد الصغا و تقوّم النار العصا تقويما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۷۷

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

فاء: فواتح سورة الأعراف و براءة و الرعد و الأحقاف

أحظته بالأقسام و الأوصاف فمتى توفّى حقّه منظوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

قاف: قوافى النظم عنه تضيق أ يطيقه الإنسان؟ ليس يطيق

فالخلق فى التقصير عنه خليق و لو أنهم ملؤوا الفضاء رقوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

كاف: كريم العنصرين مبارك متفرّد بالجاه ليس يشارك

فهو الذى بمقامه يتدارك و الهول يغدو مقعدا و مقيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

لام: له عقد اللواء الأحفل و له الشفاعة فى غد إذ تسأل

و إذا دعا فدعاؤه متقبّل حقّ الرحيم بأن يرى مرحوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ميم: ملائكة الإله تسلّم فوجا عليه إذ بدا و تعظّم

و يمرّ جبريل بها يتقدّم فيضاعف التعظيم و التكريما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

نون: نبىّ جاءنا ببيان و بمعجزات أبرزت لعيان

و بحسبه أن جاء بالقرآن يشفى قلوبا تشتكى و جسوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

هاء: هو الهادى الذى اقتدح النّهى فتفكّرت فى ملك من رفع السّما

و قضى بحدّ للأمور و منتهى فأفادها النظر السديد عموما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

واو: و هى ركن التجلّد، بل هوى لمّا ثوى فى الترب من بعد التّوى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۷۸

فحوى الضريح الرحب نجما ما غوى أجرى من الدمع السجوم سجوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

لام: لأجلك فاض دمعى جدولا فاخضرّ آس أساك إذ يبس الكلا

يا خير من كلأ المكارم و العلا و حمى الحمى و رمى فأعمى الروما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ياء: يحيّيه و يسقيه الحيا ربّ العباد مجازيا و موفيا

و مشرفا و مسلما و مصلّيا يا مسلمين ورثتم التسليما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

[قصيدة مخمسة فى مدح النبى، لأبى العباس أحمد بن محمد المغربى]

و من ذلك قول الفقيه الكاتب أبى العباس أحمد بن محمد بن عباس المغربى حسبما نقلته من المجلد الخامس و العشرين من كتاب «منتهى السول، فى مدح الرسول» للحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عذرة المغربى الأنصارى رحمه اللّه تعالى و رضى عنه و نفعنا بقصده! و هى أيضا مرتّبة على حروف المعجم ما عدا الابتداء و بيوت الانتهاء، غير أنّ ترتيب حروف المعجم فى آخر الأشطار و لم يلتزم صاحبها الابتداء كما التزم مالك بن المرحل، رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

اللّه زاد المصطفى تعظيما و قضى له التفضيل و التقديما

و أناله شرفا لديه جسيما فهو المتمّم فخره تتميما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من خصّ بالأنباء و أبوه ما بين الثرى و الماء

ثم استمرّ النور فى الآباء فتوارثوه كريمة و كريما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على بدر بدا من يثرب فأضاء بالأنوار أقصى المغرب

و جلا عن الدنيا دياجى الغيهب فبدا لنا نهج الرشاد قويما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۷۹

صلّوا على من بالشرائع قد أتى و أباد أحزاب الطغاة و شتّتا

و أبان أسباب النجاة و وقّتا للأمّة التحليل و التحريما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالغيوب يحدّث و بروعه الروح المقدس ينفث

محبوبنا و شفيعنا إذ نبعث فى يوم لا يدرى الحميم حميما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على صبح الهدى المتبلّج صلّوا على بحر الندى المتموّج

صلوا على روض الجمال المبهج كيما تنالوا الفوز و التنعيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على غيث الأنام السافح صلّوا على المسك الذكىّ النافح

أزرت روائحه بكلّ روائح فالأرض طبّقها شذاه نسيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من عهده لا يفسخ صلّوا على من شرعه لا ينسخ

صلّوا على من حزبه لا يمسخ نبأ يفهّم فضله تفهيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من فخره لا ينفد صلّوا على من فضله لا يجحد

أنّى و كتب الرّسل طرّا تشهد تنبى اليهود بفضله و الروما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من قد حمى عنّا الأذى و من الغوايۀ و الضلالۀ أنقذا

صلّوا على من ذكره نعم الغذا و بمدحه نروى القلوب الهيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا بإخلاص على خير البشر من قبل نشأته المباركۀ اشتهر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۸۰

كم كاهن عنه أبان و كم خبر و لكم دليل فى علاه أقيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من جلّ مولده و عزّ ضاءت قصور الشام لما أن برز

و تدانت الشّهب الثواقب كالخرز أو كاللآلى نظّمت تنظيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من مجده قد أسسا و الماء بين بنانه قد بجسا

و أتت إليه سرحۀ حتى اكتسى بفروعها إذ خيّمت تخييما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالملائك جيّشا و غدت تظلّله الغمام إذا مشى

حرست سماۀ اللّه لمّا أن نشا ليكون سرّ حبيبه مكتوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالتحيّۀ خصّصا و القلب منه حين شقّ تخلّصا

من حظّ إبليس اللعين و محّصا و أعيد ما إن يشتكى تثليما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من يوم مولده سطا بجميع آلهة الضلالة و الخطا

و هوى له عرش اللعين و أسقطا و الفرس هدّم صرحهم تهديما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من ليس فظّا غالظا لأخيه فى الإرضاع كان محاظظا

فاعجب لذلك كيف كان ملاحظا للعدل فينا مرضعا و فطيما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۸۱

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من كلّمته ذراع و بفضله كفت المئين الصاع

و الجذع حنّ له و ما الأجذاع بأرقّ منّا أنفسا و فهوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من مدحه لا يفرغ ما ذا عسى مدّاحه أن يبلغوا

فإلهنا يثنى عليه و يبلغ فاقرأ تجده محكما تحكيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من كان يبصر بالقفا و عليه سلّمت الجنادل و الصّفا

و الذئب قال صدقت أنت المصطفى و شكا إليه بازل قد ضيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من قد شفى بالريق عين الضرير و لدغة الصدّيق

و أعاد طعم الماء مثل رحيق إذ مجّ فيه العنبر المختوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من شأوه لا يدرك صلّوا على من شأوه لا يشرك

موسى و عيسى و الخليل تبرّكوا بلقائه و عنوا له تسليما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من خلفه صلّى الرسل شرف على تمكين عزّته يدل

فإذا فقل هو سيد لهم و دل لا تخش توبيخا و لا تحشيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من قد سرى نحو السما ليلا و عاد و ما برحنا نوّما

بالروح و الجسم المطهّر قد سما قله و راغم من أبى ترغيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۸۲

صلّوا على من قد رأى الرحمانا بالقلب أو بالعين منه عيانا

من قاب أو أدنى مكان كانا فخذ الفوائد و احذر التجسيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من قد حباه إلهه بالكوثر المروى لنا أمواهه

فى يوم حشر الخلق يظهر جاهه إذ يقدم الرّسل الكرام زعيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من خصّ بالحوض الرّوى و كذاك خصّص بالمقام و باللوا

نوحا و آدم و الكليم قد احتوى و ابن البتول حوى و إبراهيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّى عليه اللّه ما قطع الفلا صلّى عليه اللّه ما اجتمع الملا

صلّى عليه اللّه ما انتجع الكلا أبدا، و ما رعت السوام هشيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّى عليه اللّه ما هطل الحيا صلّى عليه اللّه ما اجتمع الملا

صلّى عليه اللّه ما انتجع الكلا أبدا، و ما رعت السوام هشيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّى عليه اللّه ما هطل الحيا صلّى عليه اللّه ما التمع الضّيا

فلقد شفى الدنيا من الداء العيا و لقد حمى عنّا لظى و جحيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

للّه سيدنا النبىّ الأكمل للّه برق جبينه المتهلّل

للّه جود يمينه المتهطّل أحيا و أغنى بالنوال عديما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

للّه منه ذاته و حقيقته للّه منه خلقه و خليقته

للّه منه شرعه و طريقته فلقد جلت بشموسها التغييما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

يا أمة الهادى النبىّ المصطفى بالله لو كنّا نعامل بالوفا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۸۳

متنا عليه حسرة و تلهّفا حتى نؤدّى حقّه المحتوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ما كان أولانا بطول نحيبنا ما كان أوجبنا بفرط و جيبنا

أفنستطيع الصبر عن محبوبنا ما الصبر عن لقياه إلّا لوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

لم لا نفيض على الدوام دموعنا لم لا نقضّ من الغرام ضلوعنا

لم لا نخلى أهلنا و ربوعنا حتى نعاين من ذراه رسوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

أو لم يكن يحنو علينا مشفقا؟ أو لم يكن متعطّفا مترفقا

أو لم يعالجنا بأنواع الرقى؟ حتى اغتدى منّا العليل سليما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

من مثله ما إن يضرّ و ينفع من مثله يدرا العذاب و يدفع

من مثله لذوى الكبائر يشفع من مثله بالمؤمنين رحيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

يا ويح نفسى كم أرى ذا صبوة و مسامعى عن واعظى فى نبوة

فعسى الرسول يقيلنى من كبوة فلكم رجاه عاثر فأقيما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

يا ربّ بالهادى الرفيع المحتد اغفر لعبدك أحمد بن محمد

فلقد توسّل إذ رجاك بسيد ما ردّ معتلق به محروما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۸۴

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ناشدتكم يا سامعى هذا الثنا قولوا متى أسمعتموه تدنّا

اغفر لقائله المقصر ما جنى بمديحه خير الورى المعصوما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

قلت: و إنى لأسأل اللّه تعالى بلسان لم أعص به و هو لسان هذا المادح، إذ قال: «يا ربّ بالهادى» فإنى أحمد بن محمد بلّغه اللّه أمله من غفرانه بمنّه و كرمه! آمين.

[قصيدة مخمسة فى مدح الرسول الأكرم، لابن القصير]

رجع- و من ذلك قول الفقيه الكاتب الأديب أبى العباس أحمد بن القاسم الإشبيلى الشهير بابن القصير، و طريقه هذه مخالفة للطريق المتقدّمة من بعض الوجوه، رحم اللّه تعالى الجميع: [الكامل]

اللّه أكرم أحمدا تكريما فغدا رسولا للعباد كريما

فاشكر غفورا للذنوب رحيما أرضى النبيّ بقوله تعليما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

للّه منه هدى نبيّ مرتضى بالبعث منه لنا قضى لطف القضا

ملأت فضائله المهارق و الفضا و دجا الوجود فعند مبعثه أضا

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

عجبت لنا منه ملائكة السما أن كان بالإسراء ليلا قد سما

و رقى البراق به و جبريل لما قد سرّه سرّا و جهرا سلما

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

أعظم به من مرسل قد بشّرا بوجوده عيسى المسيح و قد سرى

ليسر فهو أجلّ مبعوث يرى بهداه أمّته زهت بين الورى

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

من جاء بالقرآن معجزة له أعيا الورى من بعده أو قبله

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۸۵

اللّه كرّمه و فضّل فضله و أجلّ منه فرعه و أصله

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

من سبّحت صمّ الحصا فى كفّه و البدر شقّق نصفه عن نصفه

ليرى به إعجاز من لم يصفه حزنا بمفخر ذكره أو وصفه

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

يكفيه أن يتلى اسمه و يكرّر مع اسم خالقه إذا ما يذكر

هذا الذى بمقاله لا يفجر أبدا و لا لخلافه يتصوّر

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

العبد أسرف يا نبىّ اللّه فى الذنب ساه عن تقاه لاهى

فاشفع له من مذنب أوّاه يرجو كريما منك جمّ الجاه

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

أنأى الزمان وصوله أو سوله فاستصحب الأبيات منه رسوله

فأنل بفضلك للمراد حصوله حسبى ثنا وازنت منه فصوله

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ابن القصير أطال فيك نظامه ليرى بذاك مسلما إسلامه

و ترى مطاوع أمره و كلامه لا زال يقريك الإله سلامه

صلّوا عليه و سلّموا تسليما

[لجمال الدين بن جلال الدين الجوزى فى مدح النبى]

و ما أحسن قول جمال الدين بن جلال الدين الجوزى رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

فضل النبيين النبىّ محمد شرفا يزيد، و زادهم تعظيما

درّ يتيم فى الفخار، و إنما خير اللآلى، ما يكون يتيما

ساد النبيين الكرام و كلّهم صلّوا عليه و سلّموا تسليما

و اللّه قد صلّى عليه كرامة صلّوا عليه و سلّموا تسليما

و من ذلك هذا التسديس البديع الذى هو من نظم الإمام العارف باللّه تعالى علاء الدين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۸۶

[تسديس فى مديح الرسول، لمحمد بن العفيف، الحسنى، الصفوى]

محمد بن العفيف الأبجى الحسنى الصفوى الزينبى- رحمه اللّه تعالى!- ممّا رتّبه على حروف المعجم و التزم الحرف أول الأشطار الأربعة و آخرها: [الكامل]

اللّه أحمد أحمدا إذ يبرأ أوضى وضىء نوره يتلألأ

أنواره كلّ العوالم تملأ أكوانه لولاه لم تك تنشأ

إن كنتم انقدتم له تسليما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

بدر بدا من نوره يتطلّب بحر بحور الجود منه تركب

برّ و برهان جلا يتقلّب بالمصطفى ممّن صفا أتقرّب

بادوا بما يجدى لكم تنعيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

تاللّه مثل محمد لا يثبت تم الكلام ببعثه و نبوّة

تاج العلا بالمصطفى يتثبّت تاهت عقول للذى هو ينعت

تحف الصلاة به عليه أديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ثق بالذى يوما يقوم و يبعث ثبة البريّة بالنبىّ تغوّث

ثبت الشفاعة للورى يتحدّث ثرة الطوائف للذى يتشبّث

ثبت لزام الباب فيه مقيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

جاء النبىّ عوالما يتبلّج جاه له من جاءه يتبهج

جاه ينجّى من لظى تتوهج جاءت له الأشجار أرضا تفرج

جاور نبىّ اللّه نلت نعيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

حقّا هو الحقّ المبين الأوضح حبّ حياء حبّه يترنّح

حسناته حثياته تسترجح حتى القلوب بحبّه تترجّح

حوت العلوم لذاته تكريما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

خير البرايا دينه هو ناسخ خير له خير الخيور رواسخ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۸۷

خرّ الذى عن دينه هو بازخ خال خلىّ عن نقائص باذخ

خذ باتّباع فعاله ترسيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

دلّ الأنام على الإله محمد دامت سعادة من بأحمد يسعد

دار له مأوى المحامد تحمد دان الوجود به و من هو أحمد

داوم على باب له تخييما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ذكر الحبيب أحقّ ما يتأخّذ ذخرا ليوم بالنواصى يؤخذ

ذاك الشفيع لمن به يتعوّذ ذاك الذى بجنابه يستنقذ

ذلّوا له و لبابه تغنيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ربّ النبىّ محمد هو يذكر رتب الحبيب كتابه متذكّر

رائى محيا أحمد هو ينظر روح القلوب و لاؤه هو ينصر

روّح بذكراه المريح نديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

زين البرايا بالوجود معزّز زان العوالم حسنه يتفوّز

زن فضله عن كلّهم يتميّز زد ذكره عن زلّة يتحرّز

زلفى أنله بالمنى تتميما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

سبق الأنام بفضله هو أنفس ساد الجميع بسؤدد يترأس

سبحان من أسرى به يتأنّس سرّ الحبيب بسرّه يتقدّس

سمع الكلام من الإله كليما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

شمس الهدى بدر الدّجى يتبشش شرف الحبيب من الوجوه يفتش

شكرا لمولانا عليه و أبهش شوقى إليه وافر أ تعطش

شغل للبّك بالحبيب أديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صفة الكلام لذاته هو أخلص صفة الكتاب كماله يتلخّص

صفة القلوب بحبّه تتخلّص صفه صفا صبّ و أنى يخلص

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۸۸

صل بالصلاة جنابه تكليما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ضفت الفيوض من الحبيب تفيّض ضعفى إليه آملا يتعوّض

ضرى و ضيرى كلّه يتقوّض ضلّ الذى فى بابه لا ينهض

ضمن الحبيب لذاكريه زعيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

طوبى لمن بحبيبه يتنشّط طابت به أحواله و المنشط

طال اشتياقى طيبة أتبسّط طال الإله علىّ طولا يبسط

طوبى بمدحته يطيب نسيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ظلّ الهدى بهداه قد يتحفّظ ظلمات شرك قد جلت تتدلظ

ظلّى لظلّ وداده يتحفّظ ظهرى ظهيرى حبّه أتحفّظ

ظنّى به يغدو العقاب عديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

علت المعالى بالنبىّ و ترفع عزّ علاه للذى هو يتبع

عمّت عطاياه لكلّ ينفع عرش العظيم قد ارتقى يترفّع

عرج الإله به إليه عليما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

غوث الورى ذا المصطفى هو سابغ غيث الندى هو فى البرايا سائغ

غمر الندى أقصى النهاية بالغ غزر الحيا شمس و بدر بازغ

غنما نما بالمؤمنين رحيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

فخر و ذخر بالمفاخر يشرف فرد وحيد فى العوالم أشرف

فتح الوجود و كلّ كون مردف فاز الفقير بلطفه يتلطّف

فاح النسيم من الحبيب جسيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

قسم الإله بعمره فيفوّق قسمت وجوه الحسن منه فيسبق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۸۹

قمر و شمس نوره متألّق قمن بذكراه الدعاء معلق

قطب لدائرة الوجود كريما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

كتب الإله ثناءه ما يدرك كتب اسمه قرب اسمه يتبرّك

كلّ الكمال له به يستدرك كنه الكمالات التى لا تدرك

كيف كفى درّ الثناء يتيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

لمعات نور محمد هى تخجل للشمس و البدر المنير فتخجل

لذّات ذكر محمد هى أكمل لذوى الحوائج لائذ متكفّل

لذ خذ بحدّ منك تلف حكيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

من مثله فى العالمين معظّم من مثله فى العالمين مكرّم

من للإله لدى اللقاء يكلّم منحا حباه منه قد يتعلّم

منّ الإله لديه صار عميما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

نور له فى آدم يتبيّن نقلا إلى آبائه يتعيّن

نأى العوالم إذ أتى متعيّن نار المجوس تخمّدت تتهوّن

نعماه جمّت إذ تعمّ كريما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

وجه به كلّ الوجوه إليه هو وجه الوجاه بكله يتوجّهوا

و وجاهه وجه المرام فوجّهوا وجه إليك نبيّنا فتوجّهوا

وجّه إلينا نظرة تكريما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

هو مصطفى عند الإله الأوجه هاد لنا و بوجهه من أوجه

ها إنه وجهى لهذا أوجه هيه هنيئا وجهه بالأوجه

هام الفؤاد بحبّه تتييما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

لا مثل للمختار أعلى من علا لاجيه ناج قد نجا كلّ البلى

لاذ الصفىّ به يتوب فأقبلا لاقى النبى محمد أن يقبلا

لازم محبّا للحبيب نديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۹۰

يا أكرم الخلق الذى هو ملجئى يأتى محمد العفيفى الذى

يده يمدّ إليك مرتجيا و فى يقن بصفوته الصفى و يكتفى

يمنا لذكرك يبتدى تختيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

[تسديس آخر فى ندح النبى لمحمد ابن العفيف الحسنى الصفوى]

و له أيضا رضى اللّه تعالى عنه قصيدة أخرى على طريقة هذه، و قد نظمها بعدها نفع اللّه تعالى بنيّته، و بلّغه غاية قصده و أمنيته، و هى هذه: [الكامل]

أحسن بطلعة أحمد هى أضوأ أعلن بلمعته العوالم تملأ

أزين به لمّا أتى يتلألأ أبين بآيات له فتنبأ

اللّه قدّمه بها تقديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

بدأ الإله بنوره فيعقّب بدء الذى بالمصطفى يتقلّب

فيه لذى الحاجات إذ يتطلّب بدء بذكراه به يستوهب

بل هو إلى الأرب انتفع تعميما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

تلت العلامات التى هى تثبت تبّ العدا تبّا و عنه تتبت

تمت له الآيات فيك تبكّت توراة موسى ناطقا هى تنعت

توقيع حاجات صفوا تسليما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ثبت الكمال له و منه يورث ثبت الورى لو لم تكن لا تحدث

ثبت بذكرى المصطفى يتحنّث ثبت الذى بجنابه يتشبّث

ثبت بذكر قد تراه قديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

جاء العوالم نوره يتبلّج جاد العوالم بحره يتموّج

جاز السّماوات العلا يتعرّج جاب الجميع بسامه يتفرّج

جار له جارى له تنعيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

حار العقول لمدحه إذ يمدح حيا الحياء بريّه يستروح

حى له فضل به يسترجح حى له حامى حمى فتروّح

حى الحمى الحامى تصير سليما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

خلق له كلّ به يتشمّخ خلق له بالنقص لا يتلطّخ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۹۱

خلق به أحسن به هو أبذخ خلق يحقّ له الثناء الأرسخ

خلق إلهىّ بذاك تميما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

دار الحبيب أحقّ ما يتعمّد دارت بها كلّ السعادة تسعد

دانت أهاليها بما هو يرشد دار بحسنى طيبة لا تبعد

دارك سكونا بالسكون مقيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ذكر الحبيب محمد هو ينقذ ذكر لما ينسى رسولا ينفذ

ذكر الإله ثناؤه و يلذذ ذكراه تنفع سامعا يتلذّذ

ذيل النبىّ خذ اعتصم تعظيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ربّ الورى سبحانه هو أكبر ربّ النبىّ محمد فيكبر

ربّ الرؤوف حبيبه فيدبر ربى اصطفاه من الورى فأكبر

ربّ ارتجاء للمنى تدويما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

زان العوالم إذ أتاها يبرز زاد الإله عروجه فيبرّز

زادت معاليه عروجا ينشز زاد لأخرى حبّه يتحرّز

زعم الشفاعة ذاكريه زعيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ساد الجميع إذا أتى هو أنفس سار السماوات العلا يستأنس

سأل الإله و زاد ما يتنافس سامى ذراه للمحبّ تؤنس

سارع إلى ذاك الذرا تخييما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

شرف لأمّته به يتغابش شرق لأشرق شرقه يتفرّش

شرقا و غربا فيه عقل يدهش شوقا إليه قد إليه أجهش

شكرا على النعمى تزيد نعيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صفة له ذات له هو أخلص صفتا عن الشيء الذى يتنقّص

صفة له حارت عقول تفحص صفة شريعته النقائص تخلّص

صفة له و بربّه لتديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۹۲

ضاع المديح لأحمد يتروّض ضاع الذى عن ذكره هو يعرض

ضاف حباه كفّه ليفضفض ضاف بذكراه المنى يتعرّض

ضاعف له الآمال صله مديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

طال العوالم إذ أتى هو يقسط طابت مدائحه فطاب المغبط

طابت به النعمى و طاب المنشط طام له بحر الألى يتنشّط

طالب مطالب كلّها تتميما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

ظهر النبيّ و ربّ أحمد يلحظ ظهر لأمته ظهير ملحظ

ظهروا على الأمم افتخار ملحظ ظلّ له ظلوا به يتحفّظوا

ظلت الظلال إذا ذكرت نديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

عدّ المحاسن للنبى يستتبع عدّ له آياته تتنوّع

عدّاه مولاه إليه فيطلع عدّ لذكراه غداة يشفع

عد باب من للمؤمنين رحيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

غزرت له الآيات هنّ نوابغ غزر الحيا عزّ الورى هو سائغ

غمر الرّدا بحر الندى يترفّغ غمر البلاد بذكره يتفرغ

غمر بذكراه الفؤاد و سيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

فاض الجمال و فاض منه يوسف فاز المحبّ بذكره لا يوسف

فاضت عليه فيوضه يتزلّف فاش له الآيات لا يتكلّف

فاد له كلّ بهم تقديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

قمر بدا من أفقه هو فائق قمر يجاب بذكره و يعلق

قمقام كلّ الأنبياء و سائق فمقام جود عمّ كلّا يرفق

قم بابه مستنجحا و مقيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

كلّا به فتح الوجود و يدرك كلّ الكمالات احتوى لا يشرك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۹۳

كلّ اللسان عن البيان و يمسك كلىء الذى بجنابه يتمسّك

كل مرتجاك إليه ثق تكريما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

لمحمد هو مصطفى و مؤمل لمحمد بن محمد ما يأمل

لمحت عليه بروقه يتحمّل لمعان نور و داده يستكمل

لم لا أصيب من الحبيب شميما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

من مثل ذاك المصطفى يتعظّم من كلّ وجه للكمال ليعظم
منّ علينا من إله أعظم منه العروض إليه و هو يعظم
من كان للربّ العظيم كليما صلّوا عليه و سلّموا تسليما
نور الإله حبيبه يتمكّن نادى الإله حبيبه يتمكّن
نال نوالا شرحه لا يمكن ناد له طوبى لمن يتمكّن
نادى الحبيب بذكره تكليما صلّوا عليه و سلّموا تسليما
و اللّه مثل محمد لا يشبه و اللّه مولاه العوالم كيف هو
وجد الوجود بذاته و به له وجد علا و بوجهه فتوجّهوا
وجدوا و جاد من النجاة مقيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما
هو أكمل من كلّ وجه أوجه هو ذا الحبيب القلب منه أوجه
فأولى طيبه و أوجه حول من الأرض المكثر أوجه
هانا بنار الشوق صرت سقيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما
لا ريب لا مثل له و اللّه لا لاحت له الآيات عرشا قد علا
لاقى ارتقاء ربّه فتوصّلا لاج به نال المنى إلى الألا
لازم لباب جنابه تقسيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما
يا أكرما كلّ إليه يلتجى يأتى محمدك العفيفى الذى
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۹۴
يقنا توسّل بالصفى و يحتذى يده إليك يمدّ فقرا ترتجى
يمن افتتاح باسمه تختيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

قلت: و إنما أثبتّ هاتين القصيدتين فى جملة ما سردته، و إن كان فيهما من التكلّف ما لا يخفى لأوجه؛ أحدها: أنّ صاحبهما من الصالحين يسلم له و يتبرّك بكلامه، و من اعترض على مثله يخشى عليه من تسديد السهام لملامه، الثانى: أنهما فى مدح النبى صلى اللّه عليه و سلم و عليه من اللّه أزكى صلاته و أتمّ سلامه، الثالث: أنّ المراد جمع ما وقفت عليه فى البحر و الروى و المعنى؛ لأنّ بعضا من العلماء ذكر لى أنه لم يطلع فى ذلك إلّا على قصيدة ابن الجيان، فأحببت أن أتعرّض لتعريفه بهذا العدد و إعلامه، على أنّ القصد الأعظم ما هو إلّا التلذّذ بذكر أمداح المصطفى صلى اللّه عليه و سلم، خصوصا المقتبس فيها قوله تعالى: صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً.

و قد كنت نويت أن أؤلف فى ذلك بالخصوص كتابا أسمّيه «روضة التعليم، فى ذكر الصلاة و التسليم، على من خصّه اللّه تعالى بالإسراء و المعاينة و التكليم» و اللّه تعالى المسؤول فى التيسير، فلنزد عليه يسير.

[تسديس آخر فى مدح النبى المصطفى لأبى عبد اللّه بن العطار، الجزائرى]

و من ذلك هذا التسديس الذى وجدته فى كتاب «درر الدرر» للشيخ الإمام أبى عبد اللّه محمد بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر العطار الجزائرى من جزائر بنى مرغنة، و هى المشهورة الآن بالجزائر: [الكامل]

أنوار أحمد حسنها يتلألأ المصطفى بحلى الكمال يحلأ
الشمس تخجل و هو منها أضوأ النور منه مقسّم و مجزّأ
قد زان ذاك النور إبراهيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على المسكك الفتيق الأطيب صلّوا على الورد المعين الأعذب

صلّوا على نور ثوى فى يثرب صلّوا عليه بمشرق و بمغرب

ما زال فى الرسل الكرام كريما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على زهر الكمال النابت صلّوا على طود البهاء الثابت

صلّوا على من فاق نعت الناعت خير الورى من ناطق أو صامت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۹۵

و أعزّهم نفسا و أطهر خيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على طيب يفوح و يمكث صلّوا على من عهده لا ينكث

صلّوا على من بالهدى يتحدّث عنه المعارف و الحقائق تورث

أضحى يعلّمنا الهدى تعليما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من نوره يتبلّج صلّوا على من عرفه يتأرّج

للحضرة العلياء ليلا يعرج صلّوا على من حاز مجدا يبهج

و بها على العرش المجيد مقيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على البدر المنير اللائح صلّوا على صبح الرّشاد الواضح

صلّوا على المسكك الذكى الفائح صلّوا على الهادى النبى الناصح

الرشد فهّم و الهدى تفهيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من شرعه لا ينسخ صلّوا على من عهده لا يفسخ

صلّوا على من بالثناء يضمخ علياؤه عليا الكمال تؤرخ

نال المفاخر و الكمال قديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على الهادى لأعذب مورد صلّوا على خير الأنام الأوحد

صلّوا على بدر التمام الأسعد بمحمد فزنا، و من كمحمد

اللّه عظّم قدره تعظيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالنبوّة ينفذ صلّوا عليه فللسعادة يجبذ

صلّوا على من حبّه لا ينبذ أبصارنا طرّا بأحمد لوّذ

فى موقف ينسى الحميم حميما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على البدر المنير الزاهر صلّوا على الروض البهى الناضر

صلّوا على مزن العلوم الماطر صلّوا على المسكك الفتيق العاطر

و تنعّموا بصلاتكم تنعيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على نور يلوح و يبرز صلّوا على مسكك يفوح و يحرز

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۹۶

بمحمّد حلل الكمال تطرّز و لمجده درر السيادة تفرز

قد نظّمت لكماله تنظيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على الدرّ النفيس الأنفس صلّوا عليه فهو روض الأنفس

صلّوا عليه فهو زين المجلس و منى الجليس و نزهة المتأنّس

راق النفوس شذا و طاب شميما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على المختار أفضل من مشى صلّوا على النور الذى قد أدهشا

بمحمد عرف القرنفل قد فشا ورد لظمآن إليه تعطّشا

يبرى الضنا أبدا و يروى الهيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالكمال يخصّص صلّوا على من نوره لا ينقص

صلّوا عليه على الدوام و أخلصوا ظلّ ضفا بالأمن لا يتقلّص

شمل الورى طرّا و طاب عميما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على صبح تبلّج بالرضا و قضى على ليل الضلالة فانقضى

صلّوا على من بالنجاة تعرّضا صبح تذهّب نوره و تفضّضا

و علا و خيّم ضوءه تخييما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالبهاء يخطط صلّوا على ورد بمسك يخلط

للمصطفى بسط الكرامة تبسط و له يواقيت السناء تقسط

و بنوره أضحى الزمان و سيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالمهابة يلحظ صلّوا على من بالنبوّة يلحظ

صلّوا على من بالهداية يلفظ لعصاته نار الجحيم تغيظ

و رضاه هبّ لنا و طاب نسيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على البدر المنير الساطع صلّوا على الروض الأنيق اليانع

صلّوا على الصبح المنير اللامع صلّوا على المسك الفتيق الذائع

و وقاه فى وجه الهجير مغيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۹۷

صلّوا على النّور الأعمّ السابغ صلّوا على البدر الأتمّ البازغ

صلّوا على المسك الذكىّ البالغ صلّوا على الورد المعين السائغ

للواردين به غدا تتميما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالتقرّب يوصف صلّوا على من بالمحبّة يعرف

صلّوا على من بالعلا يتشرّف صلّوا عليه به الكمال يزخرف

المجد فخّم ذكره تفخيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على مسك يطيب لناشق صلّوا على الروض الأنيق الرائق

إشراقه بمغارب و مشارق صلّوا على البدر الأتمّ الفائق

باد تنسّم حسنه تنسيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من قدره لا يدرك صلّوا على من باسمه يتبرّك

صلّوا على من جسمه لا يترك صلّوا على من للهدى يتحرّك

و به تحلى ظاعنا و مقيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على البدر المنير الأكمل صلّوا على الروض البهيّ الأجمل

صلّوا على الهادى النبيّ الأحفل المصطفى الأرقى لأنزه محفل

فيه تقدّم وحده تقديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على زهر أنيق باسم صلّوا على عرف ذكيّ ناسم

صلّوا عليه فهو بدر مواسم من جوده نلنا بخير مقاسم

أنواره قد تممت تتميما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالنبوّة زيّنا صلّوا على من بالكمال تمكّنا

صلّوا على هاد أبان و بيّنا بمحمّد فزنا بإدراك المنى

للخلق أرسل رحمة و رحيما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على الهادى النبيّ الأنزه بدر التّمام و روضة المتنزّه

فى فضله كلّ الشهادة تنتهى أبدا بلثم ثراه فخر الأوجه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۹۸

فى حبّه أضحى الغرام غريما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على نور بطيبة قد ثوى فعلا و فاض على البسيطة و احتوى

صلّوا عليه فليس ينطق عن هوى صلّوا عليه فهو ينجى من هوى

فى موقف يذر السليم سليما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على نور تلألأ و اعتلى صلّوا على صبح مبين يجتلى

صلّوا على مسك يخالط مندلا صلّوا على درّ تزان به الحلى

و به المعالى خيّمت تخييما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من نال مجدا عاليا و سما و حاز مفاخرا و معاليا

صلّوا على نور تبدّى حاليا و بمدحه الرحمن زين حاليا

و إذا سما المخدوم زان خديما صلّوا عليه و سلّموا تسليما

و قد توارد فى بعض هذا التسديس مع بعض بيوت القصيدة السابقة التى أولها:

يا أمّة الهادى المبارك أحمد

حسبما يعرفه المتأمّل، و الذى فى ظنّى أنّ صاحب «يا أمّة الهادى» متأخّر عن ابن العطار فهو الذى أخذ منه، و اللّه سبحانه أعلم.

و توارد أيضا فى عدّة أبيات مع تخميس الكاتب أبى العباس بن جمال الدين المتقدّم ذكره و أوّله:

اللّه زاد محمدا تعظيما

و هما على منوال واحد، غير أنّ ذلك تخميس و هذا تسديس، و ابن جمال الدين أقدم من ابن العطار تاريخا، فيحتمل أن يكون ألمّ بكلام ابن جمال الدين، أو ذاك من توارد الخاطر.

[تسديس آخر فى مدح الرسول]

و رأيت فى هذا الكتاب تسديسا آخر لم يرتّبه على حروف المعجم، و جعل روى الشطرين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۲۹۹

الأخيرين حرف اللام، فأحببت ذكره هنا زيادة فى التبرّك بمدح المصطفى عليه أجلّ الصلاة و السلام، و هو: [الكامل]

نور النبيّ المصطفى المختار أربت محاسنه على الأنوار

مرآه يخجل بهجة الأقمار نور ينجّى من عذاب النار

قد زان ذاك النور إسماعيلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على البدر المنير المشرق صلّوا عليه بمغرب و بمشرق

صلّوا على غصن الكمال المورق بالمصطفى المختار برق الأبرق

يهدى غراما للنفوس دخيلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من قد تناهى فخره صلّوا على من قد تعاظم قدره

صلّوا على من قد تأرّج نشره صلّوا على من قد تناسق درّه

عقد الثناء لمجده إكليلا صلّوا عليه و سلموا تسليما

صلّوا على خير الأنام المرسل صلّوا على البدر المعين السلسل

صلّوا على أسنى سنا المتوسّل صلّوا على نور الهدى المسترسل

ظلّ علينا لا يزال ظليلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على النور الأتمّ الأكبر صلّوا على من فاق عرف العنبر

صلّوا عليه فهو أصدق مخبر كم زان ذكر المصطفى من منبر

و أراح من دار الضّلال عليلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على النور الأتمّ الأكبر صلّوا على من فاق كلّ مبشّر

صلّوا عليه هديتم من معشر صلّوا على بدر يرى فى المحشر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۰۰

حاز الجمال فلا يزال جميلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على النور البهيّ المغرب صلّوا عليه بمشرق و بمغرب

صلّوا على الورد الشهيّ المشرب بالفكر يشرب ويح من لم يشرب

منه، و ينقع بالورود غليلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من فخره لا ينكر صلّوا على من فى النجاة يفكّر

صلّوا على من بالنبوّة يذكر صلّوا على من بالهداية يشكر

شكرا على مرّ الزمان حفيلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالسيادة قد سما صلّوا على من فى الكمال تقسّما

صلّوا على صبح بدا متبسّما صلّوا على طيب سرى و تنسّما

و غدا وراح معطّرا و بليلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على مسك يخالط عنبرا صلّوا عليه سرى و فاح و ما انبرى

صلّوا عليه حوى الكمال الأكبرا لبس الجمال مطرّزا و محبّرا

و بذاك قد خصّ الجليل جليلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من بالنبوّة توّجا صلّوا على صبح بدا و تبلّجا

صلّوا عليه لقد أضاء و أبهجا و محا برونق نوره ظلم الدّجا

نور يعود الطرف منه كليلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على نور تبلّج لائحا صلّوا على نور تبرّج واضحا

صلّوا على مسك تأرّج فائحا و بطيبه ملأ الوجود روائحا

و بحبّه يستوجب التبجيلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۰۱

صلّوا على من نوره ملأ الفضا صلّوا عليه لقد أضاء و ما انقضى

صلّوا على من حفّ حقّا بالرضا لنجاتنا خير الأنام تعرّضا

و هدى إلى نيل الرشاد سبيلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على بدر يدوم كماله باق على مرّ الزمان جماله

صلّوا على من قد تعاظم حاله و دنا إلى ورد الرضا ترحاله

و إلى الورود به أجدّ رحيلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا بأجمعكم على شمس الهدى صلّوا على بدر يزين المشهدا

صلّوا عليه فمن رآه تشهّدا صلّوا عليه به الرشاد تمهّدا

أرضى النزيل و بيّن التنزيلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من قد تأثّل مجده فسما به غور الحجاز و نجده

ما زهره لولاه أو ما ورده بالمصطفى المختار يعذب ورده

فى تربه ما أعذب التقبيلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على محبوبنا مطلوبنا صلّوا عليه فهو روض قلوبنا

صلّوا عليه فهو عطر جيوبنا صلّوا على مطلوبنا محبوبنا

لا نرتضى من حبّه تبديلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على خير الأنام الأطهر صلّوا على النور الأتمّ الأبهر

صلّوا على الصبح المنير الأشهر صلّوا عليه باتّصال الأشهر

اللّه فضّلنا به تفضيلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

صلّوا على من قد تناهى فى العلا صلّوا على من كان أكمل أجملا

صلّوا على درّ تزان به الحلى المجد ألبسه الكمال فأجزلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۰۲

و اللّه كمّل مجده تكميلا صلّوا عليه و سلّموا تسليما

و أظن أنى رأيت بعض هذه القصيدة فى كتاب العروسى المغربى، و هو متأخّر.

[قصيدة فى مدح الرسول لابن العطار]

و من قصائد هذا الكتاب قصيدة صرّح فيها بابن المغربى، و هى: [الكامل]

أهدت لنا طيب الروائح يثرب فهبوبها عند التنسّم يطرب

رقّت فرقّ من الصبابة و الأسى قلب بنيران البعاد يعذّب
شوقا إلى أسنى نبيّ حبّه كنز النجاة فنعم هذا المطلب
المصطفى أعلى البريّة منصبا قد جلّ فى العلياء ذاك المنصب
فزنا به بين الأنام بديمة أبدا علينا بالأمانى تسكب
حاز السيادة و الكمال محمد فإليه أشتات المحامد تنسب
محبوبنا و نبيّنا و شفيعنا يدنى إلى روض الرضا و يقرّب
بضيائه الملتاح أشرق مشرق و بنوره الوضّاح أغرب مغرب
و به وردنا الأمن عذبا صافيا و به ترقى فى المعالى يشجب
صبح الهدى أنواره بنبيّنا صبحا تروق الناظرين و تعجب
إن طابت الأنفاس من زهر الرّبا ريّاه أذكى فى النفوس و أطيب
صيّرت أمداح النبيّ المصطفى لى مذهبا يا حبّذاك المذهب
فعليّ من أمداح أحمد خلعة موشيّة و لها طراز مذهب
و بمدحه شمس الرضا طلعت على أفقى تضيء و نورها لا يغرب
أ ترى يبشرنى البشير بقربه و أبثّ أشواق الفؤاد و أندب
و يقال لى بشراك قد نلت المنى يا مغربيّ إلى متى تتغرّب
هذا مقرّ الوحى هذا المصطفى هذا الذى أنواره لا تحجب
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۰۳
رد ورد طيبة و اشف من ألم النوى قلبا على جمر الأسى يتقلّب
كم ذا التوانى عن زيارة مورد عذب المقام به ولذّ المشرب
منّا السلام على النبيّ محمد ما أسفرت شمس و أشرق كوكب

[حديث عن كتاب لابن العطار فى مدح الرسول صلى اللّه عليه و سلم]

و قد سمّى هذا الكتاب ب «نظم الدرر، فى مدح سيد البشر» و «الورد العذب المعين، فى مولد سيد الخلق أجمعين» و ليس هو بابن العطار المشرقى الذى كان معاصرا لابن حجّة الحموى، فإنّ ذلك متأخّر عن هذا، و هذا مغربى و ذاك مشرقى، فلم يتّفقا لا فى زمان و لا فى مكان، غير أنهما اشتركا فى الشهرة بابن العطار.

و وجدت على ظهر أول ورقة من بعد تسميته السابقة ما صورته: ممّا أنشأه الشيخ الفقيه القاضى العدل الأديب البارع أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن محمد بن أبى بكر بن يوسف العطار، رواية العبد الفقير إلى اللّه تعالى محمد بن أحمد ابن الأمين الأقشهرى، قرأت هذا الكتاب و قصائده على حروف المعجم و قصيدتين غيرها على ناظمها القاضى المذكور قراءة ضبط و تصحيح و رواية مقابلة بأصله بموضع الحكم فى مدينة الجزائر من أقصى إفريقية- حرست- فى دول متفرّقة، و آخرها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذى القعدة أواخر عام سبعة و سبعمائة، و نصّ ما كتب على نصّ قراءتى عليه: صحيح ذلك، و كتبه محمد بن عبد اللّه بن محمد بن العطار، و الحمد للّه رب العالمين؛ انتهى.

و رأيت أثر ما تقدّم بخطّ الأقشهرى ما صورته: سمع من لفظى جميع «نظم الدرر، فى نسب سيّد البشر» لجامعه القاضى المذكور أعلاه القاضى شمس الدين محمد بن المرحوم عبد المنعم الشيبى و ولده أبو محمد عبد الدائم و ابن أخيه أبو محمد عبد الباقى بن تاج

الـدين بن حفص بن أبى بكر البورى و غيرهم، نحو سـماعى قراءة منى على مؤلّفه أبى عبد اللّه محمد بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن محمد بن أبى بكر العطار سنة سبع و سبعمائة، قاله راسمه الأقشهرى؛ انتهى.

و من قصائد هذا الكتاب قوله: [الكامل]

أبدا تشوقك أو تروقك يثرب فإلى متى يقصيك عنها المغرب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۰۴

هى جنّة فى النفس يعذب ذكرها و القرب منها و التدانى أعذب

المسك معترف بأنّ نسيمها أسمى و أسرى فى النفوس و أطيب

و العنبر الوردىّ دان لطيبها منه التعطّر و التأرّج يطلب

جيش الصبابة شنّ غارات الأسى من بعدها فالصبر منها ينهب

و الشوق يثنينا إليها كلّما وقف الحمام على الأراكة يخطب

حتى النسيم إذا سرى من ربعها يثنى من الروض الغصون و يطرب

حيّا فأحيا المستهام بطيبه فنفوسنا بهبوبه تستطيب

يا حبّذا فى ربع طيبة وقفة بين الركائب و المدامع تسكب

حتى يرقّ للوعتى و صبابتى و دموع عينى كلّ من يتغرّب

شوقا لمن زان الوجود، و حبّه يدنى إلى رتب الرضا و يقرّب

ساد الأنام المصطفى بكماله فإليه أجناس السيادة تنسب

بالنور زاد حلى على آبائه و بحسن ذاك النور أعرب معرب

الشمس يغرب نورها و ضياؤها أبدا و نور المصطفى لا يغرب

اللّه أرسله إلينا رحمة فبجاهه عنّا الرضا لا يحجب

بمحمد فزنا بإدراك المنى فالوقت طاب لنا و طاب المشرب

خير الورى محبوبنا و نبيّنا حزنا به الجاه الذى لا يسلب

روض النفوس محمد و نعيمها و به يفضّض حليها و يذهّب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۹؛ ص۳۰۴

شرف تقادم قبل آدم عهده للنور أطناب عليه تطنّب

منّا عليه مدى الزمان تحيّة يثنى عليها المندلىّ و يطنب

[من قصائد كتاب ابن العطار فى المديح]

و منها قوله رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

طلعت، و قارنها البهاء، بدور أبدا على قطب السعود تدور

من نور أحمد يستمدّ ضياؤها و بهاؤها، يا حبّذاك النّور

و يزيد ذاك النور حسنا فائقا يوم القيامة و الأنام حضور

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۰۵

محبوبنا أسمى البريّة منصبا يوم النشور لواؤه منشور

فزنا بخير العالمين محمد و جرى بوفق مرادنا المقدور

لاحت لنا أنواره فزماننا نور، و أنس دائم و سرور

بالمصطفى المختار قابلنا الرضا بين الأنام فسعينا مشكور

اللّه فضّله على كلّ الورى فهو الحبيب، و فضله مشهور

القرب خصّصه و عظّم قدره فسما ببهجة نوره ناحور

خير النبيّين الكرام نبيّنا بالنور فى العرش اسمه مسطور

يا صاحبىّ نداء صبّ مغرم قلبى بحبّ المصطفى معمور

عوجا علىّ بوقفة و بعطفة إنى على ألم الفراق صبور

إن لم أزر بالجسم قبر المصطفى فالقلب من بعد المزار يزور

نيران قلبى بالبعاد توقّدت و مدامعى خدّى بها ممطور

فمن الفراق الحتم نيران لها لهب، و من فيض الدموع بحور

فمتى أفوز بوقفة فى طيبة و القلب منى فارح مسرور

و يقال لى انزل بأكرم منزل و ابشر فأنت على النوى منصور

إن جاد دهرى بالوصول لطيبة بعد المطال فذنبه مغفور

هى جنّة من حلّها نال المنى و سما و ساد و صافحته الحور

حتى النسيم إذا سرى من نحوها يصبو إليه المسك و الكافور

و منها قوله رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

أمّا النسيم فقد حيّاك عاطره و بارق المنحنى أحياك ماطره

خاطر بروحك فى نيل الوصال فكم من نازح نال طيب الوصل خاطره

زهر الرّبا باسم تندى كمائمه رقّ النسيم بها إذ راق ناظره

ما حلّ روض المنى الغضّ الجنى دنف فاستضحكت فيه من عجب أزاهره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۰۶

و النهر أبرز للبدر الأتمّ حلى و البدر طرّز ماء النهر زاهره

و الغصن تلعب أنفاس الرياح به و الطلّ قد نثرت منه أزهاره

و الليل قد رقمت بالشّهب حلّته و البرق يبسم فى الظّلماء ساهره

و النور محض جنى فوق الندى درر و عقدها زيّن الأغصان دائره

و ملبس الروض قد زانته خضرته و الليل بالفجر قد شابت غدائره

و الصبح سلّ على جيش الظلام ظبا و عند ما سلّها ولّت عساكره

للزهر سرّ و عرف الروض فاضحه و المسك إن فضّ لا تخفى سرائره

هل زار طيبة ذاك العرف حين سرى؟ فتربها أبدا مسك يخامره

طابت بطيب رسول اللّه فهى به سمت و فاقت بمن فاقت مفاخره

به معدّ تسامى للعلا، و به حاز المكارم و اعتزّت عشائره

أسنى النبيّين قدرا نوره أبدا يزيد حسنا على الأقمار باهره

و أفضل الخلق من عرب و من عجم أربت على الرمل أضعافا مآثره

إن كان للرّسل عقد و هو آخرهم نظما فقد زان عقد الرّسل آخره

روض من الحلم غضّ راق منظره بحر من العلم عذب فاض زاخره

إن جاد صاح بلقياه الزمان فمل إلى مقام حبيب أنت زائره

وصف له حال صبّ مغرم دنف رام الدنوّ فأقصته جرائره

و اذكر هناك بعيد الدار غرّبه غرب فما غائب من أنت ذاكره

أهدى السلام بلا حدّ و لا أمد إلى محلّ رسول اللّه عامره

و منها قوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

أ منزلنا جادت ثراك السحائب و إلّا فجادته الدموع السواكب

و وشّاك و سمىّ الغمام بدرّه و حلّى محلّا حلّ فيه الحبائب

و حيّا نسيم الريح بالجزع آنسا فما عاب ذاك الأنس بالجزع عائب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۰۷

فيا عهدنا بالخيف هل أنت عائد؟ و يا أنسنا بالجزع هل أنت آئب

و هل راجع عصر الشّباب الذى انقضى و قد شيبت سود الشعور الشوائب

و هيهات أن يقضى لنا برجوعه كما كان غصنا مورقا و هو ذاهب

و قد سلب الدهر المفرق أنسنا و أودى به و الدهر للأنس سالب

فما وهب الأنفاس إلّا مغالطا و أىّ بخيل للنفائس واهب

أطالب أيام العقيق بعودة و قد عزّ مطلوب له أنا طالب

فيا صاحبى كن مسعدى فى صبابتى و إلّا فما أنت الصديق المصاحب

إذا ما بدا برق الحجاز فأدمعى تفيض إلى الورّاد منها المشارب

أعاتب أيام البعاد، و قلّما يبرّد حرّ الشوق بالعتب عاتب

و أبخل بالصبر الجميل، و إنه لينهبه من وارد البين ناهب

و لمّا بدت أعلام طيبة قصّرت من الشوق ما قد طولته السباسب

وقفنا و سلّمنا و فاضت دموعنا و حنّت إلى ذاك الجناب الركائب

نزلنا و قبّلنا من الشوق تربها و طابت بذاك الترب منّا الترائب

فللعين من تلك المعاهد نزهة و للقلب فى تلك الرسوم المآرب

حوت سيد الرسل الذى جلّ قدره له فى مقام القرب تقضى المطالب

به غالب حاز المفاخر سالفا و لا شرف إلّا الذى حاز غالب

بهادى الورى طرّا مناصبه سمت و راقت بخير الرّسل تلك المناصب

محمد الهادى بإشراق نوره تمزّق من ليل الضلال غياهب

ترقّى إلى السبع الطباق و ما بدا له فى ترقّيه من الحجب حاجب

و خاطبه فى حضرة القدس ربّه و أدناه فى حال الخطاب المخاطب

نبىّ بدت أنواره و تلألأت فمنها تضىء النيرات الثواقب

لقد أشرقت شمس النهار بنوره و بدر الدّجى لمّا بدا و الكواكب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۰۸

أعلّل قلبى بالوصول لقبره و إن غبت ما قلبى و حقّك غائب

و إنى أناديه و إن كنت نازحا نداء غريب غرّبته المغارب

إذا كنت لى يا سيد الرّسل شافعا فما أنا من نيل السعادة خائب

بمدحك يا من جلّ قدرا و حظوة و جاها و تمكينا تنال المواهب

فيا معشر الأحباب إنّ نبيّنا إلى فوزنا داع و ساع و خاطب

ألا فاذكروه كلّ حين و سلّموا عليه، بذاك الذكر تسم المراتب

و قوموا على أقدامكم عند ذكره فذلك فى شرع المحبّة واجب

و منها قوله رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

شمس الهدى و ضحت بأشرف مرسل و زجت دجى ليل الضلال المسبل

من وجه عبد اللّه كان ظهورها للخلق طرّا فى ربيع الأول

خلعت على الآفاق أشرف ملبس و بدت فأىّ دجنّة لم تنجل

فالنّيّران المشرقان كلاهما للمصطفى اعترفا بعجز مجمل

فالشمس لمّا أن بدت أنواره أومت إليه بالسلام الأحفل

و البدر قابله بحسن كامل فانشقّ للبدر الأتمّ الأكمل

و لليلة الإسراء أجمل منظر بجمال إسراء الحبيب الأجمل

فضلت على الأيام من شرف لما حازته من شرف النبىّ الأفضل

و بها بدا نور النبىّ المصطفى و بدت لنا نار الكليم المصطلى

إذ جاءه الروح الأمين مسلّما و مبشّرا بورود أعذب منهل

فسرى إلى أسنى محلّ و ارتقى و الجفن منه بنومه لم يكحل

رفعت له حجب الجلال بأسرها فرأى جلالا لم يكن بممثّل

حتى انتهى الروح الأمين لحده و بحيث يذهل عقل من لم يذهل

ناداه لمّا أن ترقّى وحده: لك يا محمد ذا التقرّب ليس لى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۰۹

ارقا إلى الأفق السنىّ مشاهدا و اترك حظوظك بالحضيض الأسفل

و اسعد بزورة من تعاظم ملكه و اصعد إلى عرش الحبيب الأول

فسما فشاهد حضرة القدس التى سبحاتها تغشى حجا المتأمّل

و بدا الكمال له و نودى مقبلا: أهلا و سهلا بالحبيب المقبل

أنت المراد لسرّنا و لوحينا أقبل إلينا يا محمد تقبل

و البس بحضرة قدسنا خلع الرضا منّا و جرّ الذيل منها و ارفل

و لك الوسيلة يا محمد عندنا و بها نجيب وسيلة المتوسّل

فاحكم بما يوحى إليك من الهدى و أنزل بأنوار الكتاب المنزل

فيه شفاء للصدور فبرؤها بمفصّل منه و غير مفصّل

يا نفس هل تشفيك زورة طيبة فرسومها برء لكلّ مقبّل

ولّى زمانك فى التصابى و المنى فدعى التصابى و الأمانى و ارحلى

يا قلب، روعات الجوى هل تنقضى عنى؟ ولوعات الجوى هل تنجلى

و أزور قبر الهاشمى محمد قبل الرحيل و قبل عذل العذّل

إنى و إن بخل الزمان بقربه فبلوعتى و بدمعتى لم أبخل

أسقى الثرى تسكابها، فمعينها يهمى، و نار صبابتى ما تأتلى

لهفى على بعد المزار متى أرى يقضى الزمان بقرب ذاك المنزل

و متى أبشّر بالمنى، و يقال لى: يقضى الزمان بقرب ذاك المنزل

و متى أبشّر بالمنى، و يقال لى: هذا مقرّ الوحى دونك فانزل

و تهبّ تلقائى نواسم طيبة إنى أجود بها إليك و حقّ لى

فلقد بليت بلوعة و بدمعة و هبوبك الأزكى شفاء المبتلى

خيلت قربك برء داء صبابتى ضنّ البعاد به فطال تخيّلى

شوقا إلى خير الأنام بأسرهم سؤلى و أسنى مقصدى و مؤملى

فبه أنا متوسّل فى مقصدى أسنى التوسّل بالرسول المرسل

و بجاهه عند الأنام مآربى و وسائلى تقضى و إن لم أسال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۱۰

و به الأمانى قد حللن بساحتى و حوادث الحدثان صرن بمعزل

بشراك نفسى فالأمانى أعجلت نحوى تبشّرنى بخير معجّل

بمديحه أضحى الزمان مسالمى تندى أسرّة وجهه المتهلّل

فبه إلهى قد رجوتك راغبا دون الأنام فباب جودك موئلى

و إليك ربى رغبتى و توسّلى و عليك فى كلّ الأمور توكّلى

و ثبت فى آخر هذا الكتاب ما صورته: قال محمد بن عبد اللّه بن محمد بن محمد بن أبى بكر بن يوسف بن العطار نفعه اللّه تعالى بالعلم: كان الفراغ من إكمال هذا الفصل و إتمامه، حسب نثره و نظامه، ضحوة يوم الجمعة الثانى من شعبان المكرم سنة ست و تسعين و ستمائة، ما عدا أربع قصائد اشتمل عليها، فإنها تقدّمت على إنشائه، أودعتها فيه، و اللّه سبحانه المستعان، و ذلك بمدينة الجزائر- جزائر بنى مرغنة- من أقصى إفريقية من أرض متيجة، صانها اللّه تعالى! انتهى.

و ثبت فى آخره بخطّ بعض الأكابر ما نصّه: تأليف الفقيه العالم الأديب البارع أبى عبد اللّه محمد بن العطار الجزائرى؛ انتهى.

و هو كتاب نفيس جمع فيه بين حسن النظم و النثر، فاللّه تعالى يجازى صاحبه أفضل الجزاء! بمنّه و كرمه.

[لابن العريف، فى مدح الرسول]

و لا بأس أن نورد هنا من كلام أهل الأندلس بعض الأمداح النبوية زيادة على ما ذكر هنا فنقول:

قال العارف باللّه تعالى ابن العريف فى كتاب «مطالع الأنوار، و منابع الأسرار»: [الوافر]

و حقّك يا محمد إنّ قلبى يحبّك قربة نحو الإله

جرت أمواه حبّک فی فؤادی فهام القلب فی طیب المیاه

فصرت أری الأمور بعین حقّ و کنت أری الأمور بعین ساهی

إذا شغف الفؤاد به ودادا، فهل ینهاه عن ذکراه ناهی

یهیم بذکره و یحنّ شوقا حنین المستهام إلی الملاهی

یخامره ارتیاح منه حتی یقول أولو الجهالة: ذاک لاهی

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۹، ص: ۳۱۱

و ما هو حقّ فضل قد رآه فصار یجدّ فی طلب الملاهی

فسوف ینال فی الدنیا سرورا و فی الدار الأخیرة کلّ جاه

و یعطی ما تمنّی من أمان کما قد حبّ محبوب الإله

و قال أیضا رحمه اللّه تعالی: [المجتث]

یا عاذلی فی طلابی دعنی من العذل دعنی

سأعمل العیس شوقا بالعزم دون التأنی

إلی ضریح رسول مصدّق حسن ظنّی

أشدو علی کلّ فجّ حین الحمام یغنّی

یا أطهر الخلق إنی بذلّتی عبد قنّ

فأعتق الیوم رقّی و انظر بعطفک منّی

فأنت أنت ملاذی إیاک إیاک أعنی

إن غبت عن عین جسمی ما غبت عن عین ذهنی

لولاک کنّا أناسا أشرّ من کلّ جنّ

فإذ بعثت رسولا فخیر فضل و منّ

للّه خالص شکری عساه یصفح عنی

فإننی عبد سوء قلبت ظهر المجنّ

و قال فی خاتمة ذلک الکتاب: [الکامل]

صلّی الإله علی النبیّ الهادی ما لاذت الأرواح بالأجساد

صلّی علیه اللّه ما اسودّ الدّجی فکسا محیّا الأفق برد حداد

صلّی علیه اللّه ما انبلج السنی فابیضّ وجه الأرض بعد سواد

صلّی علیه اللّه ما همع الحیا فسقی البلاد برائح أو غادی

صلّی علیه اللّه ما هفت الصّبا و شدا علی فنن الأراکة شادی

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۹، ص: ۳۱۲

صلّی علیه اللّه ما ألف الکری جفن فخامره لذیذ رقاد

صلّی علی المختار أحمد ربّه ما استمسکت نار بطیّ زناد

صلّی علی خیر الأنام محمد من خصّه بالنور و الإرشاد

صلّی الإله علی رسول حاشر حشر الأنام لدیه فی المیعاد

صلّى الإله على رسول عاقب فى الدهر و هو بفضله كالهادى

صلّى الإله على رسول خاتم ختم النبوّة بالكتاب الهادى

صلّى الإله على المقفّى ما اقتفى بشر نبوّته بغير عناد

صلّى على ماحى الضلال إلهه ما غرّدت طير على الأعواد

صلّى الإله على نبى طالع بملاحم قصمت فؤاد العادى

صلّى عليه اللّه فهو نبيّه ناداه بالإرشاد خير مناد

صلّى عليه اللّه فهو رسوله أعطاه راية عزمة و رشاد

صلّى عليه اللّه فهو خليله أسدى إليه منه كلّ سداد

صلّى عليه اللّه فهو صفيّه صفّى سريرته من الأحقاد

صلّى عليه اللّه فهو وليّه والاه فى الإصدار و الإيراد

صلّى عليه اللّه فهو المصطفى من كلّ حضّار العباد و بادى

صلّى عليه اللّه فهو المجتبى يجبى إليه الخير دون نفاد

صلّى عليه اللّه فهو المنتقى نور الزمان و واحد الآحاد

صلّى عليه من براه مطهّرا و اختاره طودا من الأطواد

صلّى عليه من براه بفضله و أعاده حيّا لغير معاد

صلّى عليه من أراه جلاله و أناله من ذاك كلّ مراد

صلّى عليه من أحلّ فؤاده فى ظلّ عرش ثابت الأوتاد

صلّى عليه من غذاه بنعمة فتضاعفت كتضاعف الأعداد

صلّى عليه من كساه عوارفا و اختصّه منه بخير أياد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۱۳

[لأبى عبد اللّه بن عمران، فى مديح الرسول]

و قال الشيخ أبو عبد اللّه بن عمران مادحا لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم مرتّبا على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب، كما تقدّم: [الكامل]

ألف: أيا خير البريّة هذى مدحى، و ما أنا فى مقالى هاذى

باء: بها أظهرت صدق محبتى و بذلك الجاه الكريم لياذى

تاء: تخذت وسيلة ما حكته و جعلته يوم المعاد عياذى

ثاء: ثنائى ليس يحصر فضلك ال زاهى و لا يحويه باستحواذ

جيم: جلالك جلّ طور فخاره عن شبه مثل أو لحاق محاذى

حاء: حبيت بمعجزات ذكرها يولى ذوى الإيمان كلّ لذاذ

خاء: خصصت بها بفضل عناية منها لجأت إلى أجلّ ملاذ

دال: دحضت بحقّها مستقريا إبطال زور مشعوذ بملاذ

ذال: ذراع الشاة أفصح مخبرا عمّا يحاذر ضرّه بنفاذ

راء: رميت عصائبا قد ألّبوا فعموا و لمّا ينصروا بلواذ

زاى: زعيم بالوجاهة أنت إذ كلّ بجاهك عاذ كلّ عياذ

سين: سبقت بكلّ فضل يغتدى جفن المعالى منه ليس بقاذ

شين: شأوت مفاخرا كلّ الورى و تركتهم غرقى بلجّة آذى

صاد: صعدت ذرا لموقف زلفة ترك السعود مقطّع الأفلاذ

ضاد: ضويت إلى جلال كافل لك بالرضا درّ الجلالة غاذ

طاء: طلابيك لديك شفاعة فيها بذذت الجمع أىّ بذاذ

ظاء: ظماؤهم بحوضك سوّغوا ريّا كأنّ به مذاقة ماذى

عين: علا ذكر افتخارك و ارتقى عن غمر مغتاب وزور الباذى

غين: غمام قد علاك مظلّلا يمشى بمشيك دائما و يحاذى

فاء: فصاحتك البليغة أعجزت للقوم من قربى و من شذّاذ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۱۴

قاف: قواعد صرح كسرى زلزلت لولادة أوهت قوى ابن قباذ

كاف: كفلت بما تلته (و الضحى) لجماعة الجارين باستنقاذ

لام: لدعوتك المجابة أسبلت ثروات هتّان الحيا بهماذ

ميم: معين يديك إذ غلب الظّما أروى الورى من توأم و فذاذ

نون: نجارك أصله متخيّر من بطن ذات علا و أطهر حاذى

هاء: هتفت على تنائى شقّتى بعلاك هذى، ما نحلتك هذى

واو: و لو أنى استطعت لسابقت قلمى خطا قدمىّ بالإغذاذ

لا: لا أكيف قدر شوق باعث لعزائمى مستنهض شحّاذ

ياء: يمينا لو قدرت إذن لما أخّرت سعى مبادر حذحاذ

دامت عليك صلاة ربّك ما همت ديم بويل هاطل و رذاذ

[مدائح فى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم مما نظمه ابن الجيان المرسى]

رجع إلى الكاتب أبى عبد اللّه بن الجيان الأندلسى:

قال- تقبّل اللّه تعالى منه!- يمدح النبىّ صلى اللّه عليه و سلم: [المجتث]

يا من تقدّس عن أن يحيط وصف بذاته

و من تعالى جلالا عن مشبه فى صفاته

و من قبول ثنائى إليه أسنى هباته

صلّ على من تبدّى نور الهدى من سماته

و من علا الفخر لمّا نمى‌إلى معلواته

محمد خير هاد بحلمه و أناته

محمد خير داع بالصدق من كلماته

محمد خير مبد لنا سنا معجزاته

أكرم به من نبيّ همت سما مكرماته

أعزز به من رسول سمت علا درجاته

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۱۵

و خصّه اللّه منه بالفضل من تكرماته

لمّا حباه بأوفى صلاته فى صلاته

و قال: [المجتث]

يا ربّ بلّغ سلامى لأحمد ذى الشفاعه

لخاتم الرّسل أعنى إمام تلك الجماعه

لأبهر الخلق مجدا يحكى الصباح نصاعه

لمن صفات علاه تعجز أهل البراعه

لسيّد لسناه يزهى السّنا و اليراعه

لمرشد بهداه قد فاز عبد أطاعه

و ناظم الحسن نظما قد ضمّ منه ثعاعه

و سرّ سرّك يا من أرى العيون اطّلاعه

و من حبا بذكاء خلاله و طباعه

و مدّ فى كلّ فضل لصفوة الرّسل باعه

فزده يا ربّ فضلا و زد محبّيه طاعه

و قال أيضا غيره: [الوافر]

لقد رفع الإله عن البرايا ببعث محمد محن الصروف

أتى و الناس فى الآفاق نهب لسمر الخطّ أو بيض السيوف

فأنقذهم، و لو لاه لكانوا لقى بين الضلالة و الحتوف

نبيّ لا يغلّ عليه إلّا سخيف العقل ذو رأى مؤوف

كأغمار اليهود أو النصارى أو الفلكيّ أو كالفيلسوف

فبعض للتجاهل و التعامى و بعض للتحيّر و الوقوف

زعانف لا يهلك لها رواء فإنّ الجهل مائحة الظروف

إذا جارى بمختلّ ضعيف فإنّ صحاحنا فوق الألوف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۱۶

فبرهان النبوّة مستفيض ندلّ به على رغم الأنوف

شفوف الرّسل متّضح و لكن لأحمد الشفوف على شفوف

حروف الخطّ أصل للمعانى و للألف التقدّم للحروف

و ما أحسن قول القائل: [مجزوء الكامل]

لو لا النبيّ محمد هلك الورى فى سوء حاله

أعلى الورى قدرا و أكّ رمهم و أظهرهم دلاله

تم الإله به النبوّة و الطهارة و الرساله

و اختصّه دون البريّة بالمكانة و الجلاله

بدر الرسالة و الصحابة حول ذاك البدر هاله

قذف الحصا فى أعين ال كفّار فاعتنقوا الجداله

و تدرّعوا ثوب الكآبة بعد إظهار الجزاله

فأصخ إلى أنبائه تعلم بأنّ المنتهى له

و إذا ابتغيت وسيلة و مدحته و مدحت آله

فاقطع بأنك آمن يوم القيامة لا محاله

[من شعر أبى القاسم سعد بن محمد و أبى اليمن بن عساكر]

و قال أبو القاسم سعد بن محمد: [الكامل]

أطلق لسانك بالصلاة على النبيّ الأبطحيّ الهاشميّ محمد

و اجعل شعارك ذاك تنج به غدا إنّ النجاة بذكر يوم للغد

و لأبى اليمن بن عساكر [الكامل]

يا ربّ صلّ على النبيّ و آله صلواتنا ما دامت الأيام

و اخصص ختوم سلامنا بجنابه كالمسك يعبق فضّ عنه ختام

و احرس شريعته و أوضح سبلها تبدو بها للسالك الأعلام

و أدم كرامته و أعل مناره و أنله أعلى ما لديك يرام

و ارفع له الدرجات فى رتب العلا فهو الذى للمرشدين إمام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۱۷

و أقمه بين يديك زلفى موقف للحمد ما لسواه فيه مقام

و أنل شفاعته و أورد حوضه من لو أتاه يشتكى منه أوام

و أتح له ما لا يرام حصوله إلّا بلقياه، و عزّ مرام

و له عليه فى الأصائل و الضحى تهدى إليه تحيّة و سلام

و به إلى تقبيل موطئ نعله وجد له بين الضلوع أوام

[قصيدة أخرى لأبى اليمن بن عساكر]

و له أيضا رحمه اللّه تعالى: [الوافر]

ألا إنّ الصلاة على الرسول شفاء للقلوب من الغليل

فصلّ عليه؛ إنّ اللّه صلّى عليه و لا تكونن بالبخيل

و صلّ عليه قد صلّت عليه ملائكة السماء بجبرئيل

ألا إنّ الصلاة عليه نور لدى الظلمات فى اليوم المهول

و تثقيل لميزان خفيف و تخفيف من الوزر الثقيل

إذا صلّيت صلّى اللّه عشرا بواحدة عليك على الرسول

و تحظى بالشفاعة يوم تضحى و ما لك من مقيل أو منيل

فأكثر أو أقلّ فأنت تجزى بذلك من كثير أو قليل

فصلّ عليه تجز جزاء ضعف و تجز مضاعف الأجر الجزيل

و أولى الناس أكثرهم صلاة عليه به و أحرى بالقبول

و أنجاهم من الأهوال عبد بها لهج بدل قال و قيل

فكن لهجا بذكراه حفيّا بلقياه و منصبه الجليل

و صلّ مدى الزمان على رسول كريم مصطفى برّ وصول

و صلّ على حبيب فاق فضلا مدى شأو الكلام مع الخليل

و آتاه الوسيلة مستجيبا و بلّغه نهاية كلّ سول

و أزلفه و شفّعه ليأوى إليه الناس فى ظلّ ظليل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۱۸

و أطّد شرعه و حمى حماه و أيّده بواضحة الدليل

و شرّفه و لم يبرح شريفا فيجمع جملة المجد الأثيل

و زاد محبّه شرفا و فخرا بتفضيل و تنويل جزيل

و زاد علاه منه بطول عمر قصيّ من مواهبه طويل

و أوردنا عليه الحوض وفدا لنروى بالرّوى من سلسبيل

و له رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

أدم الصلاة على النبيّ المصطفى تخلص بذاك من الجحيم و نارها

و تولّ إقبالا عليها كلّما هتف المؤذن مشعرا بشعارها

فالفخر أجمعه له فتلقّه من نوبة الأسحار فوق منارها

فهذه عدة قصائد فى مدحه صلى اللّه عليه و سلم، أرجو من اللّه سبحانه أن تكون مكفرة لما ارتكبته على وجه الفخر و الشهرة من الهزل و اللهو، فإنّ ذلك و اللّه قول لا فعل له، و إنما هو على نهج أهل الأدب كالحافظ شيخ الإسلام ابن حجر و غير واحد ممّن ألّف فى الأدب و جمعه.

[مقطوعات لابن الجيان المرسى]

و لا بأس أن نعزّزها بمقطوعات تكون للتكفير زيادة، و حقّ لمن توسّل بسيد الوجود صلى اللّه عليه و سلم أن لا تضيع وسائله، و كيف و هو صاحب المقام المحمود و الشفاعة و السيادة، فمنها قول ابن الجيان المذكور آنفا رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

إلى أحمد المختار نهدى تحيّة تفاوح روض الحزن بللّه المزن

إذا نافحت مغناه زاد تأرّجا و إن لثمت يمناه قابله اليمن

أسيّر أشواقى رسولا بعرفها لتسعدها منه العوارف و المن

و أرجو إليه الفضل فهو منيله و ما خاب لى فيه الرجاء و لا الظنّ

عليه اعتمادى حين لا لى حيلة إليه استنادى حين ينبو بى الركن

به وثقت نفسى الضعيفة بعد ما أضرّ بها من ضعف قوتها الوهن

إليه صلاتى قد بعثت مشفّعا سلاما به الإحسان ينساق و الحسن

و قوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۱۹

أ يذهب يوم لم أكفّر ذنوبه بذكر شفيع بالذنوب مشفّع

و لم أقض فى حقّ الصلاة فريضة على ذى مقام فى الحساب مرفّع

أرجّى لديه النفع فى صدق حبّه و من يرتج المختار لا شكّ ينفع

و أهدى إلى مثواه منى تحيّة إذا قصدت باب الرضا لم تدفّع

و قوله رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

يا أرحم الخلق يوم الحشر و الندم ارحم عبيدك يا ذا الطّول و النعم

إنى توسّلت بالمختار سيدنا الطاهر المجتبى من خيرة الأمم

إليك من سيئاتى إنها عظمت يا واحدا لم يزل فردا و لم ينم

عليه منك صلاة كلّما طلعت شمس و ما خطّ فى الأوراق بالقلم

فهو الشفيع الذى أرجو النجاة به من الجحيم إذ الكفّار كالحمم

و قوله أيضا رحمه اللّه تعالى: [الخفيف]

بحبيب القلوب معتمد الخل ق أبى القاسم النبىّ الشفيع

قد تشفّعت من ذنوبى إلى ذى ال عزة الواحد العلى السميع

فاشفع اشفع يا خاتم الرّسل يوم الح حشر و المشهد العظيم الفظيع

لظلوم لنفسه قد تناهى فى الخطايا و كلّ فعل شنيع

فإذا ما تذكّر الذنب فاضت مقلتاه و اغرورقت بالدموع

لا نخيّب رجاءه إنه من ربّه خائف كثير الخشوع

و عليك الصلاة بدءا و عودا ما أضاءت ذكاء عند الطلوع

و قوله أيضا عفا اللّه تعالى عنه: [البسيط]

يا ربّ إنّ شفيعى من ذنوبى فى يوم القيامة خير الخلق و النسم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۲۰

محمد خاتم الرّسل المبلّغ لل دين الحنيفى و الإسلام للأمم

عليه منى صلاة كلّما سجع ال حمام فوق غصون البان و السّلم

و بعد ذلك أعداد الجبال و رم ل الأرض و الطير و الحيتان و النّعم

كذاك أيضا سلامى طيّب عطر عليه ما قام عبد فى دجى الظّلم

للّه و هو كئيب خائف وجل من الذنوب حزين القلب ذو ألم

[مقطوعات للإمام أبى زيد الفازازى]

و قول الشيخ الإمام أبى زيد الفازازى رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

كملت بنعت محمد خير الورى غرر القصائد كلّها و حجولها

و اختصّ دون الأنبياء بدعوة وسع العباد عمومها و شمولها

فاضت على الثّقلين منه أشعّة طلعت و ما عقب الطلوع أفولها

فالإنس تعلم أنه مقصودها و الجنّ توقن أنه مأمولها

كم آية بالصدق كان ظهورها كم آية بالسّبق كان نزولها

و كفاك هذا الوحى فهو شهادة لمحمد لزم العباد قبولها

جمع الإله المكرمات لأمّة هذا النبىّ الهاشمىّ رسولها

و قوله رحمه اللّه تعالى: [الرمل]

أىّ نور كشف اللّه به سدف الباطل عنّا أجمعين

ختم اللّه به أنواره عند ما أكمل سنّ الأربعين

و أتانا بدليل بيّن عجزت عنه دواعى المدعين

فهو للناس جميعا مرشد و هو باللّه تعالى مستعين

تركت دعوته و هو الرضا سائر الخلق إليها مهطعين

فأعد أنباءه فهو منى أنفس القائل و المستمعين

و الذى يهدى إلى شرعته فهو مجّاجّ من العذب المعين

و الذى يرغب عن سنّته فهو من شيعة إبليس اللعين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۲۱

و قوله و هو كما قبله لزومى: [الطويل]

أصخ فلخير العالمين مناقب تدلّ على التمكين و الشرف الأسرى

أتى و الورى أسرى فكان غياثهم بنور سماء ينقلوه عن الإسرا

و عفّى رسوم الكافرين و أهلها فلا قيصر من بعد ذاك و لا كسرى

تقدّم كلّ العالمين إلى مدى تظلّ به الأوهام ظالعة حسرى

و خصّ بتشريف على الناس كلّهم و من لم يقل هذا تقوّله قسرا

ترقّى إلى السبع الطباق ترقّيا حقيقا و لم يعبر سفينا و لا جسرا

و بالجسم أسرى اللّه و هو دلالة يمحّلها من لا تيسّر لليسرى

فسبحان من أسرى إليه بعبده و بورك فى السارى و بورك فى المسرى

و كم عجب أوحى إلى عبده به فدونك تجميلا و لا تطلب القسرا

و قوله رحمه اللّه تعالى: [الرمل]

هاك عن هذا النبىّ المصطفى خبرا يقبله من سمعه

سبّحت صمّ الحصا فى كفّه ثم فى كفّ الهداة الأربعه

و إذا أبدى نبىّ عبرة فهو لا ينكر فيمن تبعه

أىّ نطق قد روى إعجازه عن سماع كلّ من كان معه

حجج الرّسل التى قد سلفت أصبحت فى أحمد مجتمعه

فاعتقد صحّتها و اعمل بها فدعاوى ضدّها منقطعه

ممكنات العقل لا يجحدها غير أهل الطبع و المبتدعه

و قوله رحمه اللّه تعالى: [الوافر]

إذا أمّلت من مولاك قربا فجدّد ذكر خير الأنبياء

و صلّ عليه أول كلّ قول و آخره بصبح و المساء

فإنّ محمدا أعلى البرايا محلّا فى السيادة و العلاء

لواء الحمد فى يمنى يديه و كلّ الناس من دون اللواء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۲۲

فحدّث عن دلائله ففيها شفاء للنّهى من كلّ داء

و لست بناقل للعشر منها و هل تفنى الزواخر بالدلاء

فقل للسامعين قفوا فهذا محال ليس يحصر بانتهاء

براهين البسيطة ليس تحصى فدونكم براهين السماء

و قوله رحمه اللّه تعالى: [مجزوء الكامل]

أمّا يمين محمد و يساره فهما سماء

كلتاهما إن صوح ال مرعى لنا طعم و ماء

و إذا أضرّ بنا السقا م و غيره فهما شفاء

فاعجب لكف فى الورى فيها عن المزن اكتفاء

فاقطع بأنّ محمدا فى الخلق ليس له كفاء

فإذا أصخت لآية فالنور فيها و الضياء

هذا الصباح الهاشمىّ بدا فليس له خفاء

فالأرض قد فتحت بمب عثه و فتّحت السماء

و قوله رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

بركات رسل اللّه غير خفيّة و محمد خير البريّة أبرك

هذا النبىّ الهاشمىّ هو الذى هدى الأنام به و بان المسلك

كم آية لمحمد كم حجّة عزّ الولىّ بها و ذلّ المشرك

دعواته مسموعة مرفوعة و الحس ليس يصحّ فيه تشككك

لا شىء أعجب من دليل واضح يحيا به بعض و بعض يهلك

أمسك بحبل محمد خير الورى تظفر بقصدك أيها المستمسك

و إذا عجبت لغاية فى رفعة فمحلّ أحمد غاية لا تدرك

و قوله رحمه اللّه تعالى: [مجزوء الكامل]

قبح الإله الملحدى ن فإنهم جحدوا الضرورة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۲۳

و المعجزات تواترت عن أحمد فى كلّ صوره

و اللّه أعلى كعبه فى خلقه و أتمّ نوره

كثر الطعام مع الشرا ب بكفّه عند الضروره

و تكنّفته عنايهٔ من ربّه أعلت أموره

نادى البريّهٔ فالقلو ب إلى أجابته مصوره

و حمى الشريعهٔ بالدليل فدع معاندها و زوره

قل للمشكّك حين يب دى فى تشكّكه قصوره

بينى و بينكم الكتا ب فدونكم فأتوا بسوره

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

إذا بهرت للهاشمىّ دلالهٔ فكم حجج فى طيّها و دلائل

فكم مرهٔ آتى الغنى كفّ سائل و كم مرهٔ أعطى المنى فكر سائل

له تحت أستار الغيوب شهادهٔ معدّلهٔ لم تبق قولا لقائل

يحدث عمّا كان أو هو كائن فقس آخرا من صدقه بالأوائل

إذا الصدق لم يعوزك فى غدواته فلا شكّ فى تصديقه بالأصائل

و حسبك فى الأنباء بالغيب أنه ستسمعها بالنقل من قول قائل

و قوله رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

يا ذا المعنّى بهذا الذكر تسمعه فى المدح تأثره فى سيد الناس

هذا النبىّ، و من آيات أثرته فى الطيب و الطّول لا تجرى بمقياس

قد انقضت معجزات الغيب وافيهٔ صحيحهٔ باستفاضات و إحساس

و هاك نوعا من الإعجاز منتزها عن نقد منتقد أو صفح قرطاس

لا تعدم النقل عن آثار سيدنا فإنما نحن فيها بين أغراس

تنقّل الأنف فى النوّار ينشقه من ياسمين إلى ورد إلى آس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۲۴

إنّ القلوب إذا اعتلّت خواطرها فذكر أحمد فيها المبرىء الآسى

و قوله رحمه اللّه تعالى: [المتقارب]

تأدّب إذا ذكر المصطفى بصمت اللسان و غضّ البصر

فإنّ التأدّب عند السماع يفهّم فى النطق أو فى النظر

و ردّد أحاديثها إنها دليل على صدق خير البشر

و صلّ عليه مدى ذكره فذلك يفضل ما يدّخر

و لا تسترب فى براهينه فتسلك مسلك قوم أخر

فكم آيهٔ ظهرت للنبىّ و كم أثر عنده قد ظهر

و من شكّ فى نور برهانه على أنّ برهانه قد بهر

فكبّر على عقله أربعا و قل فوق طوركَ هذا الخبر

و قوله رحمه اللّه تعالى: [مجزوء الكامل]

اعمل بآثار الن بىّ فإنها النور المبين

و اقبل نصيحتها ففى‌ها العزّ و الشرف المكين

و اشدد يمينك بالشرى عة إنها السبب المتين

خير البريّة أحمد و الحقّ يصحبه اليقين

ذو قوّة عند الإل ه مقرّب منه مكين

زان النبيّون الورى و محمد لهم مزين

هاد إلى طرق النجا ة مؤيّد فيها أمين

و الهج بمدح الهاشمىّ فإنه الحصن الحصين

و لئن فعلت فلن تفو تك بعد ذا دنيا و دين

و هذا تسديس جعلته للكتاب مسك الختام: [الطويل]

و للناس أعمال فخير و ضدّه و ما يحسن الأعمال غير الخواتم

و إلّا فالأمداح النبوية بحر لا ساحل له، و فيها النثر و النظام، زاده اللّه شرفا و حباه أفضل الصلاة و أزكى السلام!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۲۵

[تسديس فى مدح الرسول من نظم أبى الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقرى الأندلسى]

و هذه القصيدة من نظم الفقيه الأجلّ أبى الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقرى الأندلسى- نفعه اللّه تعالى بنيّته، و بلغه غاية أمنيته!- و ترتيبها على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب فيما عدا الروى فإنه على حرف الميم، و كذا آخر الشطر الذى قبله فإنه ميم أيضا، و هذا نصّه بحروفه ما عدا حرف الواو، فإنى لم أجده و كملته على منواله: [الخفيف]

حلّ فى طيبة رسول كريم فعليه الصلاة و التسليم

صفوة الخلق خاتم الأنبياء مرشد الناس للطريق السّواء

و العماد الملاذ فى اللأواء و شفيع العصاة يوم الجزاء

يوم يبدو لديه جاه عظيم فعليه الصلاة و التسليم

أذهب الغىّ نوره و الغياهب فأضاءت مشارق و مغارب

و غدا الحقّ غالبا للأكاذب و بدت منه للأنام عجائب

صدق أقواله بها معلوم فعليه الصلاة و التسليم

لبراهين صدقه معجزات حيثما حلّ حلّت البركات

و سمت أربع به و جهات فبه قد تعرفت عرفات

و به تاه زمزم و الحطيم فعليه الصلاة و التسليم

لم يزل هاديا صدوق الحديث و وفيّا بالعهد غير نكوث

و مجيبا لدعوة المستغيث و كريما نداه فوق الغيوث

و يداه بالجود جود سجوم فعليه الصلاة و التسليم

بهج الحقّ أوضح الابتهاج سيد نوره أضاء الدياجى

خصّه اللّه ليلة المعراج باصطفاء و رفعة و نتاج

و بتكليمه له التكريم فعليه الصلاة و التسليم

مصطفى مجتبى كريم صفوح للنبيّين جاهه ممنوح

فلإكرامه أجير الذبيح و نجا آدم و خلّص نوح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۲۶

و كذاك الخليل إبراهيم فعليه الصلاة و التسليم

بعثه كان رحمة للعباد دلّهم بالهدى طريق الرشاد

و نفى كلّ باطل و عناد و دعا للإله دعوة هادى

فإذا الحقّ واضح مستقيم فعليه الصلاة و التسليم

أمّه بالشّكاة ظبى أخيذ مستجيرا بجاهه يستعيذ

و به كانت الوحوش تلوذ و له خاطب الذراع الحنيذ

لا تذقنى فإننى مسموم فعليه الصلاة و التسليم

أشبع الجيش و الطعام يسير و دعا نخلة فجاءت تسير

و همى من يديه عذب نمير و له البدر شقّ و هو منير

معجزات تحار فيها الفهوم فعليه الصلاة و التسليم

حجب النور فى السماوات جازا فاحتوى الفضل و العلاء و حازا

فبه فى غد ننال المفازا و كفى أمّة الرسول اعتزازا

أن تمنى يكون منها كليم فعليه الصلاة و التسليم

إنما الحكم منه عدل و قسط لم يجر فى القضاء و الحكم قطّ

حبّه فى بلوغ قصدى شرط و بأمداحه ذنوبى تحطّ

و يزول العنا و تجلى الهموم فعليه الصلاة و التسليم

قد حمى ديننا برعى و لحظ و نفى روعنا بأمن و حفظ

و حبانا بما لدى الربّ يحظى هاديا راحما لنا غير فظّ

مثل ما نصّه الكتاب الكريم فعليه الصلاة و التسليم

نور برهانه جلا كلّ شرك و هداه أجار من كلّ هلك

أخير العالمين من غير شكّ فلكم رامه العداة بشكّ

و هو فى كلّ حالة معصوم فعليه الصلاة و التسليم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۲۷

ما لخير الأنام منهم عديل إنه مجتبى نبىّ رسول

ما عسى مادح الشفيع يقول و بأمداحه أتى التنزيل

و ثناه خلاله مرسوم فعليه الصلاة و التسليم

نحن لو لا اتّباعه لشقينا نور برهانه أرانا يقينا

و غدا ما نخاف منه يقينا و كؤوسا بحوضه قد سقينا

من رحيق مزاجه مختوم فعليه الصلاة و التسليم

أحمد عند ربّه ذو اختصاص جاهه كامل بغير انتقاص

عدة للمسيء يوم القصاص و شفيع لكلّ جان و عاصى

يوم يجفو الحميم فيه الحميم فعليه الصلاة و التسليم

بيديه حوائج الكلّ تقضى و يجازى الذى أجاز و أمضى

و ينادى الحبيب أنت المرضى سوف نعطيك ما تحبّ و ترضى

فتحكّم يمضى لك التحكيم فعليه الصلاة و التسليم

فاق بالمولد السعيد ربيع إن فيه بدا الجلال الرفيع

من هو الذخر و العماد المنيع فملاذ للمذنبين شفيع

و رؤوف بالمؤمنين رحيم فعليه الصلاة و التسليم

أفصح الناس فى حديث و أبلغ بيّن الوحى للأنام و بلّغ

طيب الحلّ قد أباح و سوّغ و لكم نعمة من اللّه سوّغ

فلإحسانه علينا عميم فعليه الصلاة و التسليم

كان بالحقّ و الهدى معروفا أجود الناس بالندى موصوفا

شرّف اللّه قدره تشريفا هاديا مرشدا رسولا شريفا

مجده فى العلاء مجد صميم فعليه الصلاة و التسليم

وجهه بالبها أضاء و أشرق مجده فى صميمه الأصل أعرق

مسّ فى كفّه قضيبا فأورق بأصبع قد أشار للبدر فانشقّ

ثم قاد عاد و هو بدر سليم فعليه الصلاة و التسليم

جاءه الوحى أنت خير الناس بلّغ الأمر لا تخف من باس

و خذ العفو للأنام و واس و احمهم من مكايد الوسواس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۲۸

فعليك البلاغ و التعليم فعليه الصلاة و التسليم

كان فى اللّه أثبت الناس جاشا ليس من غيره يخاف و يخشى

فبكفّ من الحصا فلّ جيشا و عيون العداة بالترب أعشى

فنجا المصطفى و خاب الظلوم فعليه الصلاة و التسليم

قد سما قدره بغير تناهى و علا جاهه على كلّ جاه

آمر بالتقى عن الشّرّ ناهى من يطعه ينل ثواب الإله

و له عنده النعيم المقيم فعليه الصلاة و التسليم

عمدة الخلق للمفاخر حاوى بحماه يلوذ كلّ و ياوى

مبلغ المعتفى الذى هو ناوى كيف يحصى ثناء أحمد راوى

و عليه أثنى الكتاب الحكيم فعليه الصلاة و التسليم

حسنه كالصباح بل هو أجلى و ندى كفّه من الشهد أحلى

و اعتلا قدره من السبع أعلى مدحه فى الكتاب ما زال يتلى

فله الفخر و الثناء العظيم فعليه الصلاة و التسليم

خصّه اللّه من رسول نبىّ فى جميع الورى بقدر علىّ

و حباه منه بنور بهىّ فهدى الخلق للصراط السّوىّ

و صراط الهدى سوىّ قويم فعليه الصلاة و التسليم

[خاتمة الكتاب للمقرى]

قال مؤلف هذا الكتاب، العبد الفقير أحمد بن محمد المقرى المالكى- وفّقه اللّه تعالى إلى حسن المتاب، و حباه الدخول فى زمرة من رفع عنهم بشفاعة المصطفى الإصر و العتاب:

هذا آخر ما سمح به الخاطر الكليل، من هذا المقصد الجليل، الذى يكون إلى ما وراءه من الطّرف الأدبية خير دليل، و وضعته و القلب حليف شجن و غربة، و الفكر أليف حزن و كربة، و أنا أسأل اللّه تعالى الذى لا يرجى سواه، أن يجعل بناءه ثابتا بحسن النيّة حيث البناء الذى فيه حظّ النفس واه، و أن يكون ما طلبته فيه من الهزل بالجدّ المذكور فيه مكفرا، و أن ينفع به من وجّه إليه وجهته، فإنى قد جمعت فيه ما يندر جمعه فى غيره و كلّ الصيد فى جوف الفرا:

[المجتث]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۲۹

يا من عليه اتكالى و من إليه متابى

جد لى بعفوك عنّى إذا أخذت كتابى

و اعلم أنّ هذا الكتاب معين لصاحب الشعر، و لمن يعانى الإنشاء و النثر من البيان السحر. و فيه من الوعظ و الاعتبار، ما لم ينكره المنصف عند الاختبار، و كفاه أنه لم ير مثله فى فنّه فيما علمت، و لا أقوله تزكية له، و يعلم اللّه تعالى أنى تبرّأت من هذا العارض و منه سلمت، و لو لم يجز من الشرف إلّا ختمه بهذه الأمداح النبوية الشريفة، ذات الظلال الوريفة، لكان كافيا شافيا، وها أنا أجعل آخره تنبيها للّبيب، قول ابن حبيب: [السريع]

يا خير مبعوث له طلعة نور الهدى منها أقرّ العيون

جئت إلى ناديك أرجو القرى من غيث كفّيك المغيث الهتون

كن لى شفيعا فارتكاب الهوى أوقعنى بين الشّجا و الشجون

صلّى عليك اللّه سبحانه ما هزّت الريح قدود الغصون

و قال النواجى: [الوافر]

لقد أفرطت فى حسن ابتداء و رمت تخلّصى يوم الزحام

فبالمختار أرجو عفو ربّى ليرشدنى إلى حسن الختام

و كان الفراغ منه عشية يوم الأحد المسفر صباحها عن السابع و العشرين لرمضان سنة ثمان و ثلاثين و ألف، بالقاهرة المحروسة، و الحمد للّه و كفى، و سلام على عباده الذين اصطفى، و ألحقت فيه كثيرا فى السنة بعدها؛ فيكون جميعه آخر الحجة تتمة سنة تسع و ثلاثين و ألف، و صلّى اللّه على سيدنا محمد، و على آله و صحبه و سلّم، دائما أبدا إلى يوم الدين، آمين.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۳۱

فهرس الرسائل و الخطب و الوصايا للجزء التاسع من كتاب نفح الطيب

* ابن بطوطة: قطعة من رحلته ۱۸۲

* ابن الجنان، أبو عبد اللّه: وصية كتبها على لسان ابن هود ۲۳۷

رسالته إلى أبى المطرف بن عميرة ۲۴۶

خطبة له مرتجلة ۲۵۱

رسالته إلى الرسول صلى اللّه عليه و سلم ۲۵۱

من خطبة له طويلة ۲۵۳

* على بن لسان الدين: رسالة على لسان سلطانه ۲۱۶

رسالة أخرى على لسان سلطانه ۲۲۱

رسالة عن الغنى بالله ۲۲۶* الكفعمى: رسالته إلى ابن الفرفور ۱۸۸

* لسان الدين بن الخطيب

وصيته لأبنائه ۲۲۷

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۳۲

فهرس الجزء التاسع من كتاب نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب» للمقرى التلمسانى و هو آخر جزء من أجزاء الكتاب

الباب السابع من القسم الثانى من الكتاب، فى ذكر تلامذة لسان الدين بن الخطيب ۳

الوزير أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن زمرك، الصريحى، ترجمة عن «الإحاطة» ۳

نماذج من قصائد ابن زمرك المطولة ۵

قصيدة له يصف فيها «الزرافة» و قد وفد بها الأحادبيش على أبى سالم ملك المغرب ۹

قصيدة أخرى لابن زمرك أنشدها السلطان ۱۲

من شعره فى غير المطولات ۱۶

تقريظ لكتاب الشفاء عند ما شرحه ابن مرزوق ۱۷

تعليقات من كلام على بن لسان الـدين على ما كتبه أبوه فى ترجمة الوزير ابن زمرك ۱۸ ترجمة ابن زمرك عن الأمير ابن الأحمر ۲۰

قصيدة لابن زمرك فى التهنئة بالعيد ۲۶ لابن زمرك فى الشكر ۳۲

مقطوعات لابن زمرك فى وصف زهر القرنفل ۳۳

قصيدة له يمدح فيها ابن الأحمر و يهنئه ۳۴

قصيدة له فى المولد النبوى ۳۵

قصيدة له فى التهنئة، و فيها يصف الجند ۴۰

قصيدة أخرى فى التهنئة، و فيها يصف دار الملك ۴۴

تخميس له يهنئ فيه ابن الأحمر بعوده من سبتة ۵۱

قصيدة لابن زمرك يهنئ فيها بالعيد ۶۴

قصيدة له فى التهنئة أيضا ۶۸ قصيدة له يصف فيها نزهة لابن الأحمر ۷۳

مقطوعات له فى الشكر ۷۶

مقطوعات فى معان مختلفة ۸۱

مما أنشده على لحد ابن الأحمر ۹۰

له يستعطف السلطان أبا الحجاج ۹۲

من شعره فى أبى الحجاج ۹۳

له يراجع الكاتب أبا زكريا بن أبى دلامة ۹۴

موشحة لابن زمرك، يتشوق فيها إلى غرناطة ۹۵

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۳۳

موشحة أخرى له ۹۷

موشحة كتب بها إلى الغنى بالله ۹۹

موشحة أخرى عارض بها موشحة ابن سهل ۱۰۱

من موشحاته فى الصبوحيات ۱۰۳

موشحة له فى مالقة ۱۱۱

موشحة أخرى له فى مالقة ۱۱۲

موشحة له فى الشفاء ۱۱۴

موشحة له يهنئ فيها السلطان موسى بن أبى عنان ۱۱۶

موشحة له أخرى فى وصف غرناطة ۱۱۷

ترجمة أبى العباس أحمد بن جعفر، السبتى، الخزرجى، و ذكر بعض أحواله ۱۱۹

رجع إلى ترجمة ابن زمرك ۱۲۹

بعض فوائده، عن الشاطبى ۱۲۹

موشحة لابن زمرك فى مدح الرسول ۱۲۹

من تلامذة لسان الدين الطبيب ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا ۱۳۱

و منهم الأديب أبو بكر بن جزى الكلبى ۱۳۱

و منهم أبو عبد اللّه الشريشى ۱۳۱ و من تلامذة لسان الدين بن الخطيب القاضى الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد اللّه بن طلحة، المحاربى ۱۳۲

و منهم الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون ۱۳۶ الباب الثامن من القسم الثانى من الكتاب، فى ذكر أولاد لسان الدين ۱۳۷

عدة أولاد لسان الدين ۱۳۷

- محمد بن لسان الدين- على بن لسان الدين- عبد اللّه بن لسان الدين ترجمة بقلم لسان الدين لابنه عبد اللّه ۱۳۷

من شعر عبد اللّه بن لسان الدين قصيدة فى مولد الرسول، سنة ۷۶۴ ۱۳۸

و منه قصيدة يمدح بها السلطان أبا عبد اللّه محمد بن يوسف بن نصر ۱۴۰

و له فى إعذار ابن السلطان ۱۴۳

و له، و أنشده السلطان ليلة الميلاد فى سنة ۷۶۵ ۱۴۶

بين لسان الدين و ابنه عبد اللّه ۱۴۸

على بن لسان الدين ۱۴۹
تذييلات له على كتاب «الإحاطة» لأبيه ۱۵۰
فى ترجمة محمد بن أحمد الهوارى، الشهير بابن جابر ۱۵۰
من شعر ابن جابر الذى لم يذكره لسان الدين ۱۵۱
مقصورة عجيبة من شعر ابن جابر رتبها على حروف المعجم فيما قبل الألف المقصورة، و أتى من كل حرف بعشرة أبيات ۱۵۴
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۳۴
قصيدة لابن جابر تتضمن التورية بأسماء سورة القرآن الكريم ۱۶۹
معارضة لقصيدة ابن جابر، على وزنها و رويها ۱۷۲
قصيدة للشيخ القلقشندى جرى فيها مجرى ابن جابر ۱۷۴
معارضة أخرى لقصيدة ابن جابر ۱۷۶
خطبة نثرية للقاضى عياض تتضمن التورية بأسماء السور ۱۷۸
خطبة لسعيد بن أحمد المقرى عم المؤلف عارض بها خطبة القاضى عياض ۱۸۰
من نظم ابن جابر ۱۸۱
و فى معناه لشمس الدين الدمشقى ۱۸۱
من شعر ابن جابر أيضا ۱۸۲
رجع لأولاد لسان الدين، من ترجمة على بن لسان الدين ۱۸۳
خطبة الكفعمى فى التورية بسور القرآن الكريم ۱۸۴
قصيدة فى نسق سور القرآن للكفعمى أيضا ۱۸۵
ترجمة إبراهيم بن على الكفعمى ۱۸۷
رجع إلى نظم ابن جابر ۱۹۰
من شعر أبى جعفر، رفيق ابن جابر ۱۹۱
بين ابن عنين و الملك المعظم ۱۹۲
مقطعات من شعر ابن جابر أيضا ۱۹۲
قصيدة لابن جابر فى فضائل الصحابة ۲۰۱
مقطوعات من شعر ابن جابر أيضا ۲۰۷
من شعر أبى جعفر، رفيق ابن جابر ۲۱۱
عود إلى ذكر على بن لسان الدين ۲۱۶
نصيحة من إنشائه كتبها على لسان السلطان، و فيها عجائب مما أوصى به الولاة ۲۱۶
و له أيضا على لسان السلطان ۲۲۱
كتاب من إنشاء على بن لسان الدين عن لسان السلطان الغنى بالله ۲۲۶
وصية لسان الدين لأولاده ۲۲۷
وصية من إنشاء ابن الجيان المرسى، كتبها عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه ۲۳۷
من شعر ابن الجيان المرسى ۲۴۴

من ترجمة ابن الجيان عن «الإحاطة» ۲۴۵

من نثر ابن الجيان رسالة كتب بها إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم ۲۵۱

ترجمة ابن الجيان عن «عنوان الدراية» ۲۵۷

من بديع نظم ابن الجيان تخميس فى مديح النبى صلى اللّه عليه و سلم ۲۵۸

قصيدة مخمسة لبعض أهل المغرب ۲۶۲

قصيدة مخمسة لمؤلف هذا الكتاب ۲۶۳

قصيدة فى مديح الرسول الأكرم لابن الجيان المرسى ۲۶۴

قصيدة مخمسة فى المديح لإدريس بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۹، ص: ۳۳۵

موسى القرطبى ۲۶۵

تقريظ لابن الجيان على قصيدة إدريس بن موسى السابقة ۲۶۸

قصيدة مخمسة لابن سهل الإشبيلى ۲۶۸

قصيدة مخمسة لبعض الوعاظ ۲۷۱

قصيدة مخمسة لبعض أهل المغرب ۲۷۱

قصيدة مخمسة لمالك بن المرحل المالقى السبتى ۲۷۴

قصيدة مخمسة فى مدح النبى، لأبى العباس أحمد بن محمد المغربى ۲۷۸

قصيدة مخمسة فى مدح الرسول الأكرم، لابن القصير ۲۸۴

لجمال الدين بن جلال الدين الجوزى فى مدح النبى ۲۸۵

تسديس فى مديح الرسول، لمحمد بن العفيف، الحسنى، الصفوى ۲۸۶

تسديس آخر لابن العفيف الحسنى الصفوى ۲۹۰

تسديس آخر فى مدح النبى المصطفى لأبى عبد اللّه بن العطار، الجزائرى ۲۹۴

تسديس آخر فى مدح الرسول ۲۹۹

قصيدة فى مدح الرسول لابن العطار ۳۰۲

حديث عن كتاب لابن العطار فى مدح الرسول صلى اللّه عليه و سلم ۳۰۳

من قصائد كتاب ابن العطار فى المديح ۳۰۴

لابن العريف، فى مدح الرسول ۳۱۰

لأبى عبد اللّه بن عمران، فى مديح الرسول ۳۱۳

مدائح فى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم مما نظمه ابن الجيان المرسى ۳۱۴

لأبى القاسم سعد بن محمد ۳۱۶

لأبى اليمن بن عساكر ۳۱۶

قصيدة أخرى لأبى اليمن بن عساكر ۳۱۷

مقطوعات لابن الجيان المرسى ۳۱۸

مقطوعات للإمام أبى زيد الفازازى ۳۲۰

تسديس فى مدح الرسول من نظم أبى الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقرى الأندلسى ۳۲۴

تم فهرس الجزء التاسع من كتاب «نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب»

و به تم جميع الكتاب، و الحمد للّه رب العالمين

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ ُبنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحامِيل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/ "بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹